

# ذكريات

١



السعودية - جدة

دار المسيرة للنشر

# ذكريات

علي الططاوي

( ١ )

دار المنارة  
للنشر  
السعودية - جدة

# الطبعة الأولى

١٩٨٥ - ١٤٠٥ هـ

حقوق الطبع محفوظة

دار المنارة  
للنشر  
التجارية - جدة  
هاتف: ٦٦٠٣٢٣٨ - ٦٦٠٣٦٥٢ - تلکس: ٤٠٣٠٦٧  
ص.ب: ٢١٤٣١/١٢٥٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم. اللهم لك الحمد، اللهم وفقنا لما ترضى، واختم  
لنا بالحسنى...

وبعد.

فهذه ذكرياتي حَمَلَتْها طول حياتي، وكنت أعدها أعلى مقتنياتي، لأجد  
فيها يوماً نفسي، وأسترجع أمسي، كما يحمل قربة الماء سالك المفازة، لتردّ عنه  
الموت عطشاً، ولكن طال الطريق، وانتقبت القربة. فكلما خطوت خطوة  
قطرت منها قطرة، حتى إذا قارب ماؤها النفاذ، وثقل عليّ الحمل، وكلّ مني  
الساعد. جاء من يرتق خرقها، ويحمل عني ثقلها، ويحفظ لي ما بقي فيها من  
مانها، وكان اسمه (زهير الأيوبي).

جاءني يطلب مني أن أدوّن ذكرياتي في مجلة (المسلمون) لما عزم الأخوان  
الأستاذان هشام ومحمد ابنا أخي الأستاذ علي حافظ على إصدارها، وكان نشر  
هذه الذكريات إحدى أماناتي الكبار في الحياة، ولطالما عزمت عليها، ثم شغلت  
عنها. وأعلنت عنها لأربط نفسي بها، فلا أهرب منها، ثم لم أكتبها، بل أنا لم  
أشرع بها، لأنّي لا أكتب إلا للطبعة، لذلك لم أجد عندي شيئاً مكتوباً أرجع  
عند تدوين الذكريات إليه، وأعتمد عليه، وما استودعت الذاكرة ضعفت  
الذاكرة عن حفظه، وعجزت عن تذكره، لذلك أجلت وماطلت، وحاولت  
الحرب من غير إبداء السبب، وهو يحاصرني، ويسدّ المهابر عليّ، ويمسك بأدبه  
ولطفه وحسن مدخله، يمسك لساني عن التصريح بالرفض، ثم اتفقنا على أن

أحدث بها واحداً من إخواننا الأدباء، وهو يكتبها بقلمه، واخترنا الأخ العالم الأديب إبراهيم سرسيق، فسمع مني، ونقل عني، وكتب حلفتين، كانتا من براءة الاستهلال لهذا الكتاب، وما قصر أحسن الله إليه، بل لقد تطوّل، وأحسن وأجل، ولكن لا يحكّ جسمك مثل ظفرك، فكان من فضله عليّ أن أعاد بعض نشاطي إليّ، فبدأت أكتب.

ولولا زهير الذي اقترح، ولولا إبراهيم الذي نشط وشجع، لما كتبت، فلهما وللأستاذين هشام ومحمد، ولدي الأستاذ على حافظ، وابني أخ الأستاذ عثمان حافظ، رائد الصحافة في هذا البلد، لهم الشكر.

والشكر لولدي وصهري صاحب «دار المنارة» التي تقدّم الطبعة الأولى من هذه الذكريات، ولحفيدتي الذي عمل على ترتيبها وتنسيقها وإعدادها للطبع، وإن كان صهري محمد نادر حتاحت وحفيدتي مجاهد ديرية مني - لبسا غريبين عني، فإن شكرتهما فحماً لله أن رزقي مثلها، وإلا فما يشكر امرؤ نفسه.

والشكر للأستاذ محمد علي دولة، الذي أثر العمل في نشر الكتب على التعليم الذي كان من أهله، وكان موفقاً فيه، لما يجد في النشر من نفع الناس ورجاء ثواب الله. فهو الذي وقف على طبع الكتاب، ووضع فيه ذوقه وفنه وخبرته ونجربته.

\*\*\*

بدأت كتابة الذكريات وليس في ذهني خطة أسير عليها، ولا طريقة أسلكها، وأصدق القاريء أني شرعت فيها شبه المكروه عليها، أكتب الحلقة ولا أعرف ما يأتي بعدها، وكثيراً ما كنت أنسى ما الذي كتبت في التي قبلها، فجاءت غريبة عن أساليب المذكرات، وطرائق المؤرخين، فمن المؤرخين من مشى مع السنين، اقتداء بشيوخهم وشيوخ المفسرين (الطبري)، فقطع الحوادث الواحد تقطيعاً، فأضاع وحدته، وأبلى جدته، وفهم من جمع الأحداث ربط مبداءها بمتنهاها، ولكنه أخفى زمانها.

ووجدت الذين كتبوا مذكراتهم في هذه الأيام منهم من اعتمد على وثائق

مدوّنة، أو وصفاً للحادثات كتبها في حينها، وأنا لا أملك إلا بعض الأوراق الرسمية المدرسية، أو الوظيفة، أو الصور الشمسية، وكثير منها لم يكن تحت يدي وأنا أكتب، وقلت لنفسي: إن جاءت مهوشة على غير نظام، فكذلك الدنيا، الدنيا فيها صحو ومطر، ومسرة وكدر، ويسر وعسر، وضحك وبكاء، وشدة ورخاء. ولكن هل يأتي ذلك على ترتيب معروف، ونهج واضح؟

كذلك جاءت ذكرياتي.

ولعلي إن مدّ الله في الأجل، وتسطني للعمل، أعود إليها، فأستأنف النظر فيها، فأنظمها في خيط واحد، أضممّ النظير إلى نظيره، أجمع الأشياء، وأؤلف بين النظائر، حتى يأتي الحديث مسلسلاً. وإن لم يقدر لي ذلك فحسبي أن أنقذت من النسيان ما أمكن إنقاذه.

هذا وأنا إلى الآن قد كتبت، أو أنا على الصحيح قد أملت وكتبوا، مئة وثلاثين حلقة. ولا أزال في سنة ١٣٥٩ هـ، فهل أصل إلى نهاية الشوط؟

اللهم إن أحيتني فوفقني لما يرضيك، وإن نوفيتني فعلى دينك، واكتب لي بكرمك العفو عن سيئاتي. والنجاة يوم الحساب.

مكة المكرمة: صفر ١٤٠٥ هـ

علي الططايوي

## ذكريات لا مذكرات

هذه ذكريات وليست مذكرات . فالمذكرات تكون متسلسلة مرتبة، غدها وثائق معدة، أو أوراق مكتوبة، وذاكرة غضة قوية، وأنا رجل قد أدركه الكبر، فكُلَّت الذاكرة، وتسرب إلى مكانها النسيان، والنسيان آفة الإنسان، وإن كان نعمة من الله، ولولا أن المرء ينسى آلام الحياة، ما استطاع السكون إليها، ولا الرضا -.

وليس لدي أوراق مكتوبة، أدون فيها الحادثة حين حدوثها، وأصف أثرها في نفسي، وهذا يترابط كان مني، لم يعد إلى تداركه من سبيل، لذلك أوصي كل قارئ هذه النصوص أن يتخذ له دفترًا، يدون فيه كل عشية ما رأى في يومه. لا أن يكتب ماذا صح وماذا أكل، ولا كم ربح وكم أنفق، فما أريد قائمة مطعم. ولا حساب مصرف، بل أريد أن يسجل ما خطر على باله من أفكار، وما سئل في نفسه من عواطف، وأثر ما رأى أو سمع، في نفسه، لا ليطبعها ويشردها، في كل الناس من أهل الأدب والكتابة والنشر، ولكن ليجد فيها يوماً نفسه التي فقدتها

لا نعيش من هذا الكلام، فنحن في نبال مسنمر، كل يوم يموت في شخص، ويولد شخص جديد، والميت أنا، والمولود أنا، خلایا جسدي تتجدد كلها كل بضعة سنوات حتى لا يبقى منها شيء مما كان<sup>(١)</sup>، عواطف نفسي تتبدل

(١) وإن كاتب خلایا الدماغ، كما قالوا، أطول بقاء، وأقل ندلاً

فأحب اليوم ما كنت أكره بالأمس، وأكره ما كنت أحب. احكام عقلي تنعیه  
فأصوب ما كنت أراه خطأ، وأخطئ ما كنت أجده صواباً.

فإذا كانت خلايا الجسد تتجدد، وعواطف النفس تتغير، وحكم العقل  
يتبدل، فما هو العنصر الثابت الذي لا يتبدل ولا يتغير؟.

أقول: (قال لي عقلي)، و(قلت لنفسي)، فمن أنا إذن، إذا كان عقلي غيري  
فأقول له، وكانت نفسي غيري فتقول لي؟.

العنصر الثابت الباقي هو الذي لا ينقص إن قطع عضو من أعضائي،  
ولا يموت إن مت بل يبقى حباً بحاسب. فيكافأ أو يعاقب. هذا العنصر هو (أنا)  
الحقيقي، وهو شيء من غير عالمنا الأرضي، فلا تنطبق عليه قوانين علومنا  
الأرضية، هو الروح<sup>(١)</sup>.

هذا تفسير قولي إن من تعود أن يكتب كل يوم في هذا الدفتر، وجد فيه  
يوماً نفسه التي فقدها.

\*\*\*

قلت: إني أدون ذكريات، لا أكتب مذكرات، أنا لا أستطيع أن أكتب  
قصة حياتي متسلسلة مرتبة، لأنني أعتمد على ذاكرة فقدت حدنها، وأبليت الأيام  
جدتها، فقد أنسى الحادثة في موضعها. ثم أذكرها في غير موضعها.

وعيب آخر عندي، هو عيب كتب الأدب العربي القديم، ومن نشأ عليها  
وآلفها، هو الاستطراد، والخروج عن الموضوع. هذا كتاب الحيوان للجاحظ  
مثلاً، أسأل من قرأه منكم: كم في أبوابه مما يدل عليه عنوانه؟ هل التزم فيه  
علم الحيوان (أي علم الحياة) أم ذهب به الاستطراد يميناً وشمالاً، فتكلم في كل  
شيء؟ هذا هو أسلوب كتبنا الأدبية فلا تلوموني - وقد نشأت عليها -، أن أسلك  
سبيلها.

لقد صار الاستطراد عادة لي. أعترف أنها عادة سيئة، ولكن ما أكثر

---

(١) هذه المعاني أفضت فيها موسعة في كني وفي أحاديثي في الإذاعة والرائي.



العادة السيئة التي لزمنا فلم نستطع الانفكاك عنها. ولو كانت من المحرمات لأكرهت نفسي على تركها فليس لمسلم يأتي المحرمات أن يحتج بتعوده عليها، ولكنها لسوء حظي ليست من المحرمات.

ولطالما كنت أخطب في الحشد الكبير، أو أتكلم في الإذاعة أو الرائي (أي التلفزيون)، وأحاديثي فيها كلها ارتجال، ليس أمامي ورقة مكتوبة أقرأ فيها، فأستطرد وأخرج عن الخط، فإذا انتهى الاستطرد، وقفت كما وقف حمار الشيخ في العقبة، فلا أذكر من أين خرجت، ولا إلى أين أعود.

ولا تسألوني من هو هذا الشيخ، فإن المثل خلّد ذكر الحمار، ونسي اسم الشيخ، ليعلمنا أن خلود الأسماء ليس الدليل على عظمة أصحابها.

والمذكرات يكتبها أرباب المناصب، ورجال السياسة، وقادة الجيوش، الذين شاركوا في صنع الأحداث، فاستحقوا أن تكون مذكراتهم من مصادر التاريخ لهذه الأحداث، بعد ضرب بعضها ببعض، وتمحيص ما ورد فيها، لأن كل خباز يجر النار إلى قرصه، وكل راوٍ لقصة يكبر دوره فيها، ويصغر أو يححو دور غيره.

ولست من هؤلاء، وإن كنت قد شاركت من فوق المنبر، أو من وراء المذابح، أو من سطور الصحف والكتب، في كثير من الأحداث في بلدي. شاركت فيها، ولم أكن من صانعيها، ولا من قاطفي ثمارها. وإن طول عمري أقرب إلى العزلة، أعيش بين كتبي وفلة من إخواني، ذهب جلهم إلى رحمة الله.

وقد بقراً امرؤ ما كتبت في الحادث العظيم، أو يسمع ما قلت فيه، فيحسب أني أنا مدبر الأمر وأني مديره، لا يعلم أني جئت من بيتي، فدخلت من الباب الخلفي إلى المنبر، ثم نزلت من المنبر فخرجت من الباب الخلفي إلى بيتي، وإن كانت لي مواقف حولت مسار الحوادث، وأقامت وأقعدت، وأثارت وحسنت، لا يزال يذكرها كثير من أهل بلدي.

عفواً فأنا لا أمدح نفسي، وأنا أعلم أن الحديث عن النفس ثقيل على السمع، وكلمة (أنا) ليست من الكلمات المستساغات، ولكن ماذا أصنع وأنا

أدون ذكريات موضوعها (أنا)، فإن لم أتكلم عن نفسي في سرد ذكرياتي، فعمد  
تريدون أن أتكلم؟.

ولكن لكم علي عهداً، أنا موف به إن شاء الله، هو ألا أقول إلا الحق،  
وألا أذكر مما صنعت إلا ما يشهد كل من (عاصره) أنني صنعته.

وبيان آخر: الجندي حين يمضي في مهمة عسكرية، يمضي إلى غاية  
قدماً، لا يعرج على شيء ولا يلتفت إليه، ولكن السائح يسير متمهلاً، ينظر يمنة  
ويسرة، فإن رأى منظراً عجباً وقف عليه، وإن أبصر شيئاً غريباً صوره، وإن مر  
بأثر قديم سأل عن تاريخه، فيكود له من سيره متعة، ويكون له منه متعة، وأنا  
لا أحب في هذه الذكريات أن أسهب مشبة الجندي، بل أسير مسيرة السائح.

لا أكون مغمض العينين لا يرى من الدنيا إلا نفسه. كالذي يدخل بهو  
المرايا في (فرساي)، ولا أريد أن أتحدث عن نفسي وحدها وأغفل ما حولي،  
ولعل وصف ما كان حولي أجدي على القراء من سرد فصفة حياتي وحدها.

ذلك أن ما كان في صغري أمراً عادياً صار الآن عند أكثر الناس تاريخاً.

دمشق التي عرفتھا وأنا صغير ليست دمشق التي نراها الآن، تبدلت دُورها  
وحاراتها وأزياء أهلها، وكثير من أعرافهم وأوضاعهم. ودخل الحديث عنها في  
باب التاريخ.

\* \* \*

ولست أصف هنا دمشق، فإن لي كتاباً اسمه (دمشق)، فيه صور من  
جمالها، وعبر من نضالها، ونشرت في الرسالة في عشر الثلاثين من هذا القرن  
الميلادي (أو الثلاثينيات كما تقولون) مقالات كثيرة عنها.

وفي الدنيا اليوم مدن كثيرة موعلة في القدم، حتى أن التاريخ (نفسه) لم  
يدرك ولادتها، ولكن دمشق أقدم المدن العامرة المسكونة في الدنيا. وفي الدنيا  
مدن كثيرة بارعة الجمال، ولكن دمشق (في نظر أهلها على الأقل) أجل مدن الدنيا.

أو كانت أجل بلاد الدنيا، فأفسدنا نحن (أهلها) جمالها. أدهشت غوطتها

العرب لما رأوها، فأنطقت شعراءهم بروائع البيان، وحوالده القصائد... فأين اليوم الغوطة؟

الغوطة الغربية، قطعنا أشجارها، وقلعنا أورادها وأزهارها، ورمينا فوق رأسها الحجارة والأبرق (أي الاسمنت المسلح)، فقتلناها خنقاً، ودفناها حية، وأقمنا عليها بيوتاً طبقتها صناديق وعلب تسردن البشر.

تبدلت دمشق حتى جوها. من كان يحتاج في صيف دمشق إلى مراوح فضلاً عن المكيفات؟ متى كانت تصل الحرارة فيها إلى أربعين درجة مئوية؟ كان إخواننا من أهل المملكة السعودية، وأهل العراق، يصفون في دمشق نفسها، وما كنا نحن أهل دمشق نعرف الانتقال في الصيف إلى الجبال.

فما الذي غيرها؟ من ألهب هواءها وسدّ مسارب النسيم الناعش إليها؟ نحن، نحن الذين قطعوا أشجارها. الناس يزرعون ونحن نقلع، وهم يحولون الصحارى بساتين، ونحن نمسخ البساتين صحراء، ما صنعنا هذا اليوم، ولا قبل خمس سنين، بل هي جناية جنيناها على دمشق من عشرات مضت من السنين، حتى ضاع الحاني وقيدت (جناية من مجهول)!

حتى الغوطة الشرقية، الغوطة الكبرى، ما سلمت منا، ولا نجت من أدى أيدينا، في طرف الغوطة منطقة تدعى (درب الجوز) أعرفها أنا، فيها من أشجار الجوز ما لا يحيط بجذع الشجرة منه رجلان إذا مدا أيديهما، لست أدري من هو العبقرى الذي اختارها لمنطقة المصانع، ولا متى كان ذلك، فقامت مكان الأشجار الضخمة، التي تثمر الجوز، مداخل تنفث الدخان.

\* \* \*

الذي يقف على باب داره يرى الطريق، والدكاكين والمارة، رؤية وضوح وبيان، ولكنه لا يرى ما بعد المنعطف، ولا ما وراء الحي. فإن صعد المنارة رأى الحي كله، فأتسعت ساحة النظر، ولكن قلّت تفاصيل المنظور. فإن ركب الطيارة أبصر البلدة كلها، بنظرة شاملة لأطرافها مبينة لحدودها، لكنها مضيعة لتفاصيلها، ماحية لدقائقها.

فما صورة دمشق التي عرفتھا وأنا صغير؟

كنت إذا صعدت جبل قاسيون، وبدت لي دمشق بغوتيتها، وانجلت  
لعيبي لوحة عرضها أكثر من عشرين كيلاً، ألفها بنظرة واحدة من شرفة داربي  
أرى الدنيا كلها تجمعت مصغرة فيها: فالعمران في البلد بتوسطه الجامع الأموي  
وقبة النسر التي كانت منذ كانت من أعظم القباب التي أقامها العنل المفكر واليد  
الصناع، والحدائق والجنان من حولها، ويردى وأساؤها السنة تجري من تحتها،  
والمزة تنظر إليها، وقاسيون يطل عليها، وسهول المزة والكسوة تجاورها.

فيها كل ما في الدنيا من سهل وجبل، ويستاك وقفر، وساقية ونهر،  
ومسجد وقصر، إلا البحر، على أنك ترى حول البلد (أو كنت ترى) بحراً من  
الخضرة والنبت والشجر.

وأرى دمشق كأنها طائر حط ليستريح جسده وسط السور، وجناحه  
تمتدان إلى ميدان الحصى، وحي المهاجرين.

أو كأنها عروس أتعبتها حفلة الزفاف، فنامت: رأسها على ركبتى  
قاسيون، وقدماهما في قرية (القدم)، وقلبها حيا لقلب البلد، الذي يهفو إليه  
قلب كل مسلم، وهو المسجد، الجامع الأموي أقدم المساجد الفخمة في ديار  
الإسلام<sup>(١)</sup>، وإن كان التألق في تفخيم المساجد. رتزويقها وزخرفتها بما لا  
يستحسنه الإسلام.

على أني سأعود، ثم أعود، إلى الحديث عن دمشق، والحديث عن دمشق  
لا يمل، ولو أني كتبت عن كل شهر عشته فيها صفحتين، لكان من ذلك كتاب  
أكبر من القاموس المحيط.

أرجع إلى ذكرياتي

قرأتم في بعض ما كتبت قديماً قصة الساعات التي قضيتها في الكتاب. بل  
الذي قرأتموه هو بعض القصة، طرف منها.

في المحكمة يحلفون الشاهد بأن يقول الحق، كل الحق، ولا شيء غير

---

(١) حاشا الحرمين.

الحق، ذلك لأن بعض الحق أقرب إلى الباطل، والذي قرأتموه عن ساعاتي في ذلك الكتاب صحيح، ولكنه بعض الحق.

كانت تلك الساعات أمرًا مما قرأتم عنها، وكان جرحها في نفسي أعمق، وحسبكم أن تعلموا أنه مر عليها اليوم سبع وستون سنة ولم أنسها، ولكني لم أعد أحس ألمها، لأنني حين أتحدث عني وأنا صغير أكون كمن يتحدث عن إنسان آخر، هو أنا، وليس أنا.

لا أنفلسف، ولا آتي بالأحاجي والألغاز، بل أقرر حقيقة.

قلت لكم: إنه مر في حياتي عشرات من الناس، كلهم يحمل اسمي، وكلهم (أنا) بمعنى الكلمة عند زملائنا أساتذة علم النفس، وما منهم إلا واحد هو أنا بإحساسي وعاطفتي وفكري.

حسبتموني قد أثر في الكبير، فخرفت؟ أتريدون أن أفسر لكم ما قلت. قفوا على الجسر وراقبوا ماء النهر يجري تحت أرجلكم، هل ترون قطرة تقف، أليس كل ما ترونه قطرات بدفع بعضها بعضاً؟ واحدة تروح فلا ترجع أبداً، وواحدة تأتي على أثرها فلا تقف أبداً.

إنه أبداً في تبدل، في تجدد، لا يمكن مهما أطلت الوقوف على الجسر، ومهما عدت فوقفت من جديد، لا يمكن أن ترى قطرة واحدة مرتين وكذلك الإنسان، إنه في تبدل وتجدد.

ولكن هذا التبدل لا يفقد البهر اسمه، ولا خصائصه، ولا يجعل النيل دجلة، ولا دجلة بردي، ولا بردي نهر التاميس.

وكذلك الإنسان، تبقى شخصيته ثابتة، فلا يصير زيد عمراً، ولا صالح كراً

لذلك أشكر أخي زهير<sup>(١)</sup> أن أرجعني الفهقرى في طريق العمر، حتى لقيت ما

(١) أعني الأستاذ زهير الأيوبي الذي كان له الفضل الكبير في تدوين هذه الذكريات.

أضعت من نفسي، حين الزمني كتابة هذه الذكريات، وغرّه مني شيبني وشبابه، فأمسك بي بقبضة لم أستطع الإفلات منها، وبعث في أثري شرطياً عتيقاً هو إبراهيم سرسيق، رجل له لسان طري لين، ويد طويلة قاسية، فسحبني بلسانه، ولف عليّ يده.

ولو جاءني من أربعين سنة، وأنا في مثل سنهما، لما قدرا عليّ، ولم كانت هذه الكتابة يومئذ لكتبت غير هذا الذي أكتبه الآن

كنت أغرف من بحر وأنا اليوم أنحت في الصخر كان الفكر شاماً فشاخ، فمن قال لكم أن الفكر لا يشيخ فلا تصدقوه.

كان قلبي يجري على القرطاس كفرس السباق، لا أستطيع أن أجاريه، فأمسى كالحصان العجوز، أجره فلا يكاد يجر.

كانت المعاني حاضرة، والقلم سنعداً. ولكن الصحف مفقودة أو قليلة، وكنا نكتب بلا أجر فلا نجد من ينشر لنا، فكثرت المجالات وزادت الأجور، ولكن كلّ الدهن، وثقل القلم، وضعفت الذاكرة. كنا جوعاً فقدنا الطعام، فلما حضر الطعام فقدنا الشهية!

كنت كمن أقام مصنعاً، جلب له أحسن الآلات، وشغل فيه أقدر العمال. وأخرج منه أجود المنتجات، فلم يجد لها سائراً، ومل الانتظار، فباع البضاعة جزافاً، وسرّح العمال، وباع الآلات... فأقبل عليه الشارون، وتواترت الطلبات.

## من ذكرياتي عن دمشق

الحياة الحب والحب الحياة. هذا ما قاله (أحمد) شوقي، الشاعر الذي لم يأت بعد (أحمد) المتنبي من هو أشعر منه، ولا (أحمد) الأوسط أي المعري، ولكني لست في هذا معه، فقد يموت المحب ويعيش ناس بلا حب. وما أنا من أنداد شوقي، لكرر لو قال: ما العيش إلا الذكريات، لكان أصدق.

السبب ينص حياته من أرضه بجذوره، فإن نقلته منها تقطعت، فذبلت الأوراق وثرacht العروق، والإنسان في هذا كالنبات، وجذوره ذكرياته، فإن نقلته إلى بلد ما له فيها ذكرى، وما تربطه بها رابطة، أحس كأن قد انقطع سلك حياته، فإذا أقام في البلد الجديد اتصل المتقطع، كالنبات بضرب جذوراً جديدة في المكان الجديد، وتنمو وتنتد كلما امتد به المقام، فإذا أعدته إلى أرضه الأولى عاد إلى الذبول.

وهذه مشاعر عرفتها لما ذهبت إلى مصر للدراسة سنة ١٩٢٨، وإلى العراق للتدريس سنة ١٩٣٦، وإلى بيروت سنة ١٩٣٧.

ثم قدمت المملكة سنة ١٩٦٣ وأقيمت فيها إلى الآن، وإن لم أجد الاستقرار لأن دنيا طالب العلم مكبته، ومكتبي في الشام، مودعة في خمسة وثماني صندوقاً لم تفتح من إحدى عشرة سنة، ولست أدري أأكلتها الأرض أم هي سالمة لا تزال، وأنا هنا محروم منها، لا أستطيع الوصول إليها، ولم أجد المحسن الكريم الذي يوصلها إلي، بالأجرة لا بالمجان، فما أريد إحساناً من أحد لأن الله أغناني بإحسانه.

وفد أصبحت أزور الشام لماماً، حتى حيل بيني وبين زيارة بلدي التي كُتبت عنها ما لم يكتب مثله أحد من أهلها، وشاركت أهلها النضال للاستقلال.

وكان آخر عهدي بها من أربع سنين<sup>(١)</sup>، ذهبت إليها بعدما انقطعت عنها (أو قُطعت) خساً، فهبطت بي الطيارة في المطار الجديد، ولم أكن أعرفه من قبل، فنظرت إلى البلد من بعيد، فقلت مفالة بلقيس: (كأنه هو)!!

الجيل الذي يلوح لي جانبا على حافة الأفق هو قاسيون، وهذه المنازل المائلات صفوفاً كالأولاد المدللين، في حضن الأب الحاني، هي أحياء السفوح: الأكراد والصاحية والمهاجرين. وهذه العمدة البيض السامقة، التي سبب إصبع المشهد، يشير بكلمة الحق نحو السماء، هي مآذن المساجد، ومن نعم الله على أهل الشام، أنه لا ينشأ فيها حي جديد، إلا كان أول ما يقام فيه المسجد، يقيم الشعب بماله، مساجد ليست للمظهر ولا للزينة، ولكن لتمتليء بالمصلين والدارسين، وجلهم من الشباب.

هذي دمشق، فلم لا أحس فرحة الآيب إلى بلده؟ لماذا أراها متغيرة في عيني؟.

وتوجهت بي السيارة إلى البلد، ثمشي خمسة وعشرين كيلاً في بستان واحد، هو ما بقي من الغوطة الشرقية، تماسك أشجاره تماسك أيدي الأصدقاء ساعة اللقاء، وتتعانق فروعها تعانق العشاق بعد طول الفراق، حتى بلغنا دمشق..

ولكني لم أشعر بأنها دمشق، وحسبت الطيارة ضلت الطريق إليها، فهبطت غيرها. شوارع عراض، وعمارات عالية، وساحات وجسور (يسمبها إخواننا المصريون باسمها التركي: الكباري)، ولكن مالي ولها؟ هذه مدينة جديدة طالما رأيت مثلها حيثما مشيت في مناكب الأرض، ولقد مشيت إلى أقصى الشرق من أندونيسيا، وأبعد الشمال من هولندا.

(١) كتب هذا الكلام سنة ١٤٠١.



إنها متشابهة كالنسخة المطبوعة من الكتاب، وأنا أريد نسخي المخطوطة،  
نسخي المفردة على ما فيها من عيوب، هل يتخلى أب عن ابنه لعيوبه، ويأخذ  
ابن غيره المنزه عن العيوب؟.

أريد دمشق مربع أسرتي، ومرتع صباي، ومغنى فتوي. فأين هي دمشق  
التي تشممت رباها، ونشقت صباها، ونشأت في حاها؟.

أهدي هي دمشق؟ فما لها تغيرت معالمها، وتبدلت أزيأؤها، وإن ازداد  
عمرانها، وعلا بنيانها؟

ما للوجوه غدت غير الوجوه؟ كنت إن قابلت في الطريق عشرة، عرفت  
منهم واحداً أو اثنين، وعرفني أربعة أو خمسة. . . فما لي اليوم أبصر مئة فلا أكاد  
أعرف من المئة واحداً، ولا يعرفني ثلاثة؟.

أبدلت الدنيا، أم صرت غريباً في بلدي؟.

أما الخيام فإنها كخيامهم. وأرى نساء الحي غير نساها.

وظفت في هذه الشوارع المتشابهة، أفتش عن دمشق التي عرفتُها وأحببتها  
ومن يعرف دمشق (تلك) ويملك نفسه ألا يحبها؟.

وظفت أسأل المحسّر من المارين: ألا من يدلي على دار الحبيب،  
ولكن ما من محبب. حتى هبت سمة من جهتها، شممت فيها طيبها، فهداني  
أريجها إلى مكانها. .

فإذا أنا في ساحة (المرجة)، تلك التي كانت طرف البلد فصارت وسط  
القديم مه. ذلك أن المدن كالناس تعيش وتموت، وتنمو وتنب، ثم تهرم  
وتشيخ. . . بما ولدت طفلاً فكبر الطفل، فزاحها على مكانها وأزاحها عنه. . .

ودخلت (سوق الحميدية) الذي سارت يذكره (كما يقال) الركبان، ولكن  
مقنت فيه المشاة، وقتت فلم تتحرك إلا بمثل حركة (التصوير البطيء) في  
الأفلام، ورحلت أزاحم ونسيت أن الأيام لم تبق لي كنفأ تشق الزحام، وتطبق  
الصدام. غامرت ودخلت وصبرت حتى إذا صرت عند السوق الذي يصل إلى خندق

القلعة (قلعة دمشق) التي لا تزال باقية سليمة، انحرفت يمينا فإذا أنا أمام مدرسة التجارة، وما مدرسة التجارة؟ إن هذا المكان أقدم وأكرم وأعظم، إن فيه مائة من أعظم المآثر في تاريخنا العلمي، بل في تاريخ العلم الإنساني، ها هنا كان أكبر مستشفى في الدنيا، وأرقاه وأكمله، لم ينشأ مثله إلى عصره، هو البيمارستان النوري، أي المستشفى الذي أقامه السلطان نور الدين زنكي.

لا، لن أحدثكم هنا عن عطشته، فاذهبوا فابحثوا عن تاريخه

ثم انعطفت يساراً فدخلت رفاق الفخر الرازي، وفيه قبر له، ولهذا القبر قصة طريفة سأقصها عليكم، فدررت بين القبر وبين منزل الأديب الشاعر خليل مردم بك، وكم كانت لما فيه من مجالس، مع شيخنا عالم الشام الشيخ محمد بهجة البيطار. وصديقنا (بل أستاذنا) العالم الأديب الشاعر عز الدين التنوخي، وأستاذنا صاحب الدار، رحم الله الجميع، وأخوتي رفيقي العمر، أنور العطار الشاعر رحمه الله، والأستاذ سعيد الأفغاني سلمه الله.

وجزت بها حتى وصلت إلى زاوية الرقاق، ومن هذه الزاوية يبدأ حديث اليوم.

\* \* \*

في هذه الزاوية بفايا باب، تدخل منه إلى دار صغيرة، تنضي إلى صحن واسع جداً، في صدره إيوان له قوس عالية جداً، وإلى جانبك واحدة قاعة بعيدة الجنبات، رفيعة السقف، ولكن الدار مخربة الجدران، والقوس مهدمة الأركان، والأرض قد تحطم بلاطها وتكسرت حجارها وفي وسطها بركة ما فيها ماء وليس عليها رواء، وحول الصحن غرف مهترئة الأبواب، مخلفة النوافذ. (والقاعة) الكبيرة التي تمتد على نصف طول الصحن مملوءة هي والغرف بالبضائع، والحمالون يدخلون ويخرجون يحملون صناديق، وينزلون صناديق، وهم يصيحون ويصرخون. فوقفت أنظر وفي العين غبرة، وفي النفس غبرة، وتصورت أني أخرج من مكاني الذي أقف فيه ثم أنأى عنه، وانحصر ذهني في الماضي، فتوهمت أنها تحققت خرافة (نفق الزمان) التي عرضها علينا الرائي هنا في يوم من الأيام: يدخل منه المرء فيسافر في الماضي يقف حيث شاء، فدخلت

فإذا أنا أعود أدراجي أنخطى رقاب السنين، أتقدم ولكن إلى الوراء، أوغل في مسالك النفق، والأيام تكرر راجعة بي، حتى وقفت على أوائل سنة ١٩١٤.

ورأيت الدار تعود مثل معادي فإذا هي كمثيلاً من دور دمشق العظام في تلك الأيام.

الأرض ن فرش بالحجر المنقوش والمرمر الصافي، والجدران نكتسي الرخام ذا الألوان، والنقوش الروائع الحسان، وتتجدد البركة ويعود إليها رواؤها، ويجري فيها ماؤها، أما (القاعة) فيكون فيها مثل ما في (قاعات) الدور الكبار في الشام (فسقية) وهي طبق من الرخام المجزع والحجر المزني (نسبة إلى المزة في دمشق) منحوت بيد صناع، مقرنص الجوانب، ينصب فيه الماء من نوافير صغار، ترسم خطوطها متعاطفاً نعصها على بعض، يكون منها مثل القبة الصغيرة، إذا نكسرت عليها أشعة النور، بدت كأن فيها ألفي حجر من الألماس، ثم ينصب الماء من لحواب إلى طبق مثله أكبر منه، وكذلك ينتقل الماء من طبق إلى طبق، بأبرع صناعة. وأحل فر.

وفي هذه (القاعة) من هذا المنزل شيء لم أر مثله في غيره من دور دمشق الكبار هو موقد (شمسية) من الرخام المشابك لها مدخنة من مثله، ومن حولها محران في الحدار، يجري فيها الماء سلالاً صغيراً في الصيف ليبرد الجو في حين يدفئه الموقد في الشتاء

وفي صحن الدار أشجار لا بد من مثلها في دور دمشق: الليمون والبارج، ودوالي العنب تمتد جدرعها حتى تبلغ (المشرفة) وهي سطح الدور الثاني، وأكثر المنازل من طابقتين «سورين»، أرضي للصيف وعلوي للشتاء، ويقام لدوالي العنب (عريضة) وهي سطح من جدرع الخشب تمتد عروقها عليها، تنمو العنب (البلادي) وتثمره بيضاء مستطيلة قاسية، أو (الخلواني) وهو مستدير أشقر قاس، وكان في دار لعمري في الصاحبة دوالي تغطي سطوح الدار، تنتج في السنة (حقيقة لا تغديراً) من سبعمئة إلى ألف كيل<sup>(١)</sup>. صدقوني فلست أبالغ،

(١) كيلوبادام: بكلمة خلوي يونانية معاماً (ألف)

لقد أقاموا مرة في (داريا) من قرى الغوطة الغربية، معرضا للعنب الشامي عرض فيه، مئة وأربعة أنواع من العنب.

وجدران الدار مغطاة بأجمل أنواع النباتات المعروشات: الياسمين البلدي والمليسة والياسمين العراقي وأنواع أخرى، لا يتنعمكم سرد أسمائها إن لم تذهبوا إلى الشام، وتروها في دورها، وتبوا في كل دار عشبات الأصص الصغار فيها من كل الأوراد والأرهار.

ولكن يا للأسف وبيا للحسرة، لقد ذهب تلك الدور وما فيها. تلك (بيوتنا هدمناها بأيدينا)<sup>(١)</sup> كانت حبات تجري من تحتها الأنهار، كانت مصيفا وكانت مشتي. كان من فيها حرا، لا يرى حرم جار، ولا يرى جار حرمه، فاستبدلنا بها صناديق من الاسمنت، لا تدفع حر الصيف، ولا برد الشتاء، من كان فيها رآه جاره وهو في فراشه ورأى حر الجار، إن ضحك أو بكى أو عطس سمعه من (النور) كل سكان العمارة!

كانت بيوتنا من خارجها كأنها مستودعات بضاعة أو مخازن تب، فإذا دخلت فتح لك باب إلى الجنة، بهاؤها لأهلها، لا نافذة تفتح على طريق، بل لقد أدركت عهداً في الشام: الدار التي يفتح بابها على الجادة يقل ثمنها، لأن الدار المرغوب فيها التي يكون بابها في (دخلة) أو (حارة).

وكانت نساؤنا كمنازلنا، يسترها عن العيون الحجاب السايغ، فلا يبدو جمالها، إلا لمن يجلس له النظر إليها، فهتكت الأستار، عن المرأة وعن الدار. هذه هي الدور الشامية التي انتقل طرازها، لا إلى جيرانها، بل إلى الجانب الآخر من البحر الأبيض المتوسط، الذي كان يوماً بحيرة عربية ولا تزال شواطئه أكثرها عربي، وغالبها مسلم.

إنها قفزت البحر بطوله لا بعرضه، إلى الأندلس، ثم إلى المغرب.



---

(١) هذا عنوان فصل، أو قصة حقيقية، في كتابي (من حديث النفس).

ما الذي أريد أن أقوله بعد هذه المقدمة التي نويت أن أجعلها سطوراً  
فصارت صفحات، وغدت مقالة كاملة؟

أريد أن أقول إن المدرسة التي انتقلت إليها، بعد تلك الساعات المعبودة  
في ذلك الكتاب المرعب كانت في هذه الدار.

هذه هي إحدى دور أسرة مردم بك، ما زهد فيها أهلها حتى جعلوها  
خراباً، بل إن صاحبها تنبه إلى سقف القاعة، وكان كأمثاله من السقوف  
القديمة، فيه أبرع النقوش وأحلاها، بأثبت الألوان وأبقاها، أدرك قيمته ففكّه  
قبل أن يتخلى عن الدار، وباعه لمديرية الآثار، وهو محفوظ الآن في متحف  
الفنون الشعبية في دمشق.

هذا المتحف أقيم في أكمل أنموذج للدور الشامية، وهو (دار العظم) فإن زرتهم  
دمشق سترو فيه وترويه

ومن أصحاب هذه الدور من نقل القاعة بحجارة جدرانها، وسقفها  
المنقوش إلى عمارة الحديد، فجعلها في غرفة فيها، صنع ذلك (لطفى الحفار)  
رحمه الله من قدماء السياسيين ومن رؤساء الوزارات.

## من الكتاب إلى المدرسة التجارية

تركتم عند باب الدار قبل أن ندخل إليها، فهل أتبع معكم سنة نسائنا عند باب الدار قبل أن يخرجن منها؟

من سنهر في الشام، أنها مهما طالت الزيارة، ومهما امتد الحديث فلا بد للزائرات من وقفة وراء الباب للدردجة<sup>(١)</sup>، فهل تقفون معي أمام الباب لثلها؟

أهف لأشكر ولأشكو، (فاعجب لشاك منه شاكر) كما قال البهاء زهير.

اشكر الأستاذين الباشري<sup>(٢)</sup>، والأستاذ رئيس التحرير، والأستاذ إبراهيم سرسيق على ما كتب في حريده المدينة، فقد ألبسوني من ثنائهم ثوباً أطول من حسدي وأعرض، فجعلوني أعتبر بذبوله إن مشيت لذا اضطرت إلى الوقوف.

بهذا الذي أشكوه:

يا إحتوي إن مثلي ومثلكم. مثل رجل غنى لنفسه في الحمام (كما غنى حجاج) فأعجبه صوته، فعنى لمر من اصدقائه الأذنين، فأطربهم عناؤه، فلما طربوا طلبوا إليه أن يعود بفني لهم، وهو يسبح ويريد، فقام واحد منهم على المنبر في جمع الناس فقال لهم: أعرفكم بممن ما سمع السامعون أندى منه صوتاً، ولا

(١) هم باشرا حريدة الشرف الأوسط منام وتعد حافظ ولدا الاسناد علي حافظ، وقد نشرت هذه الدتريات أولاً في مجلتها (المسلمون) ثم حريدهما (الشرق الأوسط).

(٢) الدردجة في اللغة أد يتوافق الثان في المودة، ولعل (الدردشة) منها مع تحريف في اللفظ. ويصوب في المعنى

أطيب حنجرة، ولا أبصر بالأحان، ولا أعرف بالأنغام، فهل تعرفون ماذا كان بعد؟.

الذي كان أنه لم يعد يحسن شيئاً. إن النتيجة تعلن بعد الامتحان، فما لكم تعلنونها قبله؟ ألا تخافون أن أسقط فيه؟ ألا تعلمون أنكم بما رفعتون فوق منزلي (في صدر العدد الرابع)<sup>(١)</sup> ستجعلون سقطتي أشد، لأن الذي يقع من فوق النضد أو الكرسي، ليس كمن يقع من فوق المنارة؟.

ولماذا وصعتم صورتي على الغلاف؟ إننا نسمع أن (فتاة الغلاف) لا تكون إلا من ذوات الصبا والجمال، فماذا يصنع القراء بصورة شيخ مثلي؟ ثم إنكم احترمت صورة لي كبرتني وجعلتني أبدو أكبر من سني، إن الذي يراها يظنها صورة (عجوز) في السادسة والسبعين مع أنني في الخامسة والسبعين، فقط لا غيراً!.

قال الأستاذ زهير، إنه أفنعي بأن أكتب بعد جهود استمرت أكثر من ثمانية شهور، فظن القراء أنها كانت مفاوضات مالية، ومساومات على نشر المذكرات. ولم يعلموا أننا لم نذكر فيها قط المال ولا حق النشر، وإنما كانت حرصاً منه (أحسن الله إليه) على إخراجي من المحبس الذي حبست فيه نفسي، وظناً منه أنه سيأتي (بما عجزت عنه الأوائل)، فيعيد الشباب إلى ذهن قد دب إليه المشيب، يريد أن أصف عرس الربيع وأنا في مأثم الشتاء.

إن إخواني في المملكة العربية السعودية لا يعرفون ما الربيع، ولو كانوا في الشام، ورأوا الغوطة حين تشم روائح آذار، فتنبثق فيه الزهور من الحطب حتى تصير الشجرة بيضاء كالأماس<sup>(٢)</sup>، ثم تتناثر الزهور وينبت مكانها الورق، فتغدو خضراء كالزبرجد، ثم تحبل الشجرة فتلد الثمار حتى تميل بها الأغصان.

ولكن مالي أترك سماء الواقع وأنزل إلى حضيبض التشابيه؟ مالي وللأماس والزبرجد؟ تلك حجارة ميتة، وأنا أصف الزهر الحي.

(١) من مجلة (المسلمون).

(٢) أصلها الماس وهرمتها منها لا كما قال صاحب القاموس المحيط.

إن أشجار الغوطة في الربيع كالعرائس في ليالي الزفاف، أتريدون أن أشبه العروس بتمثال الشمع في المتحف؟ أو في مخازن الثياب عند عارضي الأزياء، كما كان يصنع ابن المعتز.

لست في سوق الصاغة، ولكني في معرض الأذواق.



ويتهى الصيف، ويأتي الخريف فيصفر الورق، ويساقط، وترجع الشجرة حطباً، وتصبح أيام الربيع ذكرى، ولكن الشجرة يتجدد ربيعها... إن شتاءها بلد ربيعاً جديداً، وربيع حياتي الذي ولّى لا يتجدد.

ودعت أحلامي بطرف باكي ولمت من طرق الملاح شباكي<sup>(١)</sup>

وإن لم أنصب في عمري شبكة لفتاة (صدقوني) ولا أوقعت حسناء يوماً في شرك.

كأن لي بالأمس قلب ففضى وأراح الناس منه واستراح<sup>(٢)</sup>

لقد قضى فهل رأيت ميتاً عاد بعدما مات؟ هل أبصرت في سنة واحدة تعاقب ربيعين؟ هل سمعت بإنسان عاش شبابه مرتين؟

كأن إن برقت لي نافذة من جمال في وجوه البشر، أو صفحات الكون، أحسست بالعاطفة تشتعل في صاوري، والمشاعر تلعب بشغاف قلبي، فأفرغ إلى القلم لاسحل ما أحسست به، فبإسابق قلبي فكري.

وإن قرأت أحبار الوفاء أو العدم، أو سمعت أنباء الخير أو الشر، شعرت بالأفكار، تفرع جوانب راسي لنهر، فأسارع إلى القلم لأقيدها.

وإن صاوح سمعي أبيات من شاعر بنظم حبات قلبه عقود بيان لا تشعر هذا الأمان. أو نغمات من مثنى يصوغ عواطفه طاقات من الحان، هزنتي فهرزت قلبي.

---

(١) من قطعه شديدي

(٢) الحبران



أسمع المغني في هدأت الليل يقول: (آه) فاحس أنه يوظف نائم الأسحار في كل قلب عاشق هيمان، أو مفجوع أسيان، حتى يقول معه (آه) يشغلها من أعماق فؤاده، وإن نادى: (يا ليل يا ليل) أصغى إليه الليل، وتوقف يستمع فما يسير، وتأخر الفجر واستمهل حتى يفرغ من نداء الليل. كان كل ما أرى، وكل ما أسمع يجعلني أكتب، أقوم من منامي وأكتب، وأفنف على جانب الرصيف لأكتب، ولعلما كتبت المقالات والقصص، على حواشي الجرائد، وعلى كبس المقال، لقد قرأت مرة ما كتبه الأستاذ محمد نمر الخطيب عن (بنات العرب في إسرائيل) وأنا على قوس المحاكمة، بعدما وُغيت من المحاكمات فكتبتها على كل قطعة ورق تحت يدي، لم أنتظر حتى أنزل عن الفوس إلى غرفتي، ولم أنزل حتى كتبت (القصة) كلها في جلسة واحدة.

لذلك بلغ المطبوع مما كتبت إلى الآن أكثر من أحد عشر ألف صفحة، وما ضاع منه كثير فلماذا لم تلقي به استاد زعيم<sup>(١)</sup> في تلك الأيام؟ يا أسفي على تلك الأيام! لماذا لم تأتني وقلبي شاب. وتمني حاد، وذاكري قوية، وهمتي لا يقف أمامها شيء؟ لماذا؟

الآن يا أستاذ؟ بعدما جفَّ القلم، وطويت الصحف، ونسيت الوقائع، وخذت نار الحماسة، وسكنت إلى عرلي حث تدعوني أن أملأ بالمداد قلماً ما عاد يصلح للكتابة، وأنشر صحفاً بليت وأصفرت من طول الإهمال، ولئن قدرت على هذا ففعلته، فمن لي بأن تتقد بين حوانحي النار التي خدت، وتبعث في نفسي الحماسة التي ماتت؟

أبعدما ولَّى الربيع، وصوّح النبت جئت تطلب مني الزهر؟ من أين أتيت بالبلبن وشاتي قد جف ضرعها؟ أين مني الزهر وروضتي قد بيس زرعها؟

على أي لا أياس، فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها، فاقبل مني ما عندي، فهذا هو اليوم غاية جهدي.

(١) أعني الأستاذ زهير الأيوبي.

وتعليق آخر...

قال الأخوان الأستاذان الناشران: إني لو أعلنت رقم هاتفي لما تركني السائلون ساعة في الأربع والعشرين ساعة.

با سيديّ الكريمين، إني لم أعلن رقم الهاتف، ولكن قد كان الذي صورته. وطالما رجوت أن ينحصر سؤال السائلين بين العصر والمغرب، فما أسنحيب رجائي.

إني لا أكنتم شيئاً من علمي القليل، ولا أضن بمشورة على من يثق بي ويستشيرني، ولكن طاقة المرء محدودة، و(الصبر له حدود) كما تقول الأغنية.

وبعد: فلقد طال الوقوف على الباب، ففضلوا بالدخول لا إلى الأطلال التي وصفتها في (العدد) الذي مضى، بل إلى الدار أيام عزها. أترون جلالها وتحسّون جمالها؟

ها كانت المدرسة الأولى التي دخلتها في حياتي، لا تعجلوا عليّ فتخطوني إذ انتقلت من ذلك الكتاب المعتم إلى هذه المدرسة المشرقة، ومن ضيقه إلى سعتها، فقد يعيش المرء سعيداً في الكوخ وقد يشقى في القصر. أما أنا فقد استهلكت دراستي شقياً في الكتاب، وشقياً في المدرسة، هذه المدرسة الكبيرة، التي كانت تسمى (اتحاد وترقي مكنتي إعدادي سي) والتي اختصر الناس اسمها وعربوه فقالوا (المدرسة التجارية) لأن الذي فتحها جماعة من التجار<sup>(١)</sup>.

وكانت مدرسة جامعة، فيها قسم للحضانة، وقسم للابتدائي، وقسم للإعدادي، والثانوي، ومجموع سنوات الدراسة مهيأ اثنتا عشرة سنة، ومنها إلى الطب أو السور لإسطنبول. وهي إحدى مدارس أهلية ثلاث: الكاملة التي أنشأها الشيخ كامل القصاب، العالم الوطني السياسي، من مؤسسي (المعارف) في المملكة. والكلية العلمية الوطنية، وهذه (المدرسة التجارية).

---

(١) يسأل الرئيس خالد بك العظيم (في مذكراته) - وقد كان تلميذاً فيها عند أبي - أن لماذا سميت (المدرسة التجارية) وهذا هو الجواب

ومدارس حكومية أنشئت في أواخر القرن الثالث عشر الهجري مع  
مدارس البنات التي فتحت بسعي المصلح الموجه (المعلم) الشيخ طاهر  
الجزائري. ولي عمة كانت رحمها الله من أوائل من تعلم في هذه المدارس،  
واخذت منها الشهادة (الرشدية) وهي بين الابتدائية والمتوسطة سنة ١٣٠٠هـ  
وكانت الشهادة عندي، فضاعت من عهد قريب

ومدارس نصرانية أقيمت في الأصل للنصارى ولكن كان يدخلها بعض  
المسلمين بحجة تعلم اللغة الأجنبية (الحجة الواهية الباقية للأن). ومن أعجب  
العجب أن شيخنا عالم الشام السلفي الجليل مشيء دار التوحيد في الطائف  
وعضو المجمع العلمي في دمشق، وهو أقدم المجامع العربية - أنشئ سنة  
١٩٢٠ - شيخنا الشيخ محمد بهجة البيطار درس مدة في المدرسة العازرية  
النصرانية، وفيها تعلم اللسان الفرنسي، ولا أقول هذا ليكون حجة لمن  
يدخل ولده إليها، فقد كان دخول شيخنا إليها (قننة وفي الله شرها) كما قال  
عمر رضي الله عنه.

\* \* \*

كان المدير العام لهذه المدرسة (المدرسة التجارية)، هو أبي الشيخ مصطفى  
ابن أحمد بن علي بن مصطفى الطنطاوي وهذا كل ما أعرف من نسبي، أما  
الباقى فاسألوا عنه أهل طنطا، فإنه هناك، ولن يعرفه أحد لأن لقب  
الطنطاوي أخذناه في الشام، فماذا كان لقب أسرتنا هناك؟

كان المدير هو أبي، فهل تحسبون أني كنت مدلاً مكرماً لأنني ابن المدير  
لا والله، ولقد رأيت أول عهدي بها ما كره إلي العلم وأهله، ولولا أن  
تداركني الله بغير معلمي الأول لما قرأتكم في صفحة كتبها، ولا سمعتم مني  
حديثاً أو خطاباً ألقيته، بل لما قرأت أنا كتاباً.

هذه القاعة التي وصفتها لكم بأنها من روائع فن العمارة، والتي يأتي  
السياح للتفرج برؤيتها، لبثت حيناً من دهري أرتجف من النظر إليها، أو  
التفكر فيها.

وكلوا بنا معلماً شيخاً كبيراً لا أسميه<sup>(١)</sup>. فقد ذهب إلى رحمة الله. فكان يحبسنا فيها ونحن أطفال، لا يدعنا نخرج منها حتى نكتب (ألف باء) كلها في ألواحنا الحجرية أربعاً وعشرين مرة، نكتبها ليراها وليمحوها، ثم نكتبها ليراها ويمحوها... إلّا أن يضطر أحدنا (أو يزعم أنه مضطر) للخروج إلى المرحاض فيسمح له بدقائق، إن زاد عليها، ازدادت عليه ضربات الخيزران، كنا نكذب... نعم! أفليسوا هم الذين دفعونا إلى الكذب؟.

كنت أنظر من شبك القاعة إلى التلاميذ، يلعبون في الساحة الداخلية والطلاب الكبار يمشون في الصحن الكبير، كما ينظر السجين إلى الطلقاء من طاقة السجن.

كانت هذه بدايتي، أنا (ابن المدير العام) فهل يحمد الله تلاميذ المدارس اليوم على ما يتمتعون به من نعم؟.

وغاب الشيخ يوماً وجاؤنا بطالب كبير من طلاب الفصول العالية فوجدنا (السره الأولى) مدرساً من بني آدم، يكلّمنا ونكلّمه، ويضحك في وجوها، وما كنت أعلم أن المعلم يستطيع أن يضحك.

هذا الطالب الشاب الذي عرفته ولم يعرفني، لأن التلاميذ يعرفون معلمهم ولا يعرفهم كلهم، مرت عليّ وعليه الأيام، وصار صاحب مكتبة، ولم ينقطع عن العلم، فوضع معجماً لألفاظ القرآن اسمه (المُرشد) ثم وضع مع صديق له من بواذر المكفوفين من الرجال، حافظ لكتاب الله أديب، ينظم الشعر ارتعالا، عارف بالموسيقى ملحن، يقرأ الكتابة الموسيقية (بالحروف البارزة) ويعزفها. وأمامه في مجلسه خزر صغير من كل الألوان في علب صغار يؤلف منه بالإبرة والحيط صوراً على القماش لو حاولها مصر بعينه وهو متفرغ لها لما استطاعها، بصنعها وهو يتكلم معك أو يناقشك أو يشدك الشعر وهو أعمى.

وهو من بواذر العميان واسمه الشيخ عارف القلطقجي وهو قريب في هذه المرايا من الرجل العجيب المشهور الشيخ عثمان الموصلي رحمه الله.

(١) قد سماه خالد بك العظيم في مذكراته

وهذا كله استطراد، وقد أنذرتكم به من أول الحديث وساعود إلى الكلام الأصلي.

كنت أتكلم عن هذا الطالب الذي كان أول من رد إليّ ثقتي بالله، ثم بنفسي، وحبّي للدراسة، وقلت: إنه وضع مع الشيخ عارف (هذا) معجناً آخر لموضوعات القرآن، وكلفني أن أكتب مقدمة له، فذكرت هذه القصة التي لم يكن يعرفها في مقدمة الكتاب<sup>(١)</sup>.

ثم انتقلت إلى معلم آخر، فيه أنس وفيه إنسانية، مراد من تعري من العلم والدراسة، اسمه الشيخ كامل البعالي عمّار حتى ناهز المئة أو زاد عليها، رحمه الله.



لم أكن أمتاز من التلاميذ إلّا بأنّي كنت أكل أحياناً في غرفة في مدخل المدرسة، هي غرفة الفراشين، وكنت يوماً آكل رغباً وسط لحم مشوي أمر لي به أبي، وكان في غرفة الإدارة ولد رجلاه في الفلق<sup>(٢)</sup>، الخبز لا ينزل عليهما، فدعا بي وأخذت من وسط طعامي، وربطت بالفلق، وكانت عانده أفسم بالله أني لم أعرف سببها إلى الآن، وقد مضى على ذلك أكثر من سبعين سنة!!

هكذا كان أسلوب التعليم!!.

أفترونني حين أعيبه أعيب أبي؟ لا، ولكن أصف ما كان ليعرف التلاميذ ما هم فيه من النعيم الآن.

---

(١) الجامع لمواضيع القرآن الكريم للأستاذ محمد فارس بركات رحمه الله، طبع المكتبة الهاشمية في دمشق، الطبعة الأولى سنة ١٩٥٩، قدم له علي الطنطاوي المستشار في محكمة النقض.

(٢) وكلما تكلم عن ذلك المسنون - يقولون (الفلكة) أو (الفلكة): مع أن الاسم عربي فصيح وهو (الفلق).

## من ذكريات الطفولة ذكرياتي عن الحرب العالمية الأولى

بقيت في هذه المدرسة إلى سنة ١٩١٨ فماذا بقي لديّ من ذكرياتي الشخصية فيها؟ لقد قلبت جيوبى، ونفضت ثوبى، وفتشت كل زاوية من ذاكرتى، وبحثت في كل ركن، فلم أجد إلّا القليل الذي سأجلوه لكم.

أما الذكريات العامة فقد كان منها الكثير، وإن لم أدرك منها يوم حدوثها إلّا ما يدركه ذلك الولد الصغير.

وكانت أباماً عشتها، ورأيت أحداثها، ولكنى لم أستوعبها، وأحسّ الآن وأما أخذت عنها كأب أسرد قصة حلم من الأحلام، أو رؤيا منام، صحا من رآها فلم يجد في يده شيئاً منها.

أشعر كأنى أخص صفحات من تاريخ قديم، قديم جداً، إى والله، لقد تبدلت حياتنا كلها من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٨١.

• بيّز شيء على ما كان عليه. وأنا إنما أعني هنا أوضاع الدنيا، أما الدين فلم يتبدل لأن الذى أنزله هو حافظه.

من هذه الأوضاع ما صار إلى أحسن مما كان عليه، ومنها ما ساء وفسد.

لقد استعما بثمرات الحضارة، ورأينا من جديدها ما كنا نظنه من المستحيلات، ولقد ازددنا علماً بالأرض وقوانين الله فيها، وضائق مسافة الخلف بيننا وبين من كنا نراهم وحدهم المتمدنين من أهل أوروبا وأميركا، وصارت لنا جامعات كجامعاتهم، وقام فينا ومنا علماء مثل علمائهم، ومن

ينطق بالسهم<sup>(١)</sup> ويعرف آدابها مثلهم بل ربما فاقهم.

كل هذا وأكثر منه قد كان، ولكن تعالوا فكروا معي ما هو ثمنها الذي دفعناه فيها؟ لقد ربحتنا هذا كله فماذا خسرنا فيه من عقيدتنا ومن أخلاقنا ومن كريم سجايانا؟.

أخشى أن يأتي يوم نقول فيه، ونحن نعص بنان الندم، حين لا ينفع الندم:

خذوا هذا كله، لا نريده، وردوا علينا ديننا وخلاتقنا.

كنا نعيش على شط بحر الحياة، نأثر عن لجه، ما غصنا على لآله، ولا تعرضنا لعض كلابه، ولا لخطر الفرق فيه.

كنا (أعني الطبقة التي أنا منها من العلماء المستورين، لا أعني الأغنياء ولا الموسرين) كنا نحيا حياة ضيقة محدودة، ولكنها سعيدة محدودة<sup>(٢)</sup>. كانت تسليتنا قليلة ولكنها نبيلة، ليس عندنا إذاعات، ولم تكن قد اخترعت، ولا كان (الرائي) ولا السينمات، إلّا سينما واحدة أخذونا إليها، فأرونا (فلماً) صامتاً (إذ لم تكن السينما قد نطقت) عن معركة (جناق قلعة)، وكانت هذه السينما في موضع المجلس النبائي، احترقت وبقيت أنقاضها سنين طويلة، حتى أقيم المجلس مكانها بينائه الجميل، وما فيه من الخشب المحفور<sup>(٣)</sup> الذي أنقن صناعته أبو سليمان الخياط<sup>(٤)</sup>، وصنع بعده خشب (دار عين الفيحة)، ثم دار (بيت الدين) في لبنان.

(١) اللسان بمعنى اللغة جمعه ألس، أما العضو فجمعه السنة.

(٢) أي محظوظة.

(٣) من جنس الذي كان في مكة وجدة، في واجهات العمارات، ورواشن الشبايك، ولكنه أجمل وأكمل، وقد دعوت في حلقة الجمعة ٢٥ المحرم ١٤٠٢ هـ من (نور وهداية) إلى حفظ ما في مكة وصيانته. ولكن كان العمال يكسرونه ويلقونه مع الأنقاض في الساعة التي كنت أنكلم فيها.

.. فإذا نتاج تلك الأيدي الماهرة، وبنايا ذلك الفن البديع قد صار حطاماً تظّوه الأقدام، مع أنقاض الدور بل القصور التي هدمت في أجساد لتوسعة الشارع!!.

(٤) وهو الأخ الأكبر لشيخ أطباء الشام الدكتور حمدي الخياط أول متخصص في البكتريا والجراثيم،

ما كانت عندنا سيارات ولا شوارع يمكن أن تمشي فيها السيارات إنما كانت عندنا العربات الجميلة، تجرها الخيول الأصيلة.

وأنا أذكر أن أول سيارة وصلت إلينا، وصلت سنة ١٩١٦ وخرج الناس ينظرون إليها، فلما رأوها تمشي وحدها لا يسحبها حصان، قال قائل من العوام: إن الجن تسيروها، فتدافع ضعاف القلوب هارين، وهربنا نحن الصغار معهم، وضاعت حقبة كتي، ونلت على ذلك جزائي.

أما الطائرة فقد جاءتنا قبل سنة ١٩١٥، سمعت بذلك ولم أره لأني كنت صغيراً وكانت قصة عجباً، تحدث الناس بها طويلاً. مع أن الطيران إنما ابتدأ سنة ١٩٠٣، يقودها طياران تركيان مسلمان، فتحي وآخر نسيت اسمه<sup>(١)</sup> واستقلت في المرح الأخضر، وهو الملعب البلدي اليوم، وفيه معرض دمشق الدائم، وفيه وقف إسلامي، استقبلت استقبالاً عظيماً، وكان يوماً (كما قالوا) مشهوداً، وطارت سلام وودع الطياران باحترام، ولكنها سقطت عند طبرية، ودفن الطياران في صحن مدفن بطل الإسلام وفتاح القدس، صلاح الدين الأيوبي، وراء حدار الشمالي للحامع الأموي.

وأول شارع فتح في دمشق هو شارع جمال باشا من رأس سوق الحميدية إلى محطة الحجاز، التي بناها خط القطار، وينتهي عند محطة باب العنبرية في مدنة الرسول ﷺ، واحط وقف إسلامي ثابت بصكوك قضائية، وقرارات دوية، وغير من آثار السلطان المنشئ عليه، الذي شوه اليهود صورته، السلطان عبد الحميد، (انتهى مدته سنة ١٩٠٨ سنة مولدي، وخربناه نحن، نحن العرب، بأبدينا وأيدي لوربر ورجلته سنة ١٩١٨).

بعد هذا أول شارع عرفته، وكان عريضاً جداً، وسط ممر حوله الحدائق وأعراس المدح، وفتح معه شارع من محطة الحجاز إلى نهر بردى، ومن أقدم

---

= كان أستاذ في كلية الطب في دمشق من سنة ١٩٢٠، وهو أحد مؤلفي معجم المصطلحات الطبية، تحس علوم العرب كما تحس الفرنسية والإنكليزية والألمانية واليونانية واللاتينية، توفي سنة الله سنة ١٤٠٠ هـ، وبإسه الدكتور هيثم من أوسع شباب العصر.

(١) ددري والذي الأستاذ النافعة روبر الناوش صاحب المكتب الإسلامي أن اسمه صادق



عماراته (العباسية) نسبة إلى رجل بيروتي يقال له أبو عباس، وكانت طابقت  
من الخشب واللبن، فيها مقهى<sup>(١)</sup> وملهى.

ومن طريف أخبار ذوي الغفلة من الوعاظ (أذكره ولو لم يكن هذا  
مكانه) أن أحد مشايخنا، جاءه من يقول له إن منيرة المهديّة تغي وتقص في  
(العباسية)، فأعلن غضبه في درسه في (الأموي)، وقال كيف ترقص هذه المرأة  
أمام الرجال وهي كاشفة جسدها، مبدية مفاتيها؟ أين الدين وأين النخوة؟

قالوا: نعوذ بالله، وكيف يكون هذا، وأين يا سيدنا، ومضى

قال: في العباسية في الليل بعد صلاة العشاء.

وكان نصف المقاعد خالياً، فامتلأت تلك الليلة المقاعد كلها! فليتبّه  
الواعظون، فكثيراً ما تكون المبالغة في وصف المتكرّ دعاية له

\* \* \*

وجمال باشا، كان قائد الجيش الرابع العثماني. وأحد أركان جمعية  
الاتحاد والترقي وهم: قائد الجيش أنور باشا، ووزير الداخلية طلعت باشا،  
وجاويد (دافيد - داود) وزير المالية ومترجم كتاب (شارل جيد) في الاقتصاد<sup>(٢)</sup>  
إلى التركية. ثم جاء من بعدهم مصطفى كمال (أتاتورك).

وأصل أكثرهم من يهود الأندلس، ممن يدعونهم (الدونغ)، أضاعوا  
الدولة العثمانية التي كانت ثلاثة الدولتين العظيمتين: الأموية والعباسية، والتي  
عاشت المدة الطويلة، وفتحت بالإسلام وللإسلام الفتوح الجليلة. وكانت يوماً  
أقوى دول الأرض، وملكها أكبر ملوكها.

فهدم هؤلاء ما بنى بنو عثمان، ونسوا (أو لم يعلموا) أن الإسلام لا  
يفرق الناس للألسن ولا للألوان، فأرادوا (تريك) العناصر العثمانية، فبدؤوا بهذا  
الفتنة التي جعلت الأمة الواحدة (أمة محمد) هيئة أمم، حين قالوا: ترك، فقال  
ناس منا: عرب، وقال الفرس، وقال الأكراد، وكانت عودة إلى الجاهلية! مع

(١) كلمة مقهى فصيحة و(افهى) أي أدام شرب القهوة.

(٢) وكنا ندرسه معرباً في معهد (أي كلية) الحقوق سنة ١٩٣١ لما كنا طلاباً فيها.

أننا ما كنا نفرق في معلمينا وفي رفاقنا بين عربي وتركوي وكردوي، ولا الإسلام يسمح لنا أن نفرق، وقد ماتت الآن هذه الفتنة أو هي على سبيل الاحتضار، وستلحق بها إن شاء الله أخواتها، ولا تبقى إلا دعوة الإسلام.

كانت مدرستنا أهلية، ولكننا ذقنا مع هذا الكثير من الثمر المر لهذه الدعوة، كان عندنا معلمون من الأتراك، أما الدِّينُ التقي منهم فينكر هذه التفرقة الجاهلية، وأما من كان غير ذلك فكان يؤيدها.

حتى قواعد اللغة العربية (النحو والصرف) فقد درسناها آخر المدة على معلم تركي، فكان يسأل الواحد منا: فاعل ندر؟ أي ما هو الفاعل. وانتقل خوف جمال باشا من الكبار إلينا، فكان عندنا معلم للموسيقى، قالوا إنه نسيب الباشا. فكنا نحشى أن نكلمه.

\* \* \*

كان عدد كُله استطرادا، وسبقاً للحوادث، فلنعد إلى سنة ١٩١٤ إلى السنة التي استعلت فيها نيران أول حرب عالمية في تاريخ البشر، ولكن لا تنتظروا مني أن أحدثكم عنها حديث المؤرخ المحقق، فإني أدون ذكريات إنسان كان طفلاً في تلك الأيام، لا أنقل عن ابن خلدون، ولا عن شارل سبيوس<sup>١١</sup>.

\* \* \*

عليّ في هذه المدرسة شهير، لم أخالط فيها أحداً من الأولاد، ولم يكلمهم إلا الكلمة التي لا بدّ من. هند نشأت أول ما نشأت على الوحدة، لم ألعب يوماً مع الأولاد في الحارة. «لا زرت أحداً من لداقي ولا رارني، فكنت (طهر ساري سانشا وحدي) أيسي كتابي، وإن زرت فالكبار من تلاميذ أبي إبراهيم. كان يصحني أحياناً معه، فاستمع ولا أتكلم لأن الصغار لا يكلمون في محال الكبار.

لذلك كنت في المدرسة متوحداً منفرداً حتى كان يوم رأيت فيه سماء

(١١) مؤلف (تاريخ احصاره) الذي ترجمه استاد محمد كرد علي ودرسته في الثابرة

(الصحن) الواسع مغطاة بسحابة سوداء. دانية منا ليست بعيدة عنا، وكان يساقط شيء منها على رؤوسنا. . .

... لا لم تكن قطرات المطر، فلم تكن سحابة ممطرة، وإنما كانت رجلاً من الجراد، ملأ سماء الشام وأرضها، وأتى على الأخضر واليابس من زرعها، وكان شيئاً رهيباً.

ولم تكن يومئذ هذه المبيدات ولم يكن شيء من هذه الوسائل التي قضت اليوم أو كادت على الجراد.

فبدأ القحط في البلد.

ثم سمعنا من أفواه الكبار كلاماً لم ندرك عوره، ولكن فهمنا من لهجة كلامهم، ومن ملامح وجوههم، ومن جزعهم أنه شيء مكرون مخيف.

فهمنا أنها قامت حرب في مكان بعيد عنا، ليست كحرب البسوس التي دامت (كما قالوا) أربعين سنة، ولم تقع فيها إلا أربعون معركة ما زادت المعركة منها عن مناوشة خفيفة بين فصيلين من الجنود.

وأن هذه الحرب يموت في المعركة الواحدة منها، ما يريد مئة مرة عن كل الذين ماتوا في معارك الجاهلية كلها، بل والذين ماتوا في (بدر) و(أحد) و(القادسية) و(البرموك).

سمعنا هذا فلم نبال به، ما لنا ولقوم لا نعرفهم، ليسوا منا ولا نحن منهم، يتقاتلون في مكان لا نعرفه ولم نسمع به.

حريق ولكن لم تمتد إلينا ناره، ولم يلذعنا أواره، ولكننا ما لبثنا إلا قليلاً حتى بلغنا شراره، ورؤعتنا أخباره، حين كنت أمشي إلى المدرسة من داري في العقبية، فأرى (الفرن) مسدودة واجهته بالخشب، ما فيها إلا طاقة صغيرة والناس يسدّون نصف عرض الطريق، يطلبون أرغفة من الخبز الأسود، فلا يكادون يصلون إليها.

كانت الشام أرض الخيرات، وكانت تسمى قديماً (أنبار روما) فأين

ذهب قمحها، حتى صرنا نطلب الخبز المخلوط بالشعير وبالدرة، وبأشياء لا تبلغ قدر الدرة ولا الشعير فلا نصل إليه .

كان عهدنا بالخبز معروضاً بأثمان لا يتصورها القارئ اليوم من شدة الرخص، وكان منه المشروح، والتنوري، وخبز الصاج، والمصنوع من خالص القمح، والمعمول من الدقيق الأبيض المنخول . . .  
فأين ذهب هذا كله؟ .

ذهب ببعضه الجراد، وبقاؤه حلفاؤنا (بل حلفاء الحكام الاتحاديين) من الألمان .

ثم خلت الشام إلا من الشيوخ والنساء والأطفال، أما الشبان فقد ساقوهم (مشاة على أقدامهم) إلى حرب ترعة السويس أولاً، التي عدنا منها بالهزيمة، وإلى معركة (جناق قلعة) لمحاربة أعداء الألمان .

وكان الضابط الذي يتعقب الفرار يلبس لبادة، لذلك يدعونه بـ (أبو لبادة) . وإذا رأوه نادوا (عباية) ليهرب من ليس معه وثيقة إجازة من الجندية، وكان كلما أبصر شاباً أمسك به أعوانه وقال له: (نرده وثيقة؟) أين وثيقتك، فإن لم يجدها جره إلى السوقيات، في البناءين القائمين إلى الآن في سوق صاروجا، حيث فتح مرة الشيخ أحمد كفتارو (مدرسة الأنصار) .

ثم رأينا الناس (ونحن في طريقنا إلى المدرسة) ينبشون أكوام القمامة لعلهم يجدون فيها بقايا طعام .

وغز السكر حتى صارت الأوقية (٢٠٠ غرام) بريال مجيدي، وقد كان المجيدي قبل الحرب يكفي لوليمة ضخمة، أي أن الكيلو بليرة (أي بجنيه) ذهبي!

وقل الكاز (البنزول)، وفقدت أشياء كثيرة مما كنا نستورده . وما كان منه عند التجار، قبضوا عليه أيديهم، وأخفوه في مستودعاتهم، وكانت أيام شداد .

ولكن الأتراك مسلمون، وإن كان حكامنا وحكامهم يومئذ من الاتحاديين أعداء العربية وكدت أقول أعداء الدين، فقد عزَّ عليهم أن يجوع علماء

المسلمين، فخصّصوا لهم جرايات من القمح، تسد حاجة بطونهم، وتصون ماء وجوههم.

وكان والدي - وقد نسيت أن أقول لكم - قد ترك إدارة المدرسة وصار (أمين الفتوى) عند المفتي الشيخ أبي الخير عابدين، والد شيخنا الشيخ أبي اليسر عابدين مفتي الشام (الطبيب الذي نال شهادة الطب على كبر) والذي صار أستاذاً في كلية الحقوق (وكانت تدعى معهد الحقوق وكانت هي وكلية الطب نواة جامعة دمشق).

كان والدي هو الذي يتولى إعداد قوائم بأسماء العلماء وطلبة العلم، لينالوا أنصباؤهم من القمح.

## من ذكريات الطفولة أيضاً

وكان من المناظر المألوفة، أن نرى جنود (أبي لبادة) بمسكون بجماعة من الشبان الفرار (وكانوا يدعوزهم الفرارية)، مربوطين بساقون، وحراب البنادق في ظهورهم إلى حيث لا ندرى.

فلماذا يفرون من الجيش؟ ومتى كان العربي المسلم، بل متى كان المسلم (عربياً كان أم تركياً أم كردياً) يهرب من مقارعة الأعداء، ومقابلة الخصوم؟.

به يستحيل أن يكون المسلم جباناً أو نذلاً، ولو أعوزه البارود، أو فقد الرغبة أنه يقاتل بالبدقية القديمة، ويقاتل بالسيف.. ويقاتل بالحجارة، ولو كان خصمه أقوى دول الأرض، ويقاتل جائعاً أو يصبر بومه على ثمرة، أو يأكل الكلاء.

كما يستحيل أن يكون اليهودي شجاعاً أو نبلاً، ولو قاتل بالسلاح الكثير الذي جاء من يضعه في يده، ويسلّقه به على الناس...

لا، ما هذه قصيدة فخر وحماسة، بل هي حقيقة واقعة، أما ترون ما يصنع المسلمون الأفغان أمام المعتدين الشيوعيين، ودولتهم إحدى الدولتين الكبيرتين في عالم اليوم؟

أليس هذه الوقفة إعادة كريمة ماجدة لموقف المسلمين الأولين يوم نازلوا الدولتين الكبيرتين في عالم الأمس، في اليرموك والقادسية.

إن الإسلام صب البطولة صباً في أعصاب المسلمين، وأجراها في

دمائهم، فمهما حافت بهم الشدائد، وتوالت المحن، فلن تتبدل طبيعة البطولة فيهم، والعاقبة لهم إن كانوا مع الله، لأن الله سيكون حينئذ معهم، ومن كان الله معه لا يغلبه مخلوق.

أتذكرون يوم عادوا من معركة الأحزاب وقد نفدت منهم آخر قطرة من الطاقة البشرية، استفدها ما فاسوا من الشدة والامتحان في ذلك اليوم حتى لم يبق لأحدهم أمنية إلا أن يأكل لقيمات، ثم يطرح نفسه على الأرض يستسلم إلى نومة مريحة.

... فجاءهم الأمر من القائد العام، من الذي لا ينطق عن الهوى، من الذي يأتيه (البريد الخاص) من السماء.

جاء الأمر بالمسير إلى الناقضي العهد، إلى حثالة البشر، وزبالة بني آدم إلى اليهود، إلى بني قريظة.

أما مسحوا النوم من عيونهم، واستلوا بعزائهم ابل بإيمانهم) التعب من أجسادهم، وامتلوا الأمر وساروا؟

لقد دعوا بعدها إلى الجهاد، إلى التضحية، إلى بذل الروح مئة مرة، فما تفاعسوا ولا تردّدوا، لقد لبّوا دوماً، وما أبوا يوماً، ولا يزالون حاضرين لبلبوا إن دعوا من جديد.

على أن بدعوهم الداعي بلسانهم لا بلسان غريب عنهم، لا يفهمونه ولا يعرفونه، يدعوهم باسم الدين، جهاداً في سبيل الله، وإعلاءً لكلمة الله، لا باسم الوطنية ولا القومية ولا التقدمية، إن الله يعطي الشهيد الذي يموت في سبيله، جنة عرضها السماوات والأرض، يعطيه حياة مدتها مليار مليار قرن، بل إن مدتها لا تحيط بها الأرقام، لأنها لا نهاية لها، حياة ما فيها إلا السعادة وكل لذيذ مشتهى، بدل حياة على الأرض مهما طالّت فإن نهايتها الموت وفيها ما فيها من المتاعب والآلام.

هذا جزاء من يقاتل في سبيل الله، فماذا نعطي القومية، وتعطي التقدمية، وتعطي الوطنية من يموت في سبيلها؟

هل عندها ما تعطيه؟ بل قولوا ما هي؟ هل هي شيء له وجود أم هي أسماء سميناها نحن (لا) آباؤنا، ما أنزل الله بها من سلطان؟ فما لنا ندع شرعة الإسلام، إلى نظام أساسه أوهام، ونتائج أحلام، ولن يكون له (كما لم يكن لأمثاله) دوام؟.

\* \* \*

فإذا كنا نحن أبناء الحرب، وإذا كنا أبطال القتال، وإذا كنا نحن، (نحن المسلمين)<sup>(١)</sup> أحفاد من خاضوا عشرة آلاف معركة مظفرة، ومن أزاحوا عن صدر البشر كابوس الدولتين الظالمتين الروم والفرس، ومن فتحوا بالحق والعدل وللعدل والحق، ما بين قلب فرنسا وقلب الهند...

فكيف كنا نفر من الجيش العثماني أيام الحرب الأولى؟.

\* \* \*

نفر لأننا كنا نساق إلى حرب لم تكن جهاداً في سبيل الله فترجو فيها الأجر من الله، ولم تكن حرباً اضطررنا إليها فلم يكن لنا بد من خوضها، ولا كان لنا فيها مصلحة ظاهرة فندخلها لتحقيق مصلحتنا.

حرب كان قادتها من غيرنا، لا أقصد أنهم من غير العرب، فإن الله قال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ لم يقل (إنما العرب)، بل لأنني أشك في صدق إسلام أكثر أولئك القادة من الاتحاديين، ولا أشك أن أيدي غيرنا هي التي كانت تحركهم.

ولما انجلي غبار المعركة، ووضح الأمر، عرفنا حقيقتهم مما صنع (أتاتورك) وقد كان واحداً منهم.

وليس الضمير راجعاً إلى الأتراك - لا والله - فالشعب التركي ما عدل بالإسلام شيئاً من يوم دخل فيه مختاراً، والسلطين الأولون كانوا من أحاسن

(١) اقرؤوا (نحن المسلمين) وهي في أول كتابي (قصص من التاريخ) واقروا ما كتب عنها في الرسالة (التي تصدر في بيروت) للدكتور صلاح الدين المسجد.



الملوك، فتحوا للإسلام أوروبا، ولو مدّ الله في عمر (محمد الفاتح)<sup>(١)</sup> ولو استمر الخير في أحفاده، ولو لم تفتنهم وتُعشّر أبصارهم بهارج هذه الحضارة لكان لهم تاريخ آخر.

\*\*\*

واستمرت الحرب، وكان الكبار لا يعرفون من أخبارها شيئاً، فكيف بنا نحن الصغار؟ ولم نكن نقرأ الجرائد لأنها لم تكن عندنا جرائد كجرائد اليوم، ولم نكن نسمع أبداً أخبار الإذاعات لأنها لم تكن قد اخترعت الإذاعات، كانت حياتنا قبل الحرب كالبركة الساكنة، وإن كانت مياهها آسنة، كنا في عزلة عن الدنيا: عزلة مادية وفكرية. أضعنا ثمرات حضارتنا الأولى، التي قبست منها أوروبا في عصر نهضتها، ولم نأخذ إلا القليل من نتاج الحضارة الحديثة.

ولكن كانت في حياتنا فضائل، وكانت لها عزايا، إن فتحت باب الحديث عنها الآن لم أستطع أن أغلقه، وإن دخلت فيه لم أقدر أن أخرج منه فأوالي طريقي.

ولقد كتبت عن دمشق التي عرفتھا وأنا صغير مصولاً، مقالات كثيرة في (رسالة) الزيات رحمه الله، وفي غيرها من الصحف والمجلات

وأودعت بعضه كتابي (دمشق)، وكتابي (من حديث النفس)، و(صور وخواطر)، و(قصص من الحياة)، وكل هذه الكتب مطبوع سرات تتداوله أيدي القراء.

أما موقفنا من هذه الحضارة فقد ألقى في محاضرة جامعة، في (ندوة الشباب العالمية) من نحو عشر سنين في الرياض طبعتها الندوة طبعة غاب عنها المصحح فامتلات بأخطاء الطبع، التي كان يدعوها صديقنا أديب العربية إسعاف الشاشيبي رحمه الله (التطبيقات).

\*\*\*

لذلك أدعها الآن، وأرجع فأقتصر على حديث الذكريات، إلا وفقت

(١) أقرأوا سيرته الجامعة التي ألفها سالم الرشيدى وكتبت مقدمتها.

ولفتات، أقف قليلاً، أو ألتفت يميناً أو شمالاً ثم أمضي في طريقي.

\* \* \*

قلت لكم إنني كنت أرى الجياع ينشئون أكوام القمامة عليهم يجدون ما يؤكل، وما جاعت دمشق قط في عمرها الطويل إلا تلك الأيام.

وكانت دمشق (مذ كانت) أرخص بلاد الله وأكثرها خيرات، كان ثمن رطل الخبز (والرطل كيلان ونصف) ما يعادل ثلاثة قروش سعودية، فصار رطل الخبز الأسود الذي فيه من كل ما يطحن دقيقاً إلا دقيق القمح، صار يستين قرشاً، ولو وجدت القروش الستون (على صعوبة إيجادها) لم يوجد الخبز.

وصار كيلو السكر بدينار (أي جنيه) ذهبي، وصار النفط (زيت الكاز) أغلى من عطر الورد الأصلي الذي يستخرج من ورد (مسرابا) في الغوطة، ووردها الجوري أعطر لأوراد.

وارداد ماظر الجياع والهاربين من الجندية لأن مدرستنا قد انتقلت إلى سوق صاريح، إلى دار هولو باشا العابد بجوار السوقيات، وترك والذي المدرسة وحده مديراً حديداً، اسمه شكري بك عايدين.

وكانت دمشق (في تقسيم الرسمي) ثمانية (أثمان) أي أحياء، فأحياء العمارة وباب السلام يسكنها في الغالب العلماء، والقيميرية للتجار، والقنوات لدرجها، ما سوق صاروجا<sup>(١)</sup> المدي يتد من (العقبة) إلى بوابة الصالحية فللكبار الموظفين، لا تراك. أما حي الميادين وحي الصالحية وحي الأكراد فكانت في الغالب معلقة على أهلها.

بهول باشا والد أقوى وأشهر حربي كاد على عهد السلطان عبد الحميد، وكان خاتمه الثاني. وكان بمثابة أمين الدولة، وهو أحمد عزت باشا العابد، ومن اناره (بابا العابد) في المرحلة، وهي أول عمارة حديثة ضخمة أقيمت في دمشق على النمط الافرنجي، وهي أربعة طوابق من الحجر، لا تزال من أضخم العمارات.

(١) صاروجا من أمراء المماليك

أما سبب ترك والدي إدارة المدرسة، وانتقاله إلى دائرة المفتي (أميناً للفتوى) وهو بمثابة مساعد للمفتي، فإني لا أعرفه.

\* \* \*

وصلت سنة ١٩١٨ إلى الصف الخامس الابتدائي، وكانت مدرستي (الأهلية) تتبع منهج مديرية المعارف، وتزيد عليه العناية بالعلوم الإسلامية، ولكن تدريسها سيء الأسلوب، معوج الطريقة، ولا أذكر لمدرس من مدرسيها أثراً في نفسي، فكأنني كنت أنتقل من سنة إلى سنة، وأرتقي من فصل إلى فصل وأنا نائم.

\* \* \*

ووصلت إلى أسمعنا أطراف من أحاديث الكبار عن ثورة قام بها شريف مكة على الدولة العثمانية، وكنا قد شهدنا من قبل شوق جماعة من كبار الناس في المرجة، دعاهم الناس (الشهداء)، وسَمُّوا من بعد المرجة من أجلهم بـ (ساحة الشهداء)، وبقينا سنين طويلاً نحتفل كل سنة في اليوم السادس من أيار (مايو) بذكرهم، ولقد كتبت في مطلع شبابي كما كتب غبري في رثائهم وتمجيد أسمائهم، ودعوا جمال باشا، لما صنع بهم، بـ (جمال السفاح).

ثم حصحص الحق، وشهد مؤرخو النصارى في لبنان، وفنحت مجلاتهم ملفات عنهم، فتبين أنهم إلا قليلاً منهم (نحو خمس منهم)، نبين أنهم كانوا خونة للدولة، جواسيس لأعدائها عليها، وإن الدولة (العثمانية) لما وضعت يدها على قنصليتي فرنسا وإنكلترا أيام الحرب، وجدت الأدلة القاطعة، والبراهين الدامغة على خيانتهم وتحسُّسهم.

طلع النهار فجلى ما نوهمناه في ظلام الليل، فسودت الحقيقة الصورة التي كانت بيضاء لهؤلاء الذين دعوناهم شهداء، كما بيضت وجه السلطان عبد الحميد، الذي حاول اليهود، تلاميذ إبليس أن يسودوه، سود الله وجوههم.

\* \* \*

واستيقظنا يوماً من أيام سنة ١٩١٨ (المحرم ١٣٣٧) على صوت رعد شديد ولكن السماء ما فيها قطعة من غمام، ورجات هائلة كأنها زلزال، ولكن

ما اهتزت الدار . فصعدنا نحاول أن نرى من سطوح المنازل، فشاهدنا نوراً  
يسطع ثم يخبث، وناراً تتفجر في الجو ثم تهمد، وانتظرنا فجاء من يخبرنا بأن  
(الجبانة) في (القدم) أي مستودع الذخائر قد فُجِّر! وسألنا لماذا؟ فلم يعرف  
أحد لماذا؟.

فلما أصبحنا قالوا إن الجيش التركي قد انسحب في ظلام الليل، وخرج  
من دمشق، وأن الشريف فيصل بن الحسين قادم إلى دمشق، وكانت رجّة في  
البلد، وكانت مظاهرات، وما كنا نعرف ما المظاهرات، إنما نعرف (العرضة) في  
زفة العرس، أو في مثلها من المناسبات.

وكنا نهتف في المدرسة كل صباح بالتركية (باديشاهم شوق يشا) ومعناها  
(يعيش سلطاننا طويلاً) فسمعنا هتافاً جديداً ما كان لنا بمثله عهد هو (يعيش  
الاستقلال العربي).

ورأياء مطبوعاً في أوراق، ليعلق على الجدران، لا أدري متى طبع،  
ولعلمهم طبعوه وحملوه معهم.

ورأينا العلم الأحمر، ذا الهلال والنجم، الذي عشنا إلى ذلك اليوم تحته  
قد نزل، ورأينا في مكانه علماً جديداً، فيه الألوان الأربعة.

الأبيض للأمويين، والأسود للعباسيين، والأخضر للهاشميين، والأحمر ما  
عدت أدري لمن هو، فكانه يقول مع صفى الدين:

بيض صنائعنا، سود وفائعنا      خضر مرابعنا، حمر مواضينا

## من المدرسة التجارية إلى المدرسة السلطانية ومن العهد التركي إلى العهد العربي

لينا تنتظر حتى إذا سكنت هزة المفاجأة، ورجعت الحياة تسير مسارها،  
وبدأ الناس بالقرن العهد الجديد .

. . . أخذنا كتبنا ودفاترنا وذهبنا إلى مدرستنا، فوجدنا المدرسة قد  
أغلقت. لقد حتى عليها اسمها، وما كان لها من صلة بجمعية الاتحاد والترقي  
إلا صلة هذا الاسم، كما أن الجمعية لم يكن لها مما يدل عليه اسمها إلا نصيب  
المدعي الكاذب في الدعوى الباطلة. اسمها جمعية الاتحاد، وهي التي جرت  
علينا الانقسام، كانت الدول العثمانية جسداً واحداً، العرب أعضاء فيه  
والترك والكرد. فقطعوا الحيط الذي كان يربط أجزاءه، ويؤلف بينها، وهو  
الإسلام، فصار كل جزء جسداً مستقلاً، أي أنه صار مستخاً زرياً لا إنساناً سوياً.

وكانوا في أوروبا يشبهون الدولة بـ (الرجل المريض)، مريض؟ نعم! إن  
المريض يتغنى والمرضى ليس غيباً. ولكنه باعترافهم رجل.

وكان السلطان عبد الحميد رجلاً حقاً؛ استطاع بدولة هرمة، وجيش  
هزيل أن ينجح دول أوروبا عن بلاده، وكان يضرب بدهائه بعضها ببعض .  
كان (رجلاً) يلعب بالرجال، فلما جاء (صبيان) الاتحاديين، وأمسكوا هم  
الزمام، لعبت بهم الرجال وأشباه الرجال.

واسمها جمعية الترقى، وهي التي سببت لنا التذني، فبعد أن كانت  
الدولة على عهد السلاطين العظام أقوى دول الأرض، صارت بهم دويلات لا  
وزن لها في الأرض، يحكمها حكام من غير أبنائها بقوانينهم لا بشريعتها،

ذلك لما خاضت بحماقتها وجهلها، وخبث سرائرها وقبح نياتها، حرباً لا ناقة لها فيها ولا جمل، ولا شاة... فانتهت بها وبنا جميعاً إلى الضياع.

وبدأت دمشق تعيش كأنها في بهجة العرس وقد كانت قبل شهر واحد، في كربة كأنها كمّدة الماتم، وحل الوجدان محل الحرمان، فالخيز مسوط أمام الشارين من كل نوع، وفي كل مكان، كما كان. وكثر السكر والبن والرز و(الكاز)، وكل ما كان مفقوداً صار موجوداً

والأعلام الجديدة ترفرف على الدكاكين وعلى أبواب المنازل، والأناشيد التركية ذات الألحان القوية العبقريّة، ندّت أناشيد عربية، صيغت كلماتها على عجل، وركب اللحن التركي القديم على النشيد العربي الجديد. وكان الناس في الشام (كما كانوا في أكثر بلاد الشرق) لا يهتم جمهورهم بسياسة ولا رياسة. همهم أداء فرضهم، وحفظ عيالتهم، وتسليّة أنفسهم بما لم يحرسه عليهم دينهم، لذلك فرحوا بما جاءهم من السعة بعد الصبر، والسلام بعد الحرب، لم يستطيعوا أن يزّنوا ما كان بميزان الربح والخسارة، ولا أن يتبينوا هل كان خيره أكبر أم شره، ولم يتنبهوا إلى أن عهداً قد انتهى، وأن عهداً آخر قد بدأ.

سقوط روما كان نهاية القرون الأولى، وبداية القرون الوسطى، ولكن هل معنى هذا، أنه إذا كان سقوطها يوم الخميس، كان الأربعاء من القرون الأولى، والجمعة من الوسطى؟.

وإذا انتهى العصر الأموي بقتل مروان، وولاية السجاح، فهل القصيدة التي نظمت قبل مقتله بيوم لها مزايا وخصائص الشعر الأموي، والتي نظمت بعده بيوم لها خصائص ومزايا الشعر العباسي؟.

التبدل الآني ليس من سنن الله في هذا الوجود، الليل يكون أسود حالكاً ثم يكون بعده النهار أبيض مشرقاً، فهل تحول الظلام نوراً في لحظة؟ أم الله يولج الليل في النهار.

وكنيت طفلاً ثم صرت شيخاً، فهل انتقلت في ساعة واحدة من الطفولة إلى الشباب، أو من الشباب إلى الشيخوخة؟ وهل أحسست بهذا التبدل؟.

راقب العقرب الصغير في الساعة، أنك لا تراه يتحرك، ولكنه مع  
سكونه الظاهر، يدور (دائرة) الساعة كلها.

وكذلك كنا ونحن نشهد ميلاد عهد جديد، العهد كان مخاضه عند  
بداية الحرب الأولى، وولادته عند نهاية الحرب الثانية، ولكننا لم نحس بذلك  
لأننا كن نعيش فيه.

إذا كنت في (المصعد)، وهو مغلق عليك، فهل تحسّ بأنه ينزل أو  
يصعد؟ إنك تدرك حركته بعد أن تخرج منه، وتقف فتتأمل إليه، ونحن  
نستطيع الآن أن ندرك حقيقة الذي كان، ونزنه بميزان الربح والخسران.

\* \* \*

وقيل إن أودع المدرسة التجارية أذكر أنها خرّجت طبقة من المثقفين  
كانت سبّاقة، وكانت رائدة، أتمنى لو كانت أسماؤهم عندي، لكنني أسمى من  
يخطر على بالي منهم خالد بك العظم السياسي المعروف رئيس وزراء سورية،  
وقد درس فيها حيناً وإن لم يتخرج منها. ومنهم صبحي بك القوتلي الرئيس  
الثاني لمحكمة النقض. وفؤاد بك المحاسني النائب العام، ومن تخرج منها وحمل  
شهادتها: الأضاء، طاهر. الططاوي، وقد دخل بعدها مدرسة الطب وخرج منها  
طبيباً سنة ١٩٢٠، ورفاهه الدكتور محمد سالم، والدكتور سهيل الخياط وهو لا يزال  
حيّاً. مد الله في عمره، ورحم الباقيين.

وقد كان يدرس فيها أكاره المشايخ الدروس الدينية، وقادة الجيش  
العثماني لعلوم الرياضية والطبيعية، يحسبكم أن من مدرسيها مدير معارف  
سورية هاشم بك يوم كانت ولاية سورية تشمل البقاع وبعلك وطرابلس  
والأردن إلى معاد.

ومن مآثر المدرسة عنايتها المبكرة بالألعاب الرياضية<sup>(١)</sup>، ولقد كان  
الدكتور محمد سالم من أوائل المعيينين بكرة القدم ومن قدماء لاعبيها، ولقد  
أسس ابن عمي الدكتور طاهر الطنطاوي الذي توفي السنة الماضية<sup>(٢)</sup>، أنشأ في

(١) راجع مذكرات خالد العظم

(٢) ١٤٠٠ هـ.

بستان داره في الصالحية ملعباً كاملاً لنفسه ولإخوانه . . .

أغلقت هذه المدرسة فتفرق تلاميذها في المدارس، وأدخلني أبي المدرسة السلطانية الثانية، وكانت في القسم الشمالي من جامع يلبغا في المرجة، في صحنه الواسع. وفي الغرف التي بنيت على جوانب الصحن، أما البركة الكبيرة فقد أقيم عليها حاجز من الخشب، يقسمها قسمين متساويين، قسم بقي في حيز المسجد، وقسم في حيز المدرسة.

وقد كان موضع المسجد تلاً يشق عليه المجرمون، فأحذه والي الشام سيف الدين يلبغا سنة ٨٤٧هـ وأنشأ عليه هذا المسجد.

\* \* \*

يا لله كم في حياتي من منعطفات! وكلما انعطفت بي الطريق مرة في وادي العمر، تبدلت المناظر من حولي.

كنا في المدرسة التجارية نتعلم اللغة التركية، مصرنّاها بدرس العربية، وكنا نهتف في الصباح (باديشاهم جوق يشا) فصرنا نهتف (ليحيا الاستقلال العربي)، وكنا قد بدأنا نتلقى مبادئ اللغة الفرسية، فصرنا نتلقى مبادئ الإنكليزية.

على أن من الإنصاف أن أقول، تدليلاً على إسلامية الشعب التركي التي لا تحتاج إلى دليل، إن تعليم التركية كان يبدأ باسم الله. كنا نقرأ التركية ونكتبها بالحروف العربية، لم يكن قد نجم فينا (أعني الأمة الإسلامية) من محارب ديننا، بإضعاف لساننا، فيستبدل بالحروف العربية اللاتينية، كما فعلوا (من بعد) باللغة الأندونيسية، وكانت تكتب بالحروف العربية. كنا نبدأ بحفظ كتاب صغير اسمه (أسماء تركية) أوله: تنري الله جل شأته، بيغمبر النبي، أبدست الوضوء، غاز الصلاة . . .

لا أزال أحفظه إلى الآن، وكانت كلمة (تنري) تكتب تكرري، كما تكتب كلمة بينباشي (أي رئيس الألف) بكباشي.

ولعل المؤرخ المصري ابن تغري بردي، كان اسمه (تنري ويردي) أي



عطاء الله، أقول هذا من عندي، ما عندي فيه نص.



وكان في دمشق مدرسة سلطانية واحدة، هي مكتب عنبر، ثم فتحت في أواخر حكم الأتراك مدرسة أخرى، وكنا نسمي المدرسة المكتب، والسلطاني معناها الثانوي، وهذه المدرسة هي (المكتب السلطاني العربي)، وقد كانت في طريق (ستي زيتونة)، ومن أعرفه درس فيها أستاذنا الشيخ زين العابدين التونسي، والشيخ عصام الدين الحسني وهو ابن الشيخ بدر الدين الحسني والأخ الأكبر للشيخ تاج الدين، الذي صار رئيس الجمهورية السورية، ووالد الصديق الشيخ فخر الدين مدير دائرة الافتاء في سورية (سابقاً).

أما هذه الريتوة، فقد كانت شجرة هرمة، أمامها قفص من حديد تربط النساء به الخرق، وتحتها قبر، وعندها (شيخ) دجال، قد جعل مرتزقه سدانة هذا الوثر

أما قصتها معجبية حقاً، هي أن قاسم الأحمد (جد صديقنا وزميلنا نهاد القاسم الأخ الوفي والورير المستقيم رحمة الله على روحه) لما ثار على ابراهيم باشا أيام حكمه الشام، نكس عليه بعد معارك طويلة، فشنته مع خمسة من رفاقه تحت زيتونة كانت مما، فقال الناس (السة بالزيتونة)، ثم نسوا القصة، فقدموا الشجرة وسّموها (ستي زيتونة)!



أما السلطانية الثانية التي دجنها فقد فتحت بعد دخول الشريف فيصل بن الحسين ولورانس الانكليزي دمشق، وكانت ابتدائية، وسلطانية (أي ثانوية)، مدير القسم الابتدائي الأستاذ شريف آقيق وقد سمعت أنه لا يزال حياً، فعّاه الله. ومدير الثانوي (والمدير العام) هو شيخ المعلمين الرسميين في الشام الأستاذ سعيد مراد.

وكان من معلمينا فيها شاب (أعني أنه كان يومئذ شاباً) من نابلس، هو أول من علمني الإنشاء العربي، كان يأخذ مقالات المنفلوطي، فيجعلها بحيث

نفهمها ثم يكلفنا أن نكتب مثلها، وكانت مزيتة الأولى صوته، فما عرفت على كثرة ما سمعت من الأصوات، ما هو أحلى منه وأطرب، وقد أنشد يوماً في اجتماع عام نشيد (ويلي على أوطاني من غارة العدوان) أمام الشريف فيصل، فأعجب به فجعله مدرس الموسيقى في السلطانية الأولى، ثم صار مدرساً سياراً لها، يدور على المدارس، فيكون يوم وصوله فرحة للمدرسة، وكان ممن ينظم الأناشيد العربية، أو يترجمها عن التركية ويلبسها النغمة الأصلية. وهو الأستاذ حسني كنعان وسأعود إلى الكلام عنه، فقد استمرت اتصالاتنا حتى توفاه الله سنة ١٩٨٠ رحمه الله.

\* \* \*

أما رفاقي فيها فلست أذكر منهم إلا المهندس صلاح شيخ الأرض، وقد كان هنا منذ سنوات، والمحامي الشاعر عبد الحكيم مراد، ولم أره من ثلاثين سنة وأحسب أنه في الكويت، والأستاذ حسن السقا الكيميائي ولست أدري ما فعل الله به.

ومن ذكريات هذه المدرسة الباقية في نفسي أن حاكم دمشق العسكري الجديد، وهو رضا باشا الركابي الذي كان أعلى عربي رتبة في الجيش العثماني، زار المدرسة يوماً، فدخل علينا الفصل، ووراءه وزير المعارف ورؤساء التعليم ومدير المدرسة، وكان بلباس (الجنرال) العسكري، والشارات على كتفيه، والأوسمة على صدره.

وكان الأستاذ حسني قد حفظنا قصيد الحلي: نسل الرماح العوالي عن معالينا، ولكنه بدل البيت الثاني، فجعله:

وسائل العرب والألبان ما فعلت بعسكر الترك والألمان أيدينا

وكان حسن السقا يلقيها بصوت عال، وحماسة بالغة، فقاطعه الباشا وسأله: من علمك هذا؟.

فارتعب وأشار إلى الأستاذ، فمدَّ الباشا يده إلى الأستاذ، ولكن الأستاذ كان قد اصفرَّ لونه، ولولا أنه استند إلى المقعد لهوى...

وإذا الباشا بصافحه!

ولما خرج الباشا، ومن كان معه، قال الأستاذ: أرايتم يا أولادي؟ هكذا تكون الشجاعة!

واستدار لثلا نرى البلبل في بنطاله!

ولا نظنوا أني أكتب هذا بعد ما توفاه الله لأنني لا أقدره ولا أحترمه.  
لا والله، ولو علمت أنه كان يسوؤه ما رويته، ولقد كتبت في حياته، وضحك لما قرأه، ثم كتب القصة بقلمه، وروى عن نفسه أشياء أبلغ في بابها منها رحمة الله عليه.

\*\*\*

ومن ذكريات هذه المدرسة فيضان بردى، بردى الذي كتبت عنه الكثير والذي يصل (المرجة) بعدما انشق عنه أبناءه الستة: (يزيد، وتورا، وياناس والقنوات، والقفاة، والديراي) ولم يبق من مائه ما يبلى ظهر قط مشى فيه، بردى الذي لا تذهب منه قطرة هدرأ على حين تذهب مياه الأنهار الكبار إلى البحر، فلا هي حفظت ماءها لها، ولا البحر امتلأ منها، بردى الذي قال كاتب شوقي، لما زار دمشق قرأه بعدما سمع من شوقي أشعاره فيه، قال متعجباً أهو ده بردى؟

بردى هذا إذا وصل إلى المرجة وأردنا أن نسلبه حرته في جريه، وأن نسجنه تحت القناطر، فيدوس عليه الماشون في المرجة، بردى يشور... وإذا ثار أغرق المرجة وما فيها، وما كان فيها مدرستا (السلطانية الثانية) أني لأذكر ذلك الفيضان سنة ١٩١٨، واستحضره في ذهني حتى أرى المدرسة كلها قد صارت بركة واحدة، والمقاعد قد طفت على وجه الماء كالزوارق، وتصايح التلاميذ، واستدعيت الشرطة، وأسرع المدرسون إلى إنقاذ الصغار... وكان يوماً لا ينسى.

\*\*\*

## في المدرسة السلطانية

اذهب إلى المرجة اليوم، واستقبل جهة الجامع الأموي وانظر إلى يسارك  
لا تبصر إلا برجة واسعة ما فيها بنيان.

إرجع إلى العهد الذي أخبر عن ذكرياته الآن، لترى بناءً من طبقتين،  
الداخلون إليه كثير، والخارجون منه كثير. هذا يدخل والحديد في يديه فيخرج  
طليقاً، أو يدخل طليقاً فيخرجون به إلى السجن (في القلعة)، وهذا يدخل  
مدعياً أملاً الربح فيخرج خائباً خاسراً دعواه، وذاك يخرج فرحاً رابحاً  
الدعوى

هنا كانت (العدلية). وإلى شرقها بناء أبصر هو (البريد)، والبريد  
(مصلحة) القلوب والجيوب<sup>(١)</sup>. وحقيقة ساعي البريد فيها البشائر وفيها  
النذر، يترقبه العاشق، وينتظره التاجر، والأم التي غاب عنها. ولدها تعد  
الدقائق لتأخذ رسالة منه تطفىء أو تخفف من نار الشوق في صدرها،  
والطالب ينفذ على الباب، ويصره على أول الشارع، ليرى ما يحمل إليه  
موزع البريد. هل يحمل خبر النجاح في الامتحان، أو نبأ السقوط والخسران؟

وإلى قربها عمارات تطل على بردى، يقابلها من هناك (السراي)، وقد  
كانت في ذلك العهد بل إلى ما بعده ربيع قرن تجمع وحدها وزارات الدولة  
كلها، ومعها مجلس الوزراء، ويجتنبها البلدية.

---

(١) الحبيب محبة القمص عند العنق ولكن لا بأس باستعماله على الوجه المعروف.

ووراء العدلية والبريد جامع يلبغا، باب له من الشرق يطل على سوق الخيل، وباب من الغرب يخرج إلى (البحصة)، ومدرستنا في صحته من ورائه، ومئذنته وراء المدرسة تطل على الشارع الخلفي.

فماذا فعل ذلك كله؟ لقد ذهب!

أما هذه العمارات فقد أودت بها إحدى الحرائق الهائلة التي كانت تشهدها دمشق، و(حريقة) أخرى ذهبت بالدور المقابلة، وكشفت جامع (تنكنز)<sup>(١)</sup> فقام هنا (فندق أمية)، وقامت هناك عمارات حديثة

أما البلدية فقد هدمت وبيعت للسيد الشربتلي (المعروف) فأقام في موضعها عمارة كبيرة، وبنيت البلدية لنفسها بناء ضخماً.

أما (بردى) فقد دفنوه حياً، وجعلوا قبره شارعاً تطؤه الأقدام، وقد كانوا يدوسون فوقه من قبل حين ألزموه أن يمشي في المرجة تحت الأرض ليمشوا هم فوقها.

وكانت المرجة في طرف البلد، تلتقي فيها خطوط الترام الذي جاءت شركة بلجيكية به وبالكهرباء سنة ١٨٩٨ كما سمعت، وقد ألغي في الشام من أكثر من ربع قرن، ولكنني رأيته بذاته في بروكسل سنة ١٩٧٠ لما زرتها.

وذهبت مدرستنا مع ما ذهب، وذهبت معها قطعة من حياتي، وكم كانت لنا فيها آمال، وكم حملنا فيها من آلام، فأبن آمالنا فيها وأبن آلامنا، لقد كانت دنيانا كلها مختصرة فيها، كما يختصر الكتاب في صفحات، وكما تقطر قارورة العطر في قطرات، فأين دنيانا تلك يا ناس؟.

أبن من كانوا يقعدون فيها على المقعد الواحد، لقد رقع الدهر منهم قوماً ووضع آخريين، اغتنى ناس وافتقر ناس، وربما صار (بل) لقد رأينا

---

(١) وكانت عندنا (مصلحة إطفاء) أنشئت لما أحسوا بالحاجة إليها عندما احترق مسجد بني أمية الكبير، ثم بناه أهل الشام هذا البناء سنة ١٣١١ هـ ولكن الإطفاء يومئذ لم يكن كالإطفاء اليوم.

بأعيننا) ابن الأذن (الفراش) قد صار هو الرئيس، وابن الرئيس قد أمسى فراشاً أو مثل الفراش.

هذه هي الدنيا، فالأحق من اطمأن إليها، ووثق بدوامها، ولم يحسب حساباً لتداول الدول، وتبدل الأحوال، وظن أن ما نال منها من مال ومجد وسلطان باقٍ له، ما علم أنه لو دام على من قبله ما وصل إليه...

ثم مضى أكثر رفاقنا إلى حيث من مضى لا يؤوب، مضوا ليجدوا ما قدموا محضراً، فإما إلى جنة، وإما إلى نار، فآللهم يا عفو يا من تحب العفو اعف عنا، واختتم بالحسنى لنا، ولمن صفى قلبه مع الله، ومدّ يديه خاشعاً، وقال: آمين.

وأرجو لكل من دعا لي بخير، مثل ما دعا لي به، هذا والله ما أريده، وهذا ما احتاج إليه، لا احتاج مالاً ولا منزلة ولا شهرة في الناس، كل ذلك لديّ منه الكثير، وكل ذلك سراب، تحسبه من بعيد ماء، فإن جئته لم تجد إلاّ التراب. ما أريد إلاّ دعوة صالحة من مسلم صالح، تبقى سرّاً بينه وبين الله.

لقد قارعت هذه المدرسة دهرها، فنزلت حتى صارت مدرسة ابتدائية، ثم أدركها ما يدرك كل ما سوى الله: من إنسان وحيوان ونبات. أدركها الأجل (الذي مهما تأخر)، فإنه اب، فماتت، ولم تجد قبراً يدل عليها أو لوعة تشير إلى وجودها.

\* \* \*

لما دخلت هذه المدرسة كب ود ارتقيت أيام الأتراك إلى السنة الخامسة الإبتدائية فردوني لما تبدلت المناهج إلى الرابعة

ومرت السنة ونجحت مرة ثانية إلى الخامسة وكنت الثاني بين رفاقي، ومع هذا الجزء من الذكريات صورة (جلاء) فيه درجاتي، وإثبات نجاحي<sup>(١)</sup>.

---

(١) انظر بهايه الجزء

وانتقلت المدرسة لسبب لا أدريه إلى البناء الذي أقامه أحد الولاة الأتراك على بردى، بين التكية السليمانية والأخرى التي أنشأها قبلها السلطان سليم. والذي يشبه في طراز بنائه أبنية القرون الوسطى: برجان من الجانبين وفوقهما سقف هرمي من القرميد، والباب الكبير بينهما، وقد كانت فوقه لوحة من الحجر مكتوب عليها مدرسة دار المعلمين، فانتقلت مدرستنا إليه. ثم صار كلية الحقوق (وكانت تسمى معهد الحقوق)، وقد تخرجت فيها ونلت شهادتها سنة ١٩٣٣، ثم صار وزارة المعارف، وهو اليوم إدارة التعليم في دمشق.

مالي أستاذ الأيام؟ ولم لا أنتظر حتى يصل بي إلى ذلك الكلام؟.

\* \* \*

انتقلنا إليها، وصار مديرنا الدكتور كامل نصري. ومن مدرسينا فيها الشيخ زين العابدين التونسي وهو الأخ الأصغر لشيخ سنايخنا السيد الخضر حسين، الذي صار من بعد شيخ الجامع الأزهر، وأستاذ الأساندة مصطفى تمر، الذي كان المفتش الوحيد لمدارس سورية، والشيخ أبو الخير القواس، الذي اخترع الطريقة المنسوبة إليه في تدريس قواعد اللغة العربية (النحو والصرف)، وجعل للأمتلة لوحات كبيرة، حروف الزوائد في كلماتها ملونة، ورتب عليها أسئلة، ثم صغرها في سلسلة كتب كنا ندرسها اسمها (دروس القواس). وأشهد الآن أنها كانت أفضل الطرق، وكان يدرسنا اللغة الفرنسية الأستاذ علي الجزائري.

وخرجنا مع أول مظاهرة مشينا فيها يتقدمنا طالب كبير، يسأل: ماذا تريدون؟ فنجيب بصوت واحد: ياسين باشا.

من ياسين باشا؟ ماذا نريد منه؟ لم أكن يومئذ أدري، لكنني علمت بعد ذلك أن الإنكليز (كما قال الناس) قد اختطفوه، فخرجنا نطالب بإرجاعه.

وفي تلك السنة قرر المؤتمر السوري الذي كان يمثل سورية ولبنان وفلسطين، نصب الأمير فيصل ملكاً، وكان تنويجه يوم (٨ آذار ١٩٢٠).

وطالما كتبت بعد ذلك في ذكرى هذا اليوم .

ودعيت إلى حفلة التتويج، وحضرتها مع رفاقي في المدرسة، ولكن (من برا)، وقفونا صفاً أمام السراي، ثلاث ساعات على أقدامنا بلا طعام ولا شراب!.

كذلك كانت مشاركتنا في الاحتفال، وكذلك كانت معرفتنا بعهد الشريف، نعيش فيه ولكن لا نرى منه إلا الظواهر، وما أبعد ما بين ظواهر الأحداث العامة وحقائقها.

الذي رأيته في هاتين السنتين بقيت حلوة طعمه تحت لساني، كنت أظن أن دمشق في مرحلة متصلة، في عرس لا ينتهي، المظاهرات مظاهرات الفرح، والحماسة التي عمت الجميع، وسوق عكاظ للخطب في (النادي العربي) وكان في الركن العربي، من ملتقى طريق الصالحية والطريق إلى بيروت، أمام فندق فيكتوريا، ولقد كنت عنه كثيراً، وحدثت عنه أكثر، وكان أبرز خطبائه (كما أذكر) الدكتور عبد الرحمن شهنيدر، كان يخاطب كأنه يتحدث، لا يفعل ولكن يفعل بالسامعين ما يشاء. بقيهم ويقعدهم، ويلعب بمشاعرهم وبقلوبهم، ومن خطبائه شيخنا الشيخ عبد الرحمن سلام وسيأتي عنه الكلام، ورجل نصراني كان اسمه حبيب اسطنار خطيب مدرّس المثال.

« كانت مهضة عظيمة في الأناشيد، أشهرها (أيها المولى العظيم فخر كل العرب) و(سيروا للمجد طراً سيروا للحرب) و(صليل الظبا وصرير القلم لملك القيود وقشع الظلم) و(افتحوا لنا الطريق) وعشرات لا أزال أحفظ الكثير منها، واحفظ الحائنا.

ولما تكلم في الرائي عن نشيد (بلادي بلادي منار الهدى) وقلت إن لحنه قديم أحبطه من صغري، وأنا أؤكد ذلك هنا تأكيداً جازماً، تعجب الناس من أين لشيخ مثلي المعرفة بالألحان؟.

معرفتي بها، من حفظي أولاً للأناشيد التركية، وأناشيد هذا العهد الذي أتحدث عنه، والثالثة أن معلمينا من المشايخ كانوا يأخذون كل لحن يسمعون،



ولو كان لأغنية غرام مبتذلة، فيؤلفون كلاماً سخيفاً يزعمون أنه في مدح الرسول ﷺ وينزلونه على اللحن، وقد أنكرت هذا في الصحف وفي الإذاعة وعلى المنابر من أكثر من أربعين سنة وأنكره الآن، ولكني أقرّ أني حفظت بسببه أكثر الحان عبده الحامولي، ومحمد عثمان، وداود حسني (اليهودي)، وأمين حسنين، والشيخ أبي العلا، وسيد درويش، وزكريا أحمد.

ونشيد بلادي (السعودي) نظم معارضة لنشيد الراعي:

بلادي بلادي هواك دمي جعلت حياتي هدى واعلمي  
غرامك أول ما في القواد وكسر آخر ما في فمي

ولحنه جاء من هنا مشوباً بشيء من لحن القصيدة التي كانت تعنيها ام كلثوم: (مصر التي في خاطري وفي فمي) لا من نشيد سيد درويش.

بلادي بلادي بلادي لك حي وفؤادي

ولأنهم علمونا في المدرسة (الثوة الموسيقية) بفصله غاية التفصيل، وإن كنت لم أمسك بيدي آلة موسيقية، فضلاً عن العزف عليها، وإنما هو علم نظري بها، كما أعرف (نظرياً أيضاً) المقامات والأنغام العربية، وأسواع الضروب والإيقاعات، على مبدأ (تعلم السحر ولا تعمل به)، وإن لم يكن حديثاً.

\*\*\*

وكان لي مع الشيخ زين (رحمة الله عليه وعلى أساتذتنا جميعاً) موقف أسأت فيه إليه وأنا لا أدري، وكان ذلك سنة ١٩١٩، وقد زرته آخر مرة ذهبت فيها إلى دمشق، وقلت له: أنت أستاذي وبدأت أذكره بذلك الأيام.... فبان على وجهه الغضب المكتوم وقال: دع هذا الآن.

قلت (متعجباً): ولم يا سيدي؟

قال: أنسيت أنك كنت تكذبي وأنا ألقي الدرس؟

قلت: يا سيدي، أبعد أربع وخمسين سنة؟ والله إني مظلوم وبريء (كما يقولون في المسرحيات).

لقد كانت القصة أن الشيخ كان يدرسنا التوحيد، وكانوا يلدؤون عادة بذكر الواجب والمستحيل والممكن، فجعل يضرب أمثلة على المستحيل، ويسألنا من يدعي هذا ماذا نقول له؟ فنقول: كذاب.

وشرد ذهني ولم أنتبه إلى أنه انتقل إلى كلام آخر، فكنت كلما أكمل الجملة أقول بلا تفكير: كذاب!

رحمه الله لقد كان مدرساً نافعاً، وكان مؤلفاً يصنف للطلاب الكتب التي توافق مداركهم، وتسيفها عقولهم: ألف (المعجم المدرسي)، ثم ألف رسالة ما سبقه أحد فيما أعلم إلى موضوعها هي (المعجم في النحو والصرف) وجعله مرتباً على الحروف... وأنا أقترح على الأستاذ الكبير عبد الرحمن التونسي، والشيخ هو عم أمه أن يعيد طبعه وأن يسعى لتعممه وزارة المعارف على جميع التلاميذ، فإني لا أعرف كتاباً في حجمه، يحوي مثل علمه، ويفهمه التلاميذ مثل فهمه، وهذا شيء خطر على بالي الآن وأنا أكتب هذا الفصل، ما فكرت فيه من قبل، ولكن أرجو أن يكون خدمة لذكرى أستاذي، ومنفعة لأبناء بلدي. وأنا أعد هذا البلد بلدي. وبلد كل مسلم يتوجه في صلاته إليه.

\*\*\*

وهما جاء في طريق حياني معطف آخر.

كنت من أصغر تلاميذ حفي (أو فصلي كما يقولون)، وكان عبد الحكيم مراد وهو في مثل سني، وكنا لا نتكلم إلا الفصحى، فكان التلاميذ الكبار يسخرون منا، وربما آذونا، وعلم أبي بذلك فأخرجني منها، وأدخلني المدرسة الجعفرية<sup>(١)</sup>، عند الشيخ عبد السفرجلاني.

ومعطف أكبر منه، كان في حياة سورية كلها، هو موقعة (ميسلون) وانتهاء الحكم العربي، وبداية الانتداب الفرنسي.

---

(١) نسبة إلى جعفر من حكام الماليك.

## منعطف خطير في تاريخ سوريا

وقفت بكم أمام منعطفين: واحد منهما في طريق حياتي أنا، وواحد في طريق تاريخ بلدي، والبلدان التي تجاوره وتجمعها به جوامع العقيدة والمصلحة واللسان، وهو منعطف معركة ميلون.

لا أكتب عنها بقلم المؤرخ الذي يجمع الروايات، ويصنفها ويصنفها، ثم يؤلف بيها، ويستخرج العبرة منها، فقد كتب عنها كثير، ولعل أحسن ما كتب فيها كتاب الأستاذ ساطع الحصري.

وهذا الرجل سابق من السابقين من الموجهين والمربين من العرب، وإن عاش حياته الطويلة حداً ومات وهو لا يحسن العربية لا نطقاً ولا كتابة، مفكر ممتاز كان شيخ المشتغلين بالتربية من عام ١٩٠٨ في تركيا، ثم في الشام على العهد الذي أتحدث الآن حديث ذكرياته، ثم في العراق، وقد تسلم (المعارف) من بابها إلى محرابها، وأصدر يومئذ مجلة كانت أولى مجلاتها، ثم أشرف على (المعارف) في سورية بعد الاستقلال، وهو نسيب الزعيم سعد الله الجابري، ثم عمل في مصر في جامعة الدول العربية.

هذه مزاياه، أما: هل أحسن أم قد أساء؟ وماذا كان موقفه من الإسلام؟ الحواب لا يرضيه لو كان حباً، ولا يرضي تلاميذه ومحبيه، ولكنه الحق ولا يضمر الحق أن كثر أعداؤه وكارهوه.

كان العقل المفكر لفتنة القومية، التي لم يأت منها إلا أن كنا أمة واحدة هي (أمة محمد)، فصرنا جمعية أمم، وكنا إخوة يجمعنا الحب في ظلال

الإيمان، فصرنا أعداء تفرقنا هذه الدعوة الجاهلية...  
ولقد أقصد مناهج سورية لما دعا بعد الاستقلال لإصلاحها.  
ولقد كان لنا (أنا ونهاد القاسم رحمه الله) مجلس معه في مصر، سنة  
١٩٤٧ استمر ساعات...

... ولكن لماذا أقف عنده الآن؟  
إنه داء الاستطراء، والخروج عن الجادة، فلنعد إليها، ولستاع طريقتنا  
فيها.  
لقد كانت معركة ميسلون منعطفاً خطيراً في تاريخ بلادنا، وما أكثر  
المنعطفات في قصة حياتي.

ذلك لتعلموا أن حياة الإنسان لا تقاس بـ (طول) السنين، بل  
بـ (عرض) الأحداث، فلقد بلغ عمري في التاريخ الذي أكتب عنه، اثني  
عشرة سنة فقط، ولكني رأيت فيها حكم الأتراك، وحكم العرب ومن ورائهم  
الإنكليز، مستخفون بأشخاصهم ظاهرون بأعمالهم، كالوسواس الخناس مع  
الناس. وسأشهد قريباً حكم الفرنسيين، وهم ظاهرون ظهوراً قوياً ولكن  
أثرهم (إن قيس بأثر أولئك) كان ضعيفاً.

أتعرفون القصة الرمزية عن الريح والشمس، لما تراهنتا على أيهما يقدر  
أن ينزع عن الفلاح معطفه، فعصفت الريح واضطربت وحركت الهواء، فبرد  
فلبس فوق المعطف عباءة، وجاءت الشمس فوجهت أشعتها إليه، فأحس  
بالحر، وسال من جسده العرق، فنزع المعطف.

هذا هو مثال الإنكليز والفرنسيين كما رأيناها في الشام، وهما بعد ذلك  
كحماري العبادي (من سكان الحبرة)، قيل له: أي حاريك أسوأ من  
صاحبه، قال: هذا وهذا! أو كما يقول المثل اللبناني العامي: كما حنا كما  
حنين. الله يلعن الاثنين!

وكانت ميسلون، وأنا أصف منها ما رأيت وما يمكن أن يراه مثلي.

\*\*\*

كنا في جنة، أو فيما نتوهمه جنة، فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت، وكنا في قصر فيه كل ما نطلب وما نتمنى، فأتاه زلزال مدمر فتركه خراباً.

كنا نعيش (أو نظن أننا نعيش) في عرس دائم: ابتهاج وحاسة، وعودة الخبز، والسعة بعد الضيق، والحرية (أو ما حسبناه حرية) بعد أن كنا في سجن كبير.

أصبحنا، وإذا الأخبار تتوارد عن مسير الفرنسيين إلينا، وأن الأعداء الدجال قادم علينا.

إنه الخيال غورو<sup>(١)</sup> لم ندر أنهم تقاسمونا ونحن نيام، وأن (سايكس وبيكو) وزعمنا غنائم حرب كما توزع المواشي التي أخذها الجيش الغالب من الجيش المملوك. وأن إنذاراً قد وجه بحل الجيش، وأن الملك وافق عليه وسرح الجيش، كل ذلك لم يعلم به عامة الكبار، فما بالك بالتلاميذ الصغار؟.

وسرت أخبار أن مدير البريد العام حسن بك الحكيم، قد أحرى بريقة الملك لأنه لم يرض أن يكون شريكاً في هذا الموقف الدليل، ثم تبين أن ذلك لا أصل له.

وحسن بك السياسي الطيف رئيس الوزارة مرات، رجل الاستقامة والإصلاح لا يزال حياً. يعيش على راتب تقاعدي لا يعدل راتب معلم ابتدائي، وهو أحد الأعلام في تاريخنا الحديث، ولو شاء لكان كما كان غيره من أصحاب الملايين هيا أسفي! أهكذا يعامل شرفاء الرجال؟.



واشتعلت البلد نيران الحماسة وكان الوطني المخلص، وأحد أركان التعليم الشيخ كامل القصاب. يدكي هذه النار ويضرمها، وتآلفت اللجان الشعبية جمع المال<sup>(٢)</sup>. وجمع الناس على التكتة الحميدية (القشلة) وهي تشبه

(١) الأسماء الدجال الثاني موشي ديان وقد فطس في أواخر عام ١٩٨١ م (وكلمة فطس من العامي الفصح)، والثالث هو الذي يظهر قبل يوم القيامة.

(٢) وكان المشرف على هذه اللجان حالي الأستاذ محب الدين الخطيب، وأنا أذكر غرفة كبيرة في داره (فرب البادرانية) مملوءة حتى سقفها بالسادق توزع على المتطوعين.

اختها في مكة، ولكنها أكبر، وهي اليوم جزء من جامعة دمشق، وحفظوا ما وجدوا من السلاح، ومنهم من أخذ بندقية فرنسية ورصاصاً ألمانياً. فانفجرت منه.

وظنوا بأن الحرب تكتسب بالخطب، كما ظن ذلك الأستاذ أحمد الشقيري رحمه الله، وأبوه الشيخ أسعد من قبله وكان خطيباً مثله، وكما يظن كثيرون، وخرجوا بالأهازيج والأناشيد، يتساقون إلى ساحة المعركة...

وكان من المتحمسين القائد الشاب يوسف بك العظمة، شهيد ميسلون وقبره فيها، ولم يستمع أحد لنصح كبار العسكريين كرضاً باشا الركابي، وكانوا يظنون أن جماهير ما عندها من أدوات الحرب، إلّا الحماسة تستطيع أن ترد جيشاً فرنسياً يقوده جنرال. فكانت الهزيمة المرتقة بعد قتال قصير، ودفع الاستقلال وهو لم يتم سن الرضاعة، وبدأ حكم الأجنبي للشام.

\* \* \*

أما المنعطف الصغير في حياتي أنا، فهو نقلي من المدرسة السلطانية الثانية (الرسمية)، إلى مدرسة الشيخ عبد السفرجلاني (الأهلية) وكانت في الحفمية. أما (الحفمية) فقد بناها (جقمق) المتوفى في سنة ٨٢٤هـ، وهي في جوار قبر صلاح الدين الأيوبي، والمدرسة السمساطية التي كانت يوماً دار عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين، والمدرسة الاخائية. وقرب منها العادلية التي بناها العادل الأيوبي، وفيها اليوم مجمع اللغة العربية، وكانت يوماً دار الإفتاء، وكان القاضي المؤرخ ابن خلكان ينام فيها، وأمامها الظاهرية أغنى المكتبات في الدنيا بالمخطوطات في علوم الحديث، وقد صنع لها المحدث الشيخ ناصر الألباني<sup>(١)</sup> فهرساً.

وهذه المحلة من دمشق ممتلئة بالمدارس القديمة، حتى أنك لتلقى داراً مملوكة على بابها لوحة باسم المدرسة وواقفها وما وقفه عليها. وهذا من

---

(١) وأنا أقر له بالصدارة في علوم الحديث وأرجع فيها إليه، وأنكر تفقهه وآراءه التي يخالف فيها جمهور العلماء من الفقهاء.

العجب، وأعجب منه أن جدار الأموي الشمالي وعرضه نحو المترين أو قريب منها فيه نافذة، أرضها ملحقة بدار مملوكة مسجلة في السجل العقاري . . وهي من جدار الجامع !

ومحلة أخرى كان فيها سلسلة متصلة من المدارس، هي ضفة نهر يزيد من غرب دمشق على سفح قاسيون إلى حارة الأكراد، لم يبق منها إلا أنقاض مدرسة في أعلى شارع المالكى، وعدة مدارس في الصالحية، ومدرسة ركن الدين، ومجموعة من المدارس في طريق لا يزال اسمه (بين المدارس).

ويقولون إن ذلك العصر كان عصر الجهل والانحطاط !

\* \* \*

والجقمقية قد جددتها وزارة الأوقاف بإشراف إدارة الآثار، وأعادتها كما كانت وهي من أجل المباني المملوكية.

أما الشيخ عید فهو معلم الشام حقيقاً لا مجازاً، ولقد كتبت عنه كثيراً وفي كتبي كلام طویل عنه، فقد لبث يعلم أكثر من ست وستين سنة، ولقد كان أبى تلميذاً لديه، ثم صار معلماً عنده، وكنت أنا تلميذاً لديه ثم صرت معلماً عنده، ولقد رأيت في سجلات مدرسته اسم التلميذ، ثم اسم ابنه، ثم اسم حفيده، ثم اسم ابن الحفيد، علم أربعة بطون . وابنه الأستاذ عبد الرحمن كان شيخ المعلمين الرسميين، بعد الأستاذ سعيد مراد، والشيخ محي الدين الخاني، وسياقي الكلام عنه.

في هذه المدرسة بدأ التأثير الباقي في نفسي للأساتذة الذين حضرت دروسهم. أما الشيخ عید فكان له أبقى الأثر فيها، وما كان يعلمنا ولا يلقي علينا دروساً بل كان يلقي الكلمة، فصب حبات القلوب منا، وأنا قد نسيت أكثر ما سمعت من دروس المدرسة ولكن أمثال هذه الكلمات التي تأتي في موضعها وتقترب مناسبتها لا تزال في أذني، وفي قلبي .

كان شيخاً كبيراً، وكنا نتكلم حول مكتبه، يبري لنا أقلام القصب، ويهدي إلينا رسائل عليها خطه، وكان يحسن الخط، وبجدتنا، فإذا أراد أن يودب واحداً منا أخذ برأسه، فحنانه على صدره (صدر الشيخ) ثم أمسك بالعصا

بجمع يده، إبهامه إلى أعلى، ثم ضربه على ظهره ضربات لا تؤذي، وكان إذا  
سُئِم قال للمذنب: (يحرق بذلك)، ويضرب لنا الأمثال، فيقول كونوا مستقيمين،  
ولكن استقامة (الحورة) أي شجرة (الحور)<sup>(١)</sup> لا استقامة عمود الكهرباء،  
الحورة تمبل قليلاً مع الريح، وتبقى على استقامتها، أما العمود (وكان يومئذ من  
الخشب) فإنه يعاند حتى ينكسر.

ولطالما حفظت أحاديث صحيحة، وأحكاماً فقهية، وعيت نصائح  
وحكماً، انتفعت منها في حياتي، كل ذلك من هذه الكلمات، فإذا دخل المعرفة  
المراقب، وكنا سميهِ الناظر، وهو موظف لديه، ويأبى له، قال ضاحكاً: لقد جاء  
فاهربوا.

\*\*\*

ومن هو الناظر؟ هو الشيخ محمود العقاد، أحد تلاميذ أبي، وأقرهم منه  
صلة، وكان حسن الصوت، مجود القراءة، يتقن الأناشيد، فإذا انتهى الدرس،  
بعثتني جدي إليه، لأقول له: يا شيخ محمود، اقرأ لنا، أو أسعنا شيئاً.

وكان يفعل، وجئت المدرسة وهذا نظري إليه، وحكمي عليه وإذا هو في  
المدرسة رجل آخر غير الذي عرفته في الدار، لا ينشد ولكن يشد أرجلنا في  
الفلق، ويقرعه بالعصا.

كان مخيفاً، وكان التلاميذ إذا خرج عليهم وهم في الفرصة وهم يصرخون  
ويصبحون صمتوا فجأة، وكُتِّمَ أفواههم.

ولما صرفه الشيخ عيد، أو انصرف هو، جاء يودعنا، يرتقب منا أن نبكي  
حزناً للفرق، ففرحتنا من الأعماق.

أقول هذا بلسان ذلك التلميذ، وأشهد وقد استمرت صليتي به إلى أن  
توفاه الله من سنوات، إنه كان يحب الخير للتلاميذ ويريد لهم الكمال، أما الشدة  
فقد كانت (موضة) المعلمين في تلك الأيام.

---

(١) يقول شوقي في شاميته:

والحور في (دمر) أو حول هامتها حور كواشف عن ساق وولدان



في هذه المدرسة اتضح لي طريق الجمع بين القراءة على المشايخ على الأسلوب الأزهري القديم، والدراسة في المدارس على الأسلوب الجديد.

ولقد كنت منذ وعبت أجد إذا أصبحت مشايخ بعمائم ولحي يقرؤون على أبي، وكنت أدخل بالماء أو بالشاي، فالتقط كلمة بعد كلمة، لا أفهم معناها، ولكن تبقى في نفسي ذكراها، ثم صار أبي يأمرني، أن أناوله الجزء الأول من حاشية ابن عابدين، أو الثاني من الفتاوى الهندية، أو جزءاً من القاموس، أو تنقيح الحامدية، فعرفت بعض أسماء الكتب.

ولكن لم يضح<sup>(١)</sup> لي الطريق إلا في هذه المدرسة، إذ كان بين مدرسينا شيخ حليل، ولكنه شديد. كنا (مع الأسف) نحترمه ولا نحبه، وكنت أحضر دروسه في الأموي، يوم كان في الأموي أكثر من عشرين حلقة دائمة، وكانت حلقته متميزة تجمع العلم والأدب، والفقه والشعر، يتكلم بلهجة تونسية يلقي جملاً مسجعة كثيرة الترادف، مزينة بالشواهد، كأنه يقرأها من كتاب مطبوع، هو الشيخ صالح التونسي<sup>(٢)</sup>.

هذا الشيخ، ولصديقه الشيخ الكافي (وسأتكلم عنه) أثر بالغ في نفسي؛ ذلك أنه كان صديق أبي. وكانت له غرفة في المدرسة البادرائية فالزمني أبي بأن أحضر عليه في غرفته (دروساً إضافية) فوق دروسه في المدرسة التي ضمت بها، وكنت أثنى الخلاص منها، ولكن أمر الأب لا يرد.

ولقد أدركت بعده مبلغ ما استفدت منه، حين حفظني ألفية ابن مالك، و(الحوهر المكتوب) في البلاغة، ومتوباً أخرى، نقشت في خاطري في الصغر، وانتفعت بها في الكبر.

(١) وضح يضح مثل وعبد بعد

(٢) والد الفقيه الطيب الأستاذ عبد الرحمن مدير مدارس الشعر

## عهد جديد في حياتي وذكرياتي عن الجامع الأموي

عهد (المدرسة الجمقمقية): مدرسة معلم الشام الشيخ عيد السفرجلاني. عهد جديد في حياتي، دخلت قبله كتاباً ومدرستين، ومررت بجماعة من المعلمين والمدرسين. وقد ترك ذلك في نفسي أثراً بلا شك، ولكني لم أدركه في حينه، ولا أذكره الآن بما لصع سبي، وإما لأنني لم أصادف المدرس الذي أعطاه الله القدرة على عرض نفسه على تلاميذه، وأول عهد شعرت بأثره في هذا العهد.

يسطيع حصر عوامل هذا العهد في تكوين تفكيري، وتحديد سلوكي، في أربعة

- ١ - مدير المدرسة وصاحبها الشيخ عيد.
- ٢ - الجامع الأموي وحلقته
- ٣ - ومدرسة الشيخ صالح التويحي
- ٤ - ورجل عالم كال صديق أبي وأعمامي، كان قوي الشخصية، فقيهاً مالِكياً عظيم، تربي التأثير فيمن حوله، على سدود فيه هو إلى سدود العبارة أقرب منه إلى سدود أشباه المحايين.



أما الشيخ عيد فقد أوردت طرفاً من أخباره، وجانباً من وصفه في الحلقة الماضية، ولكن لا بأس بأن أحدثكم بشيء جديد عن هذا الرجل.

هذا الرجل كان معلماً عظيماً، ولم يكن يلقي علينا دروساً محدّدة الأبواب،

واضح المنهج، بل كان ينثر أقواله، ونصائحه نثراً يلقبها علينا ونحن متكومون عليه حول مكتبه، وهو يجول بيننا في ساحة مدرسته، بل كان لا يحجبها عنا وهو يؤدبنا، وربما مرت الكلمة فلم نلتفت إليها عندما كان يطلقها، ولكنها كانت تغرس في نفوسنا، تنزل إلى أعماقها، حتى أنني لا أزال أذكر أكثرها إلى الآن، كلما دعت إليها مناسبات المقام.

وأمثال هذه الكليسات يلقبها معلم يجتمع له في قلب تلميذه الحب مع الاحترام، هي التي تبقى على كثر الأيام. وإن سيت محاضرات الفصل التي يكون فيها الامتحان. أضرب لكم عليها مثلاً.

تجوز الصحراء، فلا ترى إلا أرضاً جرداء، لا ظل ولا ماء، ولا بته خضراء، فإذا نزل المطر اهتزت وربت وكسبت ثوباً أخضر من العشب والزهرة. وصارت مرعى للسوائم ومتعة للنظر، فمن أين تروونه قد جاء هذا النبات؟

من بذور صغار قد لا تأخذها من دقتها الأنصار، قد ركب الله لبعضها ما يشبه الأجنحة القصار، تحملها الرياح فتلقبها بين حبات الرمال. فلا ترق إلا تلاً من الرمل تتلظى تحت وهج الشمس....

فإذا أنزل الله الأمطار، وجمع الله لها (الظروف) التي جعلها سبب الإنبات كان منها هذا النبات، وكان منه الزهر البارع، والشر اليناع، أو كان منه الشوك الجارح والسقم الناقع.

وكذلك كل ما تسمعه لا سيما إن سمعته في الصغر، إنه بذره خير أو بذرة شر، إذا جاءها (الظرف المناسب) وضعتك على طريق الجنة، أو على سبيل النار.

فانتبهوا يا أيها القراء لما تنظرون فيه من كتب ومجلات، وما تسمعون من إذاعات ومحاضرات، وما تشاهدونه من مسلسلات ومسرحيات، ولا تظنوا أن أثر ذلك يذهب مع إكمال الكتاب، أو انتهاء المحاضرة أو إسداد الستار على المسرحية، بل إن بعضه يبقى ما بقيت الحياة.

فيا رحمة الله على الشيخ عيد السفرجلاني وعلى أمثاله من مشايخنا الأولين

الذين كانوا لنا آباء، وكانوا مربين، وكانوا مراقبين ناصحين.

الشيخ عيد هذا أعلم أن تسعة وتسعين بالمائة من قراء هذا الفصل لم يسمعوا باسمه، ولا أحسبهم يهتمون بخبره، وكذلك يكون نصيب الجندي المجهول من ثناء الناس، ولكن ماله وللناس؟ وما الذي يرجوه من الناس؟ إنه عند الله معلوم لا مجهول، وإنه يرجو وترجو له (من فضل الله ورحمته) الجنة وترجوها لأمثاله من المجاهدين المخلصين، والعاملين الصامتين. الشهرة وخلود الذكر ليست ما يتفع الناس ويمكث في الأرض، بل هو رضا الله، وثوابه العظيم، فاطلوا ما يبقى، لا تجعلوا أكبر همكم السعي لما يفنى.

أسأل الله أن يوقظ قلبي وقلوبكم من غفلتها، فأنا أخرج إلى هذه الدعوة لأني مغفوس فيها أكثر منكم.

\*\*\*

### الجامع الأموي

وهل نظنون أن استطراداً في فصل من هذه المذكرات مساحته ثلاث صفحات يتسع للكلام عن الجامع الأموي؟

لقد كانت (المدرسة الجقمقية) ولا تزال أمام الباب الشمالي للجامع، فكنا ندخله كلما سنحت لنا فرصة بين الدروس، وفي أوقات الصلوات، وكان لنا مهوى القلب، ومستقر الحب، كما كان مع الأسف ميدان اللعب!

لقد كسب في تلك الأيام التي أنكلم الآن عنها (سنة ١٩١٩) كلما سمعت حبراً عن الأموي اختزنه في ذاكرتي، وكنت لا أنسى شيئاً سمعته أو قرأته، احتفظه من مرة واحدة فلا يفلت مني، يقولون: إن الفتى من يقول هانذا. فلا تفخر بما كان بل تنف ما هو كائن الآن.

أصداً فكم القول، إني لا أزال (أحفظ) ما أسمع أو أقرأ، ولكنني أنسى نفسه فأرويه بمعناه، وأنسى عن سمعته أو أين قرأته وهذه نعمة أحمد الله عليها. أتريدون أن أكون في الشبخوخة كما كنت في الصبا؟ هيهات:

انرجو أن تكون وأنت شيخ كما قد كنت أيام الشباب

لقد كَذَّبْتُكَ نَفْسُكَ لَيْسَ ثَوْبٌ خَلِيقٌ كَالْجَدِيدِ مِنَ الثِّيَابِ  
وحسبي انني الآن (بفضل الله) أقوى جسداً، وأوعى ذاكرةً، من أكثر من  
أعرف من الشيوخ.

\* \* \*

ثم صرت بعد ذلك أدون ما أجد من أخباره حتى اجتمع لي منها الكثير  
الكثير، فلما كلفني وزارة الأوقاف أيام الوحدة مع مصر أن أولف عن الأموي  
كتاباً يكون دليلاً للسياح أخذت منها خلاصه وافية، وضعتها في كتاب عنوانه  
(الجامع الأموي) يبيحونه لزوار المسجد من السياح. و(ياخذون هم. .)  
ثمنه، ولم أير فيه المراجع التي أخذت منها الأخبار، لأنني في كتابي (أموي  
الصدّيق) المطبوع من أكثر من خمسين سنة، وكتاب (عمر بن الخطاب)، ثم (أخبار  
عمر) الذي جمعته من (١٧٠) مرجعاً، قد وصفت في الذيل مصدر كل خبر  
(الكتاب والطبعة والجزء والصفحة)، فأخذ ذلك كتاب كبار وصغار منهم العقاد  
في العبقريات ومحمد حسين هيكل، ونسبوا الخبر إلى مصدره وأهملوا ذكر كتابي  
الذي نقلوا منه اسم المصدر، ولي على ذلك أدلة وبراهين وقد قلته من قبل،  
سأعهم الله.

ولست أعرض هنا لما في كتابي (الجامع الأموي) لأنني لا أكتب اليوم  
بقلم المؤرخ، بل أتكلم بلسان المحدث.

لقد كان الأموي يومئذ حافلاً بحلقات التدريس، لا يكاد يحلو من  
ثلاث أو أربع منها (على الأقل) إلا ساعات محدودات. قبل الظهر وبعده، فيه  
دروس بعد الفجر، ودروس بعد العصر، ودروس بعد المغرب.

في مقدمتها حلقتا المحدثين الكبيرين الشيخ بدر الدين الحسيني الذي  
كانوا يدعونه المحدث الأكبر، والشيخ السيد محمد بن جعفر الكتاني. أما  
الشيخ بدر الدين فإني من يوم عرفت الدنيا كنت أسمع باسمه، وأنه شيخ علماء  
الشام، ولقد وصفت مرات درسه تحت القبة وكان التدريس تحت القبة لكثير  
علماء الحديث في البلد، ووصفته فيما كتبه عنه يوم وفاته سنة ١٩٣٥ في مجلة  
(الرسالة)، وقد جعل الأستاذ الزركلي هذه المقالة من مصادر ترجمته في

(الأعلام). وقد ارتجت الشام لوفاته رجّة شديدة، وهرع علماء سورية إلى دمشق، جاؤوا من مدنها كلها، وأتعجل القول (وأنا أتكلم عن أحداث سنة ١٩١٩) فأقول: إنهم قرّروا أن يشرفوني بأن أكون أنا الذي ينعاه للناس في الأموي، في جمع لم تشهد دمشق جمعاً في الأموي أكبر منه.

أما الشيخ الكتاني فقد كان آية في معرفة علوم الحديث، وكتابه العظيم الذي سماه (تواضعاً) الرسالة المستطرفة دليل هذا العلم الذي لا أعرف في هذا العصر ولا غيره من ألف مثله. وأحسب أنه أملاه إملاء، وسلوا عن هذا صديق العمر أخي الشيخ ياسين عرفة الذي طبع الكتاب.

وكنا نحضر درسه فيقرأ معيد الحلقة، وهو السيد محمد الزمزمي (ابن الشيخ ووالد الصديق السيد المنتصر)، ثم يأخذ الشيخ بالكلام عن رواية الحديث. واحداً واحداً، يذكر من وثقه ومن تكلم فيه. ثم يتكلم عن المتر كانه بقاء من كتاب، وذلك في هيئة ملك، وتواضع عابد، واطلاع عالم منقطع الطير. بلهجة مغربية حلوة. وكلا الشيخين: الشيخ بدر الدين، والشيخ محمد بن جعفر معري، ولكن الشيخ بدر الدين مولود في دمشق.

وقد ورد عليهما مية معري اسمه الشيخ البلغشي، درس مدة في الأموي، وكان أعجوبته في المسائل المعنولات. وفي حل المشكلات. ومن كان يدرس في الأموي الشيخ الكافي، وشيخنا الشيخ بهجة البيطار يدرس في رمضان خاصة لأن دروسه اليومية كانت في جامع الدقاق في الميدان. وفي هذا المسجد (بسيط) آخر مثل البسيط الموضوع في مارة الجامع الأموي، وكلاهما من صنع حذما الشيخ محمد الططاوي.

ومن مدرسي الأموي الشيخ هاشم الخطيب، والشيخ عبد القادر الاسكندراي. وهو عالم مصري سكن دمشق كان يتكلم بلهجة مصرية، والشيخ أحمد النويلاتي، والشيخ عبدالله العلمي المفسر، والد الدكتور عبد الحليم، وعبد الباسط وهما من رفاقنا في (مكتب عنبر)، والدكتور عبد الستار وهو أصغر منها، وله ولد طبيب يعمل هنا اسمه الدكتور فواز لم ألقه. والشيخ خالد النقشبندي وهو حفيد مولانا خالد (هذا هو لقبه الذي يعرف به على

طريقة الهندود)، والأتراك يقولون للعالم المولى فلان (راجع الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية). والأكراد يقولون (الملا فلان) وأصلها المولى. ورأيت في جأوة لما زرتها عالماً اسمه الكياي دحلان، والكيا لقب للعالم وليس اسماً، ومنه عرفت معنى اسم الفقيه الشافعي الكيا الهراسي.

قلت: إن الشيخ خالد النقشبندي هو حفيد (أو ابن) مولانا خالد الذي جلب الطريقة النقشبندية إلى دمشق. ولكنه مع ذلك سلفي - وهذا من العجائب - ومثله أبو الفرج الأصفهاني صاحب الأغاني، أموي السبب شعبي المذهب، وولدي الأستاذ سعيد المولوي أهله من أركان الطريقة المأوية، وهو سلفي.

وكانوا في الشام يومئذ يدعون السلفيين بالوهابيين، وكانت الوهابية نهمة مخيفة (اقرأ الجزء الأول من كتابي عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب) ولقد عوقبت مرة في المدرسة لأنهم أمسكوني بالجرم المشهود. في حلقة الشيخ عبد القادر بدران صاحب (المدخل).

ومن مدرسي الأموي الشيخ يعقوب المدني، وهو من الذين هاجروا من المدينة، لما تركها سطر من أهلها هرباً إلى الشام في أواخر العهد العثماني. ومنهم الشيخ العبطة، وهو كفيف طلق اللسان عالي الصوت. صوفي حرافي، ومن الصوفية ما يمشي مع الشريعة، ولا يخالف الكتاب والسنة ككتاب (مدارج السالكين).

ومن جاءنا من المدينة الشيخ الغاطس، أحد مؤذني المسجد النبوي، وقد تلقى عنه بعض مؤذني الأموي نغمة الأذان المدني.

ومن عادات هؤلاء المؤذنين أنهم يأتون بعد صلاة العشاء بابتهالات وأناشيد نبوية، موجود مثلها في مصر وغيرها، (وهي بدعة)، لكن الذي في دمشق ينفرد بشيء لا يوجد مثله، فيما أعلم في غيرها، هي أن لحن هذه الأناشيد مربوط بالأيام، فلكل يوم مقام (نغم) من المقامات السبعة الأصلية، فمن لم يعرف ما هو اليوم، وكان له بصير بالأنغام عرفه من نغمة (أي من مقام) الشيد، وأحسب أن هذا الترتيب من وضع الشيخ عبد العني النابلسي.

ومن مدرسي الجامع الأموي الفقيه الشافعي الكبير الشيخ الجوري،  
والشيخ العذري، وهو رجل عجيب، إذا أسمعته بيتاً في الغزل هاج وماج،  
وكان في درسه صراحة عجيبة، كان يشتم الفرنسيين ومن يعاونهم أقبح الشتائم  
فمنعوه من التدريس.

وكان كل من ورد دمشق من العلماء يقرأ درساً في الأموي يبين فيه عن  
علمه، ويكشف عن مشربه، ولقد حضرت دروساً منها لأكابر علماء مصر  
والشمال الأفريقي وغيرهما.

### حادثة طريفة

ولما جاءنا الشريف فيصل كثر الواردون من الحجاز من علماء وغير  
علماء. وهذه حادثة طريفة إذا لم تجدوا في روايتها نفعاً، فإنكم واجدون في  
ذلك متعة. هي أن الشريف فيصل نزل في دار عثمان باشا، وهي الدار التي  
اشترتها في بعد السنارة الفرنسية، وسكنتها، وهي في محلة (العفيف) أول  
حي لمبحرين. هربت حاشيته الدور المجاورة لها. وكان لعمي الشيخ عبد  
القادر دار كبيره حدا لها براني وجواني (اقرأ وصفها في كتابي: من حديث  
النفس) فاستأجروا رابعها

وكانت تمشي يوم في أحرم في مكة أول سكني بها (وذلك سنة ١٣٨٤)  
به كس فدت بناؤه، فسمعت صوتاً يناديني فالتفت فإذا أنا بشيخ له سمت  
وهيئة مع جماعه يتبعونه، فوقف لي حتى وصل. قال: أنت الشيخ علي؟  
قلت نعم

نعم لي، ورحب بي، وسلم علي. وانطلق يسألني. فقال: ابن الشيخ  
مستطفي؟ قال نعم.

قال كيف حاله؟ فدهشت، وقلت: رحمه الله. قال: متى؟ قلت في  
شعبان سنة ١٣٤٣ أي من أربعين سنة.

قال: رحمه الله، رحمه الله. وعمك الشيخ عبد القادر؟ قلت: توفي من  
عشرين سنة. قال: وأخوه؟ وفلان وفلان؟



يسأل عن مأس موت على موت أقرهم وفاة عشرون سنة

قلت. يا سيدي. من أنت؟ هل أنت من نفايا أهل الكهف؟ فإذا  
الشيخ حسن قد عني رحمه الله، وكان (كما تذكرت بعد) إماما للشريعة  
استأجر براني بيت عمي، وعرفنا وجر صغار رحمه الله جميعا

## من جوار الأموي إلى سفح جبل قاسيون

الطريق طويل، وأنا أمشي كالسالحفة. لقد رضيت مني أن أكون كالسائح يقف ليرى فيصف، ثم يعاود المسير، فرأيتني إلى الآن أقف ولا أسير فدعوني أسرع. وأدع التفصيل في الكلام على عهد، أكثر القراء لم يدركوه وعلى رجال - يستعجبونهم ولا يعرفونهم.

وسأكتب إن شاء الله عن (الشيخ الكافي) وغيره في فصول آيات أو في طعة مفصلة من كتاب (رجال من التاريخ). أما الشيخ صالح التونسي، الذي كان يدرسنا في (المدرسة حتمقية) فلا بد لي من وقفة قصيرة معه.

لقد عرفته من حلقاته في (الأموي) قبل أن أقعد تلميذاً بين يديه في مدرسة.

كانت حلقات الدروس في الأموي كثيرة، في علوم مختلفة، منها ما هو لطلبة العلم، ومنها ما هو (مواعظ) للعامة، ولكن درس الشيخ صالح كان يمتاز منها جميعاً بأنه كان موعظة، ودأباً، وكان تاريخاً، وما أكثر ما حفظت فيه من أحاديث صحيحة، ومقطوعات من الشعر بارعة، وأخبار من التاريخ نادرة. وكان يلقي ذلك بلهجه التونسية، فصحة المنجى، جامعة المعنى، كثيرة الأسجاع، تأتي معه عفواً بلا تكلف. لا يكفي بأن يتكلم ونحن نسمع بل كان يسأل ويطلب الجواب، فيكون لنا من درسه (فوق ما نتلقى من العلم والأدب) تدريب على الخطابة، وتقرين على الكلام. وهذا فن عني به العرب قديماً، حين كان من خطبائهم من يدرب على ذلك الشباب وعني به الأميركيان

حديثاً، إذ يفتحون مدارس يتعلم فيها تلاميذهم (وجلهم من الكبار) فن  
مخاطبة الجماهير.

ثم كنت تلميذه في المدرسة، وكنت أتلقي عنه فوق ذلك درساً خاصاً،  
أمرني أبي به، وطلبه لي منه، وكان صديقه.

وأشهد لقد استفدت منه، ومن المنون الكثيرة التي ألهمني حفظها: ألفية  
ابن مالك<sup>(١)</sup> في النحو، والجوهر المكون في البلاغة، ومثل الخوخة والريد. وإن  
كنت قد نسيتها الآن إلا قليلاً منها!.

وإذا وعدتم وعد الصدق ألا نخبروا ولده الأستاذ عبد الرحمن مدير  
مدارس الثغر، ولا أحداً من إخوانه الكرام. املت لكم: إني كنت وكان  
رفاقي كلهم يحترمونه غاية الاحترام، ولكنهم لا يصبونه. فقد كان معلماً كاملاً،  
ولكنه كان شديداً، وكان قوياً الحسد، مشاود العصب، جاداً كل الجد، وكنا  
نخشى قوة يده أن يبطش بنا، وقوة لسانه أن يلسا من حملة التي كان  
يصوغها صياغة الفولاذ، فتعلق بنا واحدة منها، وتناولها بمشاودها ألسنة  
الرفاق، فتكون لنا وصمة العمر.

وكان من أساتذتنا في المدرسة، عالم يماني اسمه الشيخ عبد الواسع بن  
بجى الواسعي، لا أعرف ما صنع الله به، بعد أن فارقتنا.

وأستاذ أظن أن اسمه سعيد الطيب، كان يدرسنا النحو الفارسي بالعربية  
باصطلاحات النحو العربي.

أما الذي كنا نخافه جداً، ونخافه التلاميذ جميعاً، فكان ناظر المدرسة  
الشيخ محمود العقاد تلميذ أبي، وكان أخي ناجي يذهب معي، وهو صغير، فإذا  
ضربوني في الدار بسبب منه أنقم منه، فأضربه حين أنفرد به، فيشكوني إلى  
الناظر، فيعاقبني عقوبة هينة في ظاهرها، ولكن ضرب العصا كان أهون عليّ  
منها.

---

(١) كان قبر ابن مالك في مقبرة الصالحية في جبل فاسيون، فلما مات الشيخ أمير النكريني  
ضاعت عليهم الأرض! فدفنوه في قبره، فلم يعد له قبر يعرف.

كان يأتي بي وبرفيق لي هو عبد المجيد مراد، أخو شفيق وعبد الحميد وابن الشيخ أبي النصر مراد، الذي جرّ إلينا الكهرباء من داره وكانت له بسببها القصة التي رويتها لكم في غير هذه الذكريات.

كان يقعد على مقعد في قاعة المدرسة، ويوقفنا أمامه، وينصحننا فيتكلم، ويقول: ضعوا عيونكم على عيني. ويطول الكلام، وأحسن كأني مشدود بحبل إلى عينيه، والحبل يدور بي في الهواء، فلا أعود أفهم شيئاً.

وكان من رفاقنا الأستاذ محمد علي بدير كبير رجال الاقتصاد في الأردن اليوم وابن عمه خالد رحمه الله، والأستاذ هدى الطباع، وعبد الوهاب محفوظ، وعبد السلام الخطيب، وواصف الخطيب، وعبد العظمة، وفؤاد الجلال.

ومرّ العام، وودعنا الشيخ محمود، وذهب، ثم ودعنا الشيخ صالح وسافر إلى المدينة، فصار مدرساً في الحرم النبوي، وأقام بها إلى أن توفاه الله. رحمه الله ورحم أساتذتنا جميعاً.

\*\*\*

كنا في (العقبية) وهي حيّ فقير من أحياء دمشق، ذكر في ترجمة الإمام الأوزاعي أنه كان (قرية ظاهر دمشق)، مع أن بيته وبين السور ثلاثمئة متر فقط، وبين السور وبين (الأموي) مثل ذلك، قدرته تقديراً، ولم أقسه قياساً، فساحونا إن سينا أو أخطأنا.

وكنت أذهب إلى المدرسة فأدخل من باب الفراديس، وهو أحد أبواب دمشق السبعة، التي بقي منها ستة كما بقي السور سالمًا، ثم أدخل السور الداخلي. وبينها حارة تسمى اليوم (بين السورين).

وأذكر بالمناسبة شيئاً نسيت أن أتكلّم عنه في مكانه، هو أن جمال باشا، لما فتح أول شارع في دمشق سنة ١٩١٦ سمي باسمه، فلما انتهت الحرب وخرج الأتراك سمّوه شارع النصر، يقصدون النصر على الترك.

وكنت مرة عند شيخ مشايخنا، الشيخ عبد المحسن الأسطواني، وكيل اللجنة التي أشرفت على بناء الأموي بعد أن احترق سنة ١٣١١هـ، ونائب دمشق

في مجلس النواب العثماني، ورئيس محكمة التمييز في سورية. . . وفاة عاش  
(١١٨) سنة، وتوفي كامل العقل قوي الذاكرة.

كنت عنده فسالته: أين الباب السابع من أبواب دمشق؟ أولم يكن بين  
باب الجابية وباب الفرع باب؟ .

قال: بلى، كان هناك باب النصر.

فكانت تسمية الشارع بشارع النصر، رمية من غير رام .

وانتقلت دارنا إلى الصالحية، فأخرجني أبي من المدرسة الحفصية وفارقت  
جو الأموي الذي تحيا به الأرواح، وتتعش النفوس يوم كأن الأموي قلب  
دمشق: الدار الفرية هي التي تقرب منه، والبعيدة هي التي تبعد عنه

وكان ماثبة الناس، يجلسون فيه في (الحريم) في الشتاء، وفي الصيف  
يقعدون في الصحن، حيث النسيم الرخي لا ينقطع، والماء يتدفق من (فوهة)  
البركة، والرواق الفخم من حولهم، والمآذن الثلاث تطل عليهم، ويطل معها  
أربعون قرناً من الزمان من يوم كان معبداً وثنياً، إلى أن أصبح كنيسة نصرانية  
إلى أن شرفه الله بالإسلام، وضواً جوائبه بنور الإيمان، فكان بذلك (أي في  
جاهليته وفي إسلامه) أقدم المعابد القائمة في الدنيا، كما أن دمشق أقدم المدن  
العامرة المسكونة على الأرض.

كذلك كان الأموي، فهل تدرون اليوم ما حاله؟ كانت دمشق تحوطه  
بذراعيها، وتعطف عليه جوانحها، تعيش بقربه، وتحيا بحبه، لا تستطيع  
الابتعاد عنه، صباحها فيه ومساؤها، ونهارها بجواره وليلها. . . فتركته وسارت  
مشرقة، وسارت مغربة، وبقي وحده حيث كان. . . . .

\* \* \*

وسرنا نحن مع من سار، وإن لم ننكر عهده، ولم ننس وده، انتقلنا من  
منزلنا الصغير في آخر العقبة إلى دار كبيرة فسيحة الأرجاء، كثيرة الغرف  
والأبهاء، قريب منها الشجر والماء، الشجر في يساتين الصالحية التي انتقلنا إليها،  
والماء من نهر (يزيد) أكبر أولاد بردى الستة في سفح قاسيون، بحيث ترتفع عن

المدينة ونزل عن جادات حي المهاجرين، نرى من غرف الدار العليا، الشام والأموي في وسطها.

والشام في اللغة من جنوبي تبوك إلى جبال طورس وفي العرف البلدة القديمة. فيقول أهل الصالحية: ذهبنا إلى الشام، وعدنا من الشام، كما يقول المصريون (مصر) لا يعنون بها الإسكندرية ولا أسيوط، بل ولا يقصدون شبرا ولا حلوان.

وأعادي والدي إلى المدارس الرسمية، وكان في دمشق (أول عهد الانتداب) أربع مدارس رسمية ابتدائية، وكانوا يسمونها بـ (أنموذج)، وهي: (أنموذج البحصة) التي كانت مدرستنا السلطانية الثانية، و(أنموذج الملك الظاهر) وهي أقدمها وكانت في المدرسة التي أنشأها الملك الظاهر بيبرس، وهو ثالث (الفرسان الثلاثة) الذين أنقذ الله بهم سورية من الصليبيين: نور الدين، وصلاح الدين، والظاهر.

وفيها اليوم المكتبة الظاهرية التي يعود الفضل فيها، بعد الله، للشيخ طاهر الجرائري، صربي الخيل الذي سبقنا، جمع الكتب التي كانت موزعة على المدارس والمساجد. نعت بها أبدي العابثين وكانت منها نواة هذه المكتبة التي تعد اليوم من أغنى المكتبات في ديار الإسلام.

و(أنموذج الميدان) و(أنموذج المهاجرين)، التي دخلتها سنة ١٩٢١ وأعدت لي الصف الخامس. ثالث مرة.

ذلك أني ارتقيت إلى الصف الخامس على عهد الأتراك، ثم ارتقيت إليه مرة ثانية على عهد الحكم العربي، وهذا أعود إليه على عهد الانتداب الفرنسي...

.. فكأن ما رحنا ولا جينا

لقد ضاعت ثلاث سنوات، من عمري هدرًا، ضاعت بالمقياس الرسمي، ولكنها ما ضاعت والحمد لله، بمقياس الدين، ومقياس العلم، بل لقد كانت سنوات خير وبركة، تركت في قلبي ذخيرة من الإيمان أسأل الله أن يديمها لي، وأن يزيد بها، وأن ينفعني بها في آخري.

وتلقيت فيها من العلم ما لا أجد مثله في مناهج المدارس الرسمية. وقرأت من الكتب ما لا يقرأ مثله تلميذ في مثل سني يومئذ، وسأحدث عن مطالعاتي وقراءاتي فيما يأتي من الفصول، وإن كنت قد قرأت معها القصص التي كانت تسلية تلك الأيام: قصة عنتر، وقصة بني هلال، والملك سيف، والأميرة ذات الهمّة، ورأيت فيها من أخبار الفروسية وأنباء البطولة، ومن الأكاديب والانحرافات ما لا مزيد عليه.

كنت في السلطانية الثانية، والشام من حولي في عرس، والناس في فرحة الأمل بعد اليأس، والوجدان بعد الحرمان، هتف للاستقلال، وغلاً الجور بأناشيد الحماسة والفخر، ثمثي نحن تلاميذ المدارس نهتف بالنشيد فتدده معنا أفواه الباعة في الدكاكين، والمارة في الطرق.

ثم كنت في الحفمقية في حي الأموي، وفي جوه الروحي، نجلس في حلقاته، ونستمع إلى علمائه، ونقوم في صفوف المصلين، نركع مع الراكعين، ونذكر مع الذاكرين.

فجئت الآن إلى هذه المدرسة في لحف الجبل، أمام جامع الشمسية وقد مات الاستقلال ودفن في ميسلون، وخنقت الأناشيد في الأفواه، وأصاب الناس اكتئاب فكأنهم في مصاب.

الشام التي هي وشطر لبنان ومملكة الأردن الآن كانت كلها ولاية من ولايات بني عثمان، ثم صارت سورية ولبنان جزءاً من المملكة العربية التي أرادها الحسين بن علي، لما قام بثورته، أو بنهضته، فلست أدقق الآن في الأسماء. الشام صارت لما دخلها غورو أربع دول، دولة دمشق، ودولة حلب، ودولة العلويين، ودولة الدروز.

إنهار البناء الضخم الذي أقمناه من أمانينا وآمالنا، وهوت الدولة العربية التي نفخنا فيها من أرواحنا، وسقينا شجرتها من دمائنا، وهبطنا من ذروة الأمل الكبير، إلى حضيض الواقع المرير.

لم يبق شيء من الدنيا بأيدينا إلا بقية دمع في مآقينا

## فصل جديد في تاريخ الشام

بدأ الآن فصل جديد في تاريخ الشام. فصل مداده دموع ودماء، وصفحاته بطولة وفداء، فصل أوله هزيمة وأستعمار، وآخره استقلال وانتصار. وكان فصلاً عربياً عن تاريخ الشام، ما عرفت مثله مذ شرفها الله بالإسلام.

لذلك أصابت الناس صدمة فلم يصدقوا أن حكامهم صاروا غرباء عن دينهم ودولتهم. حكام أحانب لا لسانه لساننا، ولا عاداتهم عادتنا، ولا نحن منهم ولا هم منا.

لم يصدقوا أن الاستعمار<sup>(١)</sup> قد وصل إلى دمشق، التي لم تعرف من قبل استعماراً أوروبياً حتى في أيام الحروب الصليبية. لقد مدّ الله للصليبيين فكانت لياطليهم جولة، ثم كانت العاقبة للحق أظهره الله على يد البطل المسلم (التركي) نور الدين، والبطل المسلم (الكردي) صلاح الدين، وسيأتي الله يبطل مسلم يزيل باطل اليهود عن فلسطين، ويظهر عليهم المسلمين، إن رجعنا إلى الله وعدنا إلى التمسك بالدين. أقول: لقد حكم الصليبيون السواحي، وبعض مدن الداخل، ولكن الله حمى دمشق منهم، فلم نطأ ثراها حنودهم، ولا حكمها أمراؤهم.

---

(١) التشير والاستعمار من أساء الأضداد، وما هما إلا التكفير والحرب (وكتاب التشير الاستعمار) الذي لا أعرف مؤلفيه ولم ألقها، كتاب أعنى أن يقرأه كل مسلم.



وما يسميه السفهاء ما (الاستعمار العثماني) لم يكن استعماراً لأن حكم المسلم (ولو كان تركياً) لبلد مسلم (ولو كان عربياً)، لا يسمى في شرعنا حكماً أجنبياً، والمسلم لا يكون أبداً أجنبياً في ديار الإسلام. ونحن ما كرهنا الاتحاديين لأنهم أترك بل لأنهم حادوا عن جادة الإسلام، فأسأؤوا للمسلمين جميعاً، من عرب وأترك.

لقد كانت الشام أيام الشريف كأنها في عيس، هذا ما نراه نحن الصغار، لأننا لا نعلم من الأمور إلا ظواهرها، وفي ليلة الحرس - دار الدار، وتزداد فيها الأنوار، وتعلق المصابيح على كل حدار، وإذا نحن تيار الكهرباء ينقطع فجأة فيعم الظلام.

كنا كالحالم برى أن قد أتاحت له اللذات، وجعت له أربع المشتبهات، يأخذ منها ما يبتغي ورشاء، يصحح فحاة فلم يجد في بدء إلا الهواء.

لقد انتهت في الشام أيام الأعياد، وبدأت ليالي الحزن.

إن الرقيق المولود في قيد العبودية، والناشي فيها، لا يأسى على فقدان الحرية، لأنه ما عرفها ولا ذاق طعمها، إن الذي يأسى عليها أن يفدها هو الحر الكريم، الذي عاش عليها، ولم يألف غيرها. لذلك أبت على استاميين عزة نفوسهم أن يصدقوا ما يرون، وخيلت لهم أنهم في مقام سرور ما ينتهي الليل ويطلع النهار فيبدد ضوءه ظلام هذه الأحلام.

لم يصدقوا أن كافراً جاء يحكم المسلمين، ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً إلا إن خالفوا عن أمر ربهم، وتنكبوا صراط شريعتهم، فيكون ذلك تنبهاً لهم، فإذا عادوا إلى الطاعة والامتنال، عادت إليهم الحرية والاستقلال.

لقد استيقظت في نفوسهم عزة الإيمان، وموارث الجهاد، فأبوا أن يستكينوا وأن يذلوا، ونثرت فيها من أول يوم بزور<sup>(١)</sup> المقاومة والصدام،

(١) البرور من العامي الفصح كالبذور.

فكانت منها الثورة السورية، أروع الثورات بعد الحرب الأولى، وسيأتي إن شاء الله حديثها.

وما أصاب البلاد عامة أصابني أنا مثله:

وهل أنا إلا من غزيرة إن غوت غويت وإن ترشُد غزيرة أرشد  
وإن كان الشاعر قد جانبه الصواب فما يكون عذراً لك إن ضللت أن  
تحتاج بضلال الناس.

\* \* \*

لقد انتقلت من مدرسة إسلاميه، تقوم على باب الجامع الأموي،  
مديرها المرشد الصالح الشيخ عيد السفرجلاني إلى مدرسة حكومية في الحف  
الجليل مديرها رجل نصراني اسمه (ميخائيل).

أما دارنا فقد ارتفعت من حارة الدميحية إلى جادة عريضة في الصالحية  
من بيت صغير، طهره للشمس في بلد شتاؤها ستة أشهر. (وكذلك كانت  
أكثر المنازل الشامية) إلى دار واسعة تحيئها الشمس ساعة بزوغها من وراء  
الأفق الشرقي البعيد، وتودعها قبل أن تنزل من خلف الجبل فلا نحضر  
وداعها كما حضروا استقالاتنا. وهذا من النعم لأن الاستقبال لذة والوداع ألم.

وهذه هي الدنيا علو وانخفاض، وقوة وضعف، نهار مضيء بعده ليل  
مظلم، وشتاء ناك بالمطر، بعده ربيع ضاحك بالزهر، لا يدوم على حال إلا  
الكبر المنعالي. ثم تذهب الدنيا ويذهب هذا كله معها، ولا يبقى للإنسان إلا  
إحسان قدمه يرجو ثوابه أو عصيان يخشى عقابه، إلا إذا مات على الإيمان  
وأدرتته نعمة من غفر الرحمان، والله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون  
ذلك لمن يشاء.

اللهم اجعلنا ممن تشاء له المغفرة يا رب.

\* \* \*

المدرسة التي انتقلت إليها هي (أغودج المهاجرين) كما كانت تسمى أو  
مدرسة طارق بن زياد، كما تسمى الآن. ما تبدل شيء فيها إلا أنهم زادوا في

غرفها، ووسعوا مساحتها وأنها (وهي في الجادة الثالثة) لم يكن فوقها إلا جادنان، فبلغت الجادات اليوم أكثر من عشر، بل لقد صعد الناس في الجبل وفتحت الشوارع العراض، حتى بلغت الصخر، ثم التفت من حوله حتى وصلت إلى الذروة، وكان فيها (قبة النصر) وكانت علم دمشق، فهدمت أيام الحرب الثانية. وفي مكانها اليوم محطة الرائي (التلفزيون).

وكانت الضباع في تلك الأيام تنزل في الشتاء حتى تحول بين البيوت فيخاف منها الناس، فلما صعد الناس خافت هربت منهم الضباع. وهذه الجادات تعلو متوازية في الجبل، الأولى حادة ناظم باشا، التي يمشي (أو كان يمشي) فيها الترام، وناظم باشا أحد الولاة العشائين المصلحين هو الذي أنشا حي المهاجرين لما صار والي دمشق سنة ١٣١٣ هـ، وفي كتابي (دمشق) فصل بينت فيه تاريخ إنشائه، وهو الذي جر مياه عين الفيحة<sup>(١)</sup> إلى دمشق وجعلها سبلاً في الطرق والحارات، وله مآثر كثيرة، وفي كتابي (قصص من الحياة) قصة عنه عنوانها (النهاية).

وإن أنت قدمت دمشق في الليل، ونظرت من بعيد إلى هذه الحادات. من (الكسوة) إن كنت قادماً في البر أو من شرقي الغوطة إن كنت أتياً في الطائرة من الجو . . .

رأيت أضواء هذه الجادات، سلاسل من العقود، تلمع في جيد قاسيون. منظر ما رأيته مثله على كثرة ما سرت في البلاد ورأيت من المدن، ومهما أبصرت من جبال فما أظن أني رأيته أبهى ولا أجمل من قاسيون إلا جبل (أحد) لما رأيته أول مرة هفا إليه قلبي، وذكرت بلدي، على أن (أحداً) أفضل وأشرف، فضله قول رسول الله ﷺ: «أحد جبل يحبنا ونحبه»؛ وشرفته صلته بالرسول وبتاريخه، أجد تاريخ بشري وأطهره وأسماء.

\* \* \*

---

(١) تبع غزير الماء في قرية تبعد عن دمشق عشرين كيلاً، ثلثا ماء نهر بردى منها، وهي معقمة (بلا تعقيم) خالية من الجراثيم.

وكان من معلمي هذه المدرسة عالم فاضل من تلاميذ الشيخ جمال الدين القاسمي كان أكبرهم سنًا، وإن كان شيخنا الشيخ محمد بهجة البيطار، هو أكثرهم علمًا وأجلّهم قدرًا، هذا المدرس العالم هو الشيخ حامد التقي.

وكان منهم معلم آتاه الله بسطة في الجسم، وهيبة في العين، وكان من الضباط في الجيش العثماني، اسمه عبد الحميد عبد ربه، وأسرة (عبد ربه) معروفة في حي الصالحية، وكان رسامًا وخطاطًا، ولقد نسيت أن أقول إن (حسن الخط) كان من المواد المقررة في مناهج المدارس، وأول من علمنا الخط (في العهد العثماني) اثنان من شيوخ الخطاطين في الشام: الشيخ حسين البغجاتي، وسبّأى ذكره عند الكلام على رحلاتنا الكشفية في الجبال الشامية، وموسى الشلبي وهو خطاط مجّد (مودرن) ومن أقدم من اشتغل بالتصوير الشمسي (الفوتوغرافي)<sup>(١)</sup>، ثم الشيخ عبد السفرجلاني رحمهم الله جميعاً.

#### الرسم عن الطبيعة

والذي استعدناه من عبد الحميد بك (هكذا كان يدعى) هو الرسم عن الطبيعة. وأنا أقدر لأن أن أصور من أراه أمامي بالقلم ثم تركت ذلك لأنه لا يجوز.

والطريقة هي أن نمد يدك بالقلم، وتغمض إحدى عينيك، وترسم أبعد ما يرى صرى الرأس (مثلاً) من أعلاه وأسفله، وخطاً آخر لعارض الرأس. ولتصوير الجاني أسهل فتأخذ بعد ما بين أرنبة الأنف والأذن، ثم تأخذ مكان الأنف والضم والعين. ثم تدخ القياس وترسم بالخطوط القليلة سمات الوجه لميزة إن كان فيه سمة مميزة وأسايره وتجاعبده وتبرز الملامح العامة، وتدع التفاصيل لأن المطلوب في هذا النوع من الرسم أن يعرف الناظر إلى الصورة أنها صورة فلان.

عالي سكت دد بابي وصرت مدرّس رسم! استغفر الله فما أردت ذلك. ولا أفتي بجواره، ولكن أردت أن أقول إن دراستنا كانت أشمل وأكمل مما يدرس التلاميذ اليوم.

(١) من أجرياني (مونتيس) صمو، و(كرافي) تخطيطي رسم

ومن كان عندنا في هذه المدرسة معلم للخط هو اعظم خطاط ظهر في هذا القرن، أقرّر هذا وأنا أعرف أكابر الخطاطين: سيد إبراهيم، وحسين البابا، ونجيب هواربي، وغيرهم من مصر، ومكّارم والبابا في لبنان، وأعرف بعض كبار خطاطي العراق وأشهد أنّي ما رأيت مثل (مدوح)، ولقد كان (مدوح الشريف) أستاذاً عبقرياً في الخط، والذي تركه من آثاره شاهد عدل على ما أقول، ومن تلاميذه (بدوي) الخطاط العظيم وليس مثله ولا يدانيه، ومنهم (حلمي) حلمي حباب وهو أخي من الرضاع

كان مدوح يبني أفلام القصب لأربعين أو خمسين تلميذاً ويكتب لها (المشق) لنخط مثله، (وكان مقررّاً علينا تعلم خط الرقعة، والثلاث، والفارسي، والدبواني) ويصحح ما كتبنا كل ذلك في (الحصة) وهي أقل من ساعة.

كانت حياتنا حياة جد وعمل، ما كان فيها شيء مما يلهو به التلاميذ في هذه الأيام، ما كانت هذه المجلات المصورة التي لا تحصى عد، ولا كانت في الدنيا كلها إذاعة ولا رائي (تلفزيون)، وما كان يظن أحد أنه سيكون، وكانت في دمشق (كما قلت) سينا واحدة للدعاية الحربية، هي التي كانت في موضع المجلس النيابي، ثم أنشئت داران للسينا حقيرتان، (اليرهة) أمام بناية العابد، ثم (النصر) في سوق الخيل، لا يدخلها إلا سفلة الناس. وكانت صامتين لأن السينا الناطقة لم تكن قد عرفت. فكان من أراد لها قرأ هذه القصص الشعبية التي أشرت إليها عند الكلام عن المدرسة الحقلية. وكان أسوأ كتاب يضرب بسوئه المثل، ولا يكاد يوصل إليه، هو كتاب (رجوع الشيخ إلى صباه) وهو إن قيس ببعض القصص المترجمة التي تباع في كل مكان وبما فيها من وصف الفسوق والعصيان، إن قيس بها كان بالنسبة إليها (كتاب أخلاق).

ولو حدثتكم عن الكتب التي قرأتها وأنا في تلك السن، وأنا تلميذ في السنة السادسة الابتدائية لما صدقتم. وكنت أمضي يومي (إلا ساعات المدرسة) في الدار لا أجد ما أشغل نفسي، وأملأ به فراغ حياتي، إلا القراءة فإذا أنا أكملت كتابة (وظائفي) ومطالعة درسي، مددت يدي إلى المكتبة، وكانت لدينا

مكتبة حافلة فأسحب كتاباً فأفتحه فانظر فيه، فإن لم أفهمه أو فهمته لكن ما أسغته أعدته إلى مكانه، وقد رسخ في نفسي اسمه واسم مؤلفه، وإن أعجبني قرأته، وكان الذي أقرأه ينقش في ذاكرتي نقشاً لا تمحوه الأيام، وحديث المطالعات سيأتي مفصلاً إن شاء الله.

## في امتحان الشهادة الابتدائية خطبتي الأولى وتهجمي على الفرنسيين

مرت على دخولي هذه المدرسة ستان، وقد جاء الامتحان. والامتحان اليوم كتابي، يقعد التلاميذ على مقاعدهم، يعطون ساعة أو ساعتين، ليذكروا ويتذكروا، ويكتبوا على مهل، إن عطشوا طلبوا فجاءهم الماء، أو ما شاؤوا من حلول الشراب، وربما سمح لهم أن يدخنوا! إي والله... الطلاب يدخنون في الامتحان! عشنا حتى رأينا هذا بأعيننا، وقد صار مألوفاً (معروفاً) لا نملك أن ننكره، فينكروا علينا إنكارنا...

أما الامتحان الذي أحدثكم عنه في هذه الحلقة، وعن أمثاله فيما يأتي من الحلقات فقد كان شيئاً آخر.

كانوا يأتون في كل مادة تمتحن فيها بأكبر أسانذتها في البلد، يصطفون حول مكتب كبير، ويوضع أمامه كرسي يقعد عليه التلميذ الصغير، ويمد كل منهم يده إلى أغرب المسائل التي حفظها وأصعبها، يستخرجها من رأسه فيلقبها على رأس هذا الولد المسكين. لا يريد منه أن يجيب عليها، فهو يعلم أنه لا يقدر على الجواب، ولا يكتله به منهج رسمي، ولا عرف سائد، ولكن ليعظه عليه له فانه ولييهم ساعة اطلاع، وطول باعه. ويأتي الثاني بأشد منها صعوبة وأكثر غرابة، كأنه امتحان للأساتذة الفاحصين. يكون هذا في أول الامتحان، فإذا انتهوا من (عرض فضلاتهم) ألانوا وسهّلوا. لذلك كنا نندفع<sup>(١)</sup> الدخول في بداية الامتحان، فإذا هانت شدته، ووهت حدته، تراحنا عليه، ونسابقنا إليه.

---

(١) أي يدفعه كل واحد منا عنه

وكان هذا الامتحان بإشراف حاكم دولة دمشق الذي عينه الفرنسيون، وهو (حقي بك العظم)، وهو رجل كان يطالب بأن يحكم سورية الفرنسيون من قبل ميسلون، وكان يعلن هذا بلسانه وقلمه، ويقيم عليه أدلة يراها هو صحيحة، ولما جاءت لجنة (كرابن) الأميركية لتستفتي الناس عما يريدونه كان هو، خلافاً لرأي الجمهور الأكبر من السوريين، يطلب الانتداب الفرنسي، مثله في ذلك مثل توري باشا السعيد مع الإنكليز في العراق.

وفد تعجبون من اسم (دولة دمشق) وحتى لكم العجب، فقد أقيم الفرنسيون في سورية أربع دول لكل منها حاكم، وفي كل منها حكومة: دولة دمشق، ودولة حلب، ودولة الدروز، ودولة العلويين. وقد بدأ قال الشاعر

عما يزهدي في أرض أندلس      القاب «عنصد فيها ومعتمد  
ألقاب مملكة في غير موضعها      كالهريخي انتفاخاً صولة الأسد

دولة دمشق التي كانت على أيام الوليد بن عبد الملك تمتد من قلب فرنسا إلى آخر المشرق، وإلى أطراف الصين، وكانت الكلمة تخرج من الدار الخضراء، وراء جدار القبلة في الجامع الأموي، فتمضي شرقاً، وتغضي غرباً لا يقف أمامها شيء ولا يردها شيء، لا تلقى إلا الطاعة والامتثال في ثلث المعمور من هذه الكرة، في الأرض المسلمة التي تعيش (تحت راية القرآن)، كما عاشت معها يوماً تحت هذه الراية نصف أوروبا يوم كان البحر الأبيض المتوسط بحيرة إسلامية، وكنا بالإسلام سادة الدنيا. هذه الدولة تقلصت أطرافها، وتقطعت أوصالها، وتناكر أهلها وتباعدا قضاة وتضاءلت حتى صارت (دولة دمشق)!

وهذه سنة المستعمرين في كل زمان ومكان، عملهم قطع رابطة الإيمان بين المسلمين، وربطه بروابط الجاهلية، قانونهم (فَرَقْ نَسْءُ)، وعملهم كسر الحزمة عوداً عوداً، لما عجزوا عن كسرها جملة، ولكن لا تحافوا فالذي عقدته يد الله، لا تحله يد بشر، وقانون ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ لا ينسخه قانون (الوطنية) ولا (القومية) ولا الروابط الحزبية والعقائدية<sup>(١)</sup> البشرية، ولا نعيمه



وتضييعه الدعوة (الأممية) و(الإنسانية) فالإسلام حق بين باطلين: بين القومية وبين الأممية.

\* \* \*

لقد كان التلاميذ يقرعون من هذا الامتحان ويخشونه، ولكني كنت أترقبه متشوقاً إليه، وما خفت منه في يوم من الأيام.

هل تدرون أن فينا، في أعماق نفس كل منا خبايا وخفايا لا يعرفها صاحبها؟.

أنا الآن بعد هذا العمر، وهذه الشيبة لا أستطيع أن أزور أحداً من أصدقائي إن لم يكن معي رفيق، أما الذي لا تجمعني به صداقة وألفة تزول معها الكلفة فلا أقدر أن أزوره أبداً. لذلك أبتعد عن مجالس الأمراء والوزراء ولو كنت أشعر بالتقدير لهم، أو الشكر والعرفان. ومن أصعب الأمور علي أن يروري من أحسنه، ومن ليس بيني وبينه خلطة. ولقد اقترح من أيام أخ لا أعرفه في مقالة كتب في جريدة (المدينة) أن يقيم لي أهل مكة حفلة تكريمية، لم يدر (حرح الله على حسر مقصده خيراً) لم يدر أن الذي اقترحه اعتبره تعدياً، وافتدي مني منه محرّك نصف شهر، صدقوني.

ولطالما هربت من أمثال رأنا أعلم أن هربي مخالف للآداب الاجتماعية، ولأنه من الناس. وأي أفتح على نفسي باب الظن بأني قليل الوفاء وأني لا أقدر المعروف ولا أشكر عليه، أو أزي مسننل متكبر أو أنني حافت وجاف وما بي والله شيء من ذلك ولكنه ما دسّيت. على أي إذا صرت داخل المجلس وجذب غدي من الأخبار والقصص، والوارد ما يسلي الحاضرين ويسرهم ويمدحهم، ولكن الصعوبة في دخول المجلس

كيف نسأدر لا أفزع من الاستحاج؟ ولا أتهيب لقاء الجماعات من وراء المنبر؟ وكيف أحطب في مئة ألف بلا استعداد، فأرى ذلك أهون علي من حضور مجلس نفر من الناس.

(١) إذا جرى الجمع جرى العلم حازت النسبة إليه فبحوز أن نقول: (قوانين عمالية) و(فضايا طلابية) كما قالوا لمساءلة أصولية ومائدة ملوكية

كيف؟ الجواب فيه نصف العلم. ونصف العلم (لا أدري)!

كان هذا امتحان الشهادة الابتدائية، لم يكن يجمع له التلاميذ، بل كانت اللجنة تدور عليهم في مدارسهم. وكان لحضورها رجة وضجة، وكانت تسيقه الاستعدادات وتعد الاستقبالات، لأنها تجمع كبار رجال (المعارف)، وأساتذة المدارس، برياسة الرئيس الأعلى للحكومة المحلية. وهو دولة الحاكم! وهذه شهادتي الرسمية، لا تزال عندي، درجاتي فيها كلها عشر من عشر إلا السلوك والأخلاق، فقد كانت تسعاً عشر، أي أنني بلا أخلاق أو كما كانوا يقولون لنا أيام الحكم العثماني (أدب سر).

إذا عرف السبب . . . . .

ولكن إن عرفتم سببها، أدركتم أنها لم تكن وصمة عار بل وسام فخر. السبب أن فرنسا عزلت الجنرال غورو، وعينت مكانه الجنرال ريبان، الذي صار من بعد القائد العام لجيوش الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، وأمرت الحكومة بأن تخرج المدارس كلها بمعلميها وتلاميذها لاستقباله.

ولست أذكر الآن من هو المعلم الذي سنّ لنا سنة حسنة، هي أن يخصص يوم في الأسبوع للخطابة، يجتمع كل من في المدرسة. ويقوم أحد المعلمين، على هذا السلم الذي ترونه في الصورة<sup>(١)</sup>، والذي بلغني أنه هدم الآن وأقيمت للمدرسة عمارة ضخمة، يقوم فيخطب، ثم يتبعه أحد التلاميذ فيلقى كلمة ارتجالية.

وكان دوري في الكلام، يوم أعلن أمر الحكومة بوجوب خروجنا لاستقبال المفوض السامي الجديد.

المفوض السامي كانت له سلطة حكومة سورية ولبنان معاً، ومجلسيها النيابيين، والإشراف على قضائهما، أي أن سلطانه أضخم من سلطان رئيسي الجمهوريتين وحكومتيهما.

أندرون ما الذي كان؟ أنا أرويه بلا تزيد ولا مبالغة، أرويه وأنا

(١) انظر الصورة؟ في نهاية الكتاب.

أعجب والله منه، الذي كان أني ألقى خطبة حماسية بصوت سمعه كل من في المدرسة، وسمعه جيرانها، ومن كان في المسجد أمامها، قلت فيه: بأن الفرنسيين أعداء ديننا ووطننا، وإنه لا يجوز أن نخرج لاستقبال زعيمهم..

ولست أذكر الآن ما قلت، وما كانت خطبة بليغة الأسلوب رائعة البيان، ولعله كان فيها أخطاء وكان فيها لحن، فقد كانت أول خطبة لي، وكنت في الرابعة عشرة من عمري، في السنة السادسة الابتدائية. ولكن يظهر من آثارها أنها كانت خارجة من القلب، وكانت ممترجة بالصدق، لأن التلاميذ جميعاً، ولأن نصف المعلمين، رفضوا حضور الاستقبال.

وقد كانت العقوبات في المدرسة، هي التنبيه، فالتوبيخ، فالتكدير العلني، فالطرد المؤقت من المدرسة، فالطرد الدائم.

فعوقبت بالتكدير وكسر علامة الأخلاق والسلوك، وكانت هذه هي الخطوة الأولى التي صعدت بها المنابر، حتى لانت لي درجاتها، وألفتني أعيادها. وصرت (ولا فخر) أعد إن عد روادها.

\* \* \*

لا، لم يمتع التلاميذ وبعض المعلمين من استقبال الجنرال تأثراً بحطيتي، بل لأن التموس كانت كالقنبلة المحشوة البارود، لا يتفحصها إلا أن تسحب منها مسمار الأمان.

كأب الأمة كجبل البركان، إذا كان خامداً وطئت صخره بالنعال وقرعت بالمطارق، فتحسبه (إذ لم ينحرك) أنه قد مات، وإذا به يتفجر فيذيب الصخر. ويلهب الأرض، وتخرج منه النار التي تدمر كل شيء بإذن ربه.

\* \* \*

من الذي دفعني لإلقاء هذه الخطبة، وأنا لا أخاط أحد، ولا أعرف إلا بيتي ومدرستي والطريق بينها، حتى أنني لم أعلم إلا بعد ذلك التاريخ ستين طوال، بالثورة (الرائدة) التي قام بها إبراهيم هنانو في الشمال، ولا بثورة صالح العلي، لا لم يحركني أحد، ولم يوجهني أحد، إلا مشاعر الحرية والإباء التي كانت تملأ كل نفس في الشام، بل هي عزة المؤمن مهما خبت

نارها، فإن جذوتها باقية إذا هبت عليها ريح الإيمان توقدت وعلا لهيبها.  
كنت أمشي مرة (في تلك الأيام) في حي العمارة، قرب الأموي، وكان  
الناس لم يفيقوا بعد من صدمة الهزيمة في ميسلون، ولم يالفوا منظر جنود  
الفرنسيين، يطئون بنعالهم مدينة معاوية وعبد الملك وصلاح الدين، فكانوا في  
شبه رعب منهم.

وكان جنود الفرنسيين لا يمشون إلا جماعات، فمرت امرأة مسلمة تحبة  
بالملاءة، فتعرضوا لها، ووقفوا في طريقها، فجعلت تثلث مذعورة. تستعيث.  
والناس ينظرون إليها وإلى الجنود المسلحين، ولا يبيع كبير السن، قد اعترته  
حال كأنها الصدمة الكهربائية، فوقف بنادي بصوت تحس منه لدع البار،  
وفورة الدم.

ويلكم أما عاد فينا دين ولا شرف؟  
ثم يأخذ العصا التي يفتح فيها غلق الدكاك، ويقفز (وكأي، أرى  
مشهده الآن) ويهجم بها على الجنود المسلحين، وتستينط القوة المدحرة في  
أعصاب الناس، فيهجمون معه، يهجمون بأيديهم فيزعجرون من الجند  
سلاحهم، وينفذون المرأة...

ويرطن الجنود مستخذين متوسلين، يشيرون بالتوبة، فيدعهم الناس  
ينصرفون.

وكانت هذه كلها إرهابات الثورة الكبرى، وكانت إحدى الدلائل على  
أن هذه الأمة أمة محمد، قد تغلب على أمرها حيناً، ولكنها لا تدل أبداً.

\* \* \*

ولا أحب أن أودع هذه المدرسة قبل أن أشير إلى ثلاث حوادث،  
حوادث تنبه المدرسين إلى أن التلاميذ الصغار يراقبونهم ويسجلون حسناتهم  
وسئلتهم.

الأولى: أن معلم الخط (مدوح) كتب لكل واحد بقلم الرصاص  
السطور الثلاثة التي ستمتحن فيها، سطر الفارسي، وسطر الثلث، وسطر

الرقعة. ودعا كبار الخطاطين ومنهم نجيب هواويي، وكلفنا أن نمشي بأقلامنا على خط الرصاص، كأننا نحن الذين نكتب الحروف.

وقد نلنا الدرجات العالية، وإعجاب المدعوين، ولكنني أحسّ إلى الآن بالحجل من مشاركتي في هذا الغش، وأشعر بأن المعلم صغر في عيني.

والثانية: أتى تكلمت عن النصارى، فدعاني المدير النصاري، وكان عنده المعلم (عدوح)، فقال لي: ألم نسمع قول الله: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوْدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾.

فقلت له: أكمل الآية. فحقدتها عليّ.

والثالثة: أنه كان في المدرسة لوحة شرف، فيها أسماء من نخرج فيها. وعند صورة كل منهم درجته وعلامة أخلاقه وسلوكه، وكان اسمي فيها وعلامة السلوك تسع من عشر.

فلما عُيِّنَ معلِّمًا في هذه المدرسة سنة ١٩٣٥، وجدتُها عشرًا من عشر، فقلت للمدير: أما كانت تسعًا؟.

فقال: أعود بالله، أنت كنت مثال الخلق الكريم، والسلوك القويم. فتبسّمت، وارداد هبوطاً في نظري.

## في ثانوية «مكتب عنبر» ومرحلة خصبة وهامة في حياتي

حياتي كحياة كل إنسان: طريق طويل فيه مراحل، مرحلة تمثي فيها في سهل مسط. كل ما فيه مكشوف ظاهر، ليس فيه مجهول تشوق إلى معرفته، ولا غامض يحرف نخشى من لقائه، تمثي فيه أياماً فكأنك ما مثيت إلا ساعة. لأنه مثانه لماظر، بعيد عن المخاطر. ومرحلة تمثي فيها بين الجبال، تغلر حتى سبع الدروة، ثم تهبط حتى تصل إلى الحضيض. كلما دار بك اليادي نادت من حولك المشاهد، وربما رأيت الروضة المونقة والنبع الصافي، حه داب حمائل وعبر نجرني من تحتها السواقي والأنهار. وربما اعترضتك غقة، أو سلكت قدمه موحشة، ما تحنك إلا الجنادل والحجارة، وما حولك إلا حلاميذ الصحر، تشنهني فطعمه من ظل يفيك لذع الشمس، أو كناساً من ماء طقس، ساك أوار العطش فلا تخذ.

ربما فتحت نحت رجليلك حديد، أو طالع وحش مخيف أو ذئب كناسر، ورحيم فاصع طريق.

الأول مثال من يعيش في البلد الأمن، في العصر الهادي، السنة عنده كأنها يوم. يكون ابن خمس وأثنه من شبانه أيام، ما عاش إلا عشر سنين، وطمر النفس، ولكنه هامد الحس، خاسد الشعير.

والثاني مثال من يعيش في عهود الانتقال، في ظل الأحداث الكبار، اليوم عنده من بادل الأحوال كأنه سنة، يكون ابن خمس عشرة سنة (وقد ناهتها أما في الأيام التي أتكلّم عنها) وكأنه من كثرة ما رأى وما شاهد ابن

أربعين سنة، مستوفز الحق، مشدود العصب، كله عيون مفتوحة، وذهن حاضر.

وقد تجوز في هذا الطريق الطويل بسوق تتزود منها الزاد لسببك كله، أو نجد من أهلها من يهديك ويرشدك في مسبك: عالماً ناصحاً يقوم اعوجاجك ويحسن توجيهك، أو تجد جاهلاً أو غشاشاً بصرفك عن الطريق المستقيم، ويعدل بك عن الحادة الموصلة، فيضلك بدلاً من أن يهديك. وهذا هو مثال المدرس الصالح المصلح، والمدرس الفاسد الفاسد.

ولقد وصلت الآن إلى المرحلة التي كان لها أعمق الأثر في نفسي، وفي فكري وفي سلوكي، مرحلة (مكتب عبس)، أحفل مرحلة بالأحداث الخاصة في حياتي، والأحداث العامة في حياة بلدي، فيها أقيمت أسانذة وقرأت كتباً، كان لهم ولها أثر في دنياي وفي آخري، وفيها كان أكرم معطف في طريق شمري وهو موت أبي، وفيها واجهت الحياة وأنا لم أستعد لمواجهة، وخضت معركة وأنا لم أتسلح لخوضها، فعملت معلماً واشتغلت أجيالاً، وحاولت أن أكون تاجراً، ثم تداركتني رحمة الله فعدت إلى ما خلقت له وهو العلم والأدب.

وفيها كانت (نهضة المشايخ)، وفيها كانت (الثورة السورية). وفيها ابتدأ (النضال للاستقلال)، وفي آخرها صرت من قادة الشباب في هذا النضال، وصرت أكتب وأخطب وغدا اسمي معروفاً في البلد.

هذا هو الموجز يقول المذيعون، وهاكم تفصيل هذه الأعمار

\* \* \*

مواقف كثيرة ما حدثتكم عنه في هذه الذكريات كنت قد كتبت فيها مقالات مفصلة، أشرت إليها ولم أنقل شيئاً منها، لأنها منشورة وما أريد أن أعيد على القراء كلاماً سبق أن حدثت به، بل أريد أن أسوق إليهم كلاماً جديداً، ليأتي الحديث مؤثلاً متسفاً، ولكنني أستاذهم اليوم، فأسرق فقرات من مقدمة كتاب (مكتب عبس) الذي ألفه الأستاذ ظافر القاسمي، ذلك لأن كاتب المقدمة يحمل اسماً مثل اسمي، وأراه دائماً معي كلما وضعت المرأة أمامي، وقد علمت أنه يسمح لي أن أسرق من مقدمته، ولأن الكتاب لم ينشر إلا في مدى ضيق،

وذلك أن الأستاذ ظافراً القاسمي ترك مطابع الشام، وفي الشام مطابع قديمة وعظيمة، ومطابع مصر، وهي أقدم وأعظم، واختار (المطبعة الكاثوليكية) في بيروت، فأخرجت الكتاب إخراجاً بلغ في فن الطباعة الغاية، ولكن من تحت... حتى أنني لم أر (وقد رأيت آلافاً من الكتب) غلاف كتاب هو أفصح شكلاً، وأبعد عن الذوق، من غلاف (مكتب عنبر) الذي أخرجته (المطبعة الكاثوليكية) في بيروت!

ومع ذلك فقد ترك مطابع الشام ومطابع مصر، واختارها!!

\* \* \*

أقول. إن (مكتب عنبر) كان الثانوية المركزية في سوريا، كان مدرسة وهو في الحقيقة أكبر من مدرسة، كان منبع الوطنية، كان منار العلم، عاش من أواخر القرن الذي مضى، إلى أوائل الحرب الثانية، وهو يضم جمهرة المتعلمين في الشام، فكان يمر عليه كل واحد منهم يدخل إليه، ثم يخرج منه فيعمل في مدارج الحياة، أو يغوص في أوحالها، حتى ما تكاد تجد كبيراً في دمشق، ولا ذا منصب، ولا نادياً في علم أو فن، إلا وقد جاز يوماً به (مكتب عنبر).

كان من تلاميذه رجال لو عاشوا إلى الآن لكان عمر أصغرهم مئة سنة أو ثلث الدين يدعونهم رجال الرعيل الأول، وتسلسلت القوافل من بعدهم تجوز كلهم هذه الواحة الضليلة، تستمع زهرها، وتحبني من ثمرها، قبل أن توغل في صحراء الحياة

فإذا أردتم أن تشقوا الآن رباعاً، وتعملوا بعد فقدها بذكراها، ففتشوا كل من تلقونه من روادها، علَّ سعة منحة من وردها، أو لمحة من عهدها. سائلوهم جميعاً عن (مكتب عنبر) فإن لدى كل واحد منهم طراً من حديثه، وفضلاً من تاريخه. فامسكوا بأطراف الأحاديث، تحييء في أيديكم فصول الكتاب، وهيئات هيئات، بعدما فات منها ما فات، ومات منهم من مات.

لقد ذهب من رفاقي أنا (دع عنك قوافل مرت من قبلنا) من لا أستطيع الآن حصر أسمائهم.



لقد أراد أستاذ أساتذتنا محمد كرد علي أن يشجع طائفة من شعراء الطلاب من زملائنا، فاختار سنة ١٩٢٥، أنور العطار، وجميل سلطان، وركبي المحاسني، وعبد الكريم الكرمي (وهو أبو سلمى)، وأقام لهم حفلاً في المجمع العلمي بحضور أساتذتنا: سليم الجندي، وعبد القادر المبارك، والداوودي، والقواس، والبزم، وألقى الطلاب الأربعة قصائد جياداً، لو نشر مثلها الآن من بعد من كبار الشعراء لاستحسنت منه، ولا أزال أحفظ مطلع قصيدة أنور، وكان عنوانها (الشاعر):

خلياه ينح على عذباته ويصف من دموعه آياته  
أين هؤلاء الطلاب الشعراء؟ وأين من شجعهم؟ وأين من حضر  
الاحتفال بهم؟ لقد ذهبوا جميعاً. ذهب أساتذتنا كلهم، وذهب الكثير من  
إخواننا الذي كانوا يقرأون عليهم، رحيم الله ورحمنا معهم وختم لنا  
بالحسن.



لقد عشت في هذا المكتب ست سنين كانت أحفل سني حياتي  
بالعواطف، وأغناها بالذكريات، وكانت لنفسي كأيام البناء في تاريخ الدار،  
لو عاشت الدار بعدها ألف سنة لكانت كلها تبعاً لهذه الأيام، التي يرسم فيها  
المخطط، وتحدد الغرف، ويرسى الأساس، فكيف أدخل ست سنين بطولها  
وعرضها في عشر دقائق، هي مدة قراءة هذا الفصل، كيف أجمع البحر في  
كأس، وأحصر الدنيا في صندوق؟ لقد عشت فيه من الصف السابع إلى الثاني  
عشر، ما تأخرت ولا رسيت، ولكنها لم تكن ست سنين إلا بحساب التفويم  
المعلق على الجدار، وهل يقاس عمر الإنسان بالأشهر والأعوام؟.

إن ليلة الصيف تمتد في تقدير عقارب الساعة عشر ساعات، سواء في  
ذلك ليل العاشق الناعم بالوصال، وليل السجين المكبل بالأغلال، مع أن ليلة  
الوصال في الحقيقة لحظة، ولحظة العذاب دهر طويل؛ أليست هذه هي نظرية  
النسبية؟

لقد سرقها (أنشتاين) من ابن زيدون حين قال:

إن بطل بعدك ليلى فلقد بُتُّ أشكو قصر الليل معك  
ست سنين، ولكن كانت هي العمر.

\*\*\*

كان (مكتب عنبر) في دمشق القديمة، في محلة تسمى الخراب، في  
السوق الطويل، الذي يصل باب الجابية، الذي طالما ذكر في تاريخ الفتوح،  
بالباب الشرقي الذي دخل منه خالد بن الوليد أعظم قواد التاريخ القديم،  
يوم الفتح: فتح دمشق.

وقد ورد في الأثر بأن عيسى عليه السلام ينزل في آخر الزمان عند المنارة  
البيضاء، عند هذا الباب.

وهذا السوق، هو الشارع المستقيم المذكور في التوراة، أما اسم  
الخراب، فلاز تيمورلنك، قد خرب هذا الحي مع ما خرب من دمشق،  
وكثيرا ما رأيت الناس يحفرون في الأرض، فيظهر بلاط الدار التي هدمت،  
وتبدو البركة التي كانت فيها، على عمق عشرة أذرع.

ولو أن حديدات الحرب في هذه البقعة من دمشق، لظهرت أربع مدن  
أو خمس، بعضها مبني على نقاص بعض، وقد رأينا مثل ذلك في بابل، وفي  
(أور) مدينة سيدنا إبراهيم قرب (الناصرية) في العراق.

وما أرادوا إصلاح درج الجامع الأموي من جهة الشرق ظهر تحته بناء،  
ولو أنهم ناعوا الحفر (ولا أشير بذلك ولا أحبه) لوجدوا تحت الجامع  
الأموي. بناء آخر، كما وجدوا في الجامع الكبير في بيروت من نحو ثلاثين  
سنة.

\*\*\*

كان مكتب عمر هو الثانوية الوحيدة الكاملة في سورية، حتى أن طلاب  
حلب إذا نالوا (البكالوريا الأولى) قدموا دمشق فأتوا الدراسة فيه، ومن هؤلاء  
الاستاذ أسعد الكوراني (وكان قبلنا سنة)، والشيوخ مصطفى الزرقا (وكان بعدنا  
سنة) وإن كان أكبر مني سنًا، وكان معنا رفاق من حمص وحماه وحوران،

وكانت رابطة مكتب عتبر، تشدهم جميعاً.

وإن من المدارس ما يجعل بين طلابه صلة أقوى من صلة الزمالة،  
كالأزهر في مصر، ودار العلوم، وندوة العلماء في الهند.

## في مكتب عنبر

أرأيت الماء الذي ينزل من الأنبوب قطرة قطرة؟ بملاً كأسك في ساعة.  
أما إن كان يخرج منه بقوة واندفاع، فإن الكأس لا تمتلئ أبداً، لأن الماء ينبو  
عنها، ويتطاير منها، فلا يستقر منه شيء فيها.

هذا مثالي لما قعدت أكتب عن المدرسة التجارية، وحين أقعد الآن  
لأكتب عن مكتب عنبر.

كانت دكرياتي هناك قليلة فلم أجِد منها ما يصلح لمقال، وهي اليوم  
كثيرة جداً لا أدري ما الذي أدعه منها، وما الذي أختاره لهذا المقال.

مكتب عنبر، في دار شامية جميلة، في مدخلها رحبة فسحة فيها  
شجرات كبار، حوها رواق تحته مقاعد، كنا نلعب في وسط الرحبة أو نستريح  
على المقاعد من حولها، فإذا جُرُنْها رأيت الدار، في صدرها الإيوان، قد ازينت  
جدرانها بعنبري النقوش والألوان. قد قام من حول بركتها (الشمشير)،  
وعرشت على جدرانها دوالي العنب سلع السطح والياسمين والمليسا، وأبهى  
وأعطر ما خلقه الله من النبات. فتحمس حين تدخلها أنها تضحك لك.

لقد درت عرفها كلها وأنهاها. لأن كل غرفة منها لطلاب صف من  
الصفوف، وفي كل غرفة منها دكري، وفي كل زاوية قطعة من حباتي التي  
ذهبت ولن تعود. . .

فما الذي أستطيع أن أذكره الآن، وما أذكره كيف أقدر أن أثبته على  
الورق؟

إن أجل آثار الكاتب أو الشاعر هي التي لم يكتبها.

ومتى كانت الكلمات تسع العواطف والأفكار، بل متى كانت تسجل كل مشاهد الكون، فضلاً عن مشاعر النفوس؟.

أنقدر أن تسجل ألوان الغروب حتى لا يموت فارى قصيدتك - أيها الشاعر - أو ناظر لوحتك - أيها الرسام - شيء منها؟.

كم قال الشعراء وكم كتب الكتاب في (الحب)، فهل أحاطوا بعد - الحب، هل أدركوا أسرار الجمال؟.

هذه الكلمة المؤلفة من حرفين اثنين - حاء التي تعبر عن الحنان - والباء الساكنة التي ترى الفم وهو ينطق بها مجموع الشنبر كأنه متهيء لقلة!

هل تحيط كلمة (الحب) بكل أشكال الحب. الأم تحب ولدها، وهذا يحب من الشعراء البحري، والثالث يحب من المذمومين، والرابع يحب ركوب البحر، والخامس يحب الفول المدمس بالزيت لا بالسمن.

... وفيس يحب ليل، أفهذا كله (حب) واحد؟ وحب الله الذي هو جوهر الإيمان أترونه يشبه ما ذكرت من أنواع الحب؟

والجمال؟ جمال الطبيعة، وجمال البلاغة، جمال الشيخ الرمور، وجمال المرأة الحسنة، هل هو (جمال) واحد؟.

ولو جئت بمئة جميلة، لوجدت مئة جمال، كل له طعم، وكل له لون، وكل من نوع، وما عندنا لهذا كله إلا كلمة واحدة، لذلك نعلم إلى الأوصاف فنقول: هذا جمال وديع، وهذا وحشي، وهذا شهواني، وهذا ما لست أدري.

إن لغات الأرض تعجز عن التعبير عن مشاعر النفوس، فكيف نريد منها أن تعبر عن عالم (ما وراء المادة)، عن (عالم الغيب)؟.

عفوكم يا أيها القراء، لقد ذهبت مع خواطري، وابتعدت. لقد ابتعدت كثيراً عن موضوعي.

\* \* \*

سألني الإخوان عن (عنبر) هذا، الذي سميت باسمه هذه المدرسة العظيمة، التي كانت وحدها فصلاً كاملاً من تاريخ الشام الحديث، ما عنبر هذا؟.

فضحكت، لأن عنبر لم يكن عبقرياً ولا عظيمًا بل هو اسم الرجل الذي بنى هذه الدار، وهكذا ترون أن الشهرة، وبقاء الاسم، ليسا دليل عظمة الرجال.

في جذّة حي من أفخم أحيائها الجديدة، اسمه (حي عنيكش)، فاسألوا من (عنيكش) الذي كرمناه فسمينا باسمه حياً كاملاً، والناس إن كرموا عظيمًا سمّوا به شارعاً واحداً؟.

وباب إبراهيم، من أشهر أبواب الحرم ما سمي باسم سيدنا إبراهيم الخليل، كما ظن من أطلق اسمه على الشارع، بل باسم خياط كانت (دكانه) عند هذا الباب

وأمركا، ما سميت باسم كريستوف كولومبس الذي اكتشفها بل باسم بحار اسمه (اميركو فيبوسيو) كان من أوائل من أبحر إليها بعد اكتشافها بخمس عشرة سنة.

أسمونها مصادفات؟ أم هي حظوظ؟ أم دليل على أن الشهرة ليست مقياس عظمة الرجال.



لما أرسل إليّ الأستاذ ظافر أصول كتابه (مكتب عنبر) لأكتب مقدمته، كنت في الرياض، في أول سنة قدمت فيها المملكة، هذه المقدمة الأخيرة سنة ١٣٨٣ هـ تركت محكمة النقض وكنت مستشاراً فيها، وجئت، ولم أكن أعرف أحداً، ولا يكاد يعرفني أحد، فكنت من السأم والملال، كمن كان في ظلام السنما، فطلع عليه الفلم، يعرض صور عالم كان يوماً دنياه وكانت فيه حياته.

لقد حركت تلك الأصول سواكن نفسي وبعثت لي أحداث أمسي،

وهزنتي هزاً حتى لقد أحسست كأن قد عادت لي مواضي أيامي . . .  
. . . وهل تعود الأيام الماضية ١٢ لا ما تعود، ولكن أنا الذي عاد  
إليها على جناحين من ذكرى وخيال، لأدخلها مرة ثانية، فأعيش فيها في  
حلم ممتع فتان.

إن مدرسي الإنشاء، ومخبري الصحف ومذيعي الإذاعة، لا يكادون  
يلقون أحداً حتى يسألوه: ما هو شعورك؟  
كلمة تقال وتردد، لا السائل يدري سم يسأل، ولا المسموع يدري بم  
يجيب؟.

ولكني إن سئلت عن شعوري وأنا أتحدث عن (مكتب عنبر) بعدما  
فارقت من ثلاث وخمسين سنة<sup>(١)</sup>، لقلت إنه كشعور البدوي العاشق الذي طالما  
أنس بقاء المحبوب على غفلة الرقيب، في طلال الخيمة المنفردة ساعة  
الأصيل، وعلى طرف الغدير الصافي عند العشية، وعلى سفح التل القريب في  
ضوء القمر، والليل يغلف بسكونه همسات الغرام، ليالي الحى مائلات أمامه لما  
رأى حبيبته معه، واللذائذ كلها في يده، وماضيه ومستقبله قد احتونها اللحظة  
الحاضرة، فلم يعد بذكر ما كان، ولا يفكر فيما يكون . . . وكذلك يصنع الحب  
بالمحبين . . . . .

ثم يتفرق الشمل الجميع، وينأى الحبيب القريب، ولا يبقى من هذه  
الحياة . . . إلا (الأطلال) الموائل، في القفرة الخالية، قد حفر العدير، وهذت  
الخيام، ورحل الأحبة.

ماذا يكون شعور هذا (البدوي العاشق) حين يجيئه من يحمل إليه رسالة  
من ليلاه. (ولكل محب ليل . . .) فيها وعد باللقاء، وبشارة بالوصول.

كذلك كان شعوري.

غير أن (البدوي) يأمل أن يرجع إليه الحبيب، وتعود أُمسيات اللقاء،  
وأنا أعيش بلا أمل ولا رجاء.

---

(١) كنت هذا الكلام سنة ١٣٨٣ هـ

وهل يعود لي أمسي الذي مضى، وشبابي الذي ولى، ورفاق الصبا، وإخوان الصفا، حيث كنا نعيش في دنيا لا تعرف الغش ولا الخداع، ولا زيف الصداقات، تلك حياة الطفولة الطاهرة فهل تعود؟:

ولست عشيات الحمى برواجع عليك ولكن خل عينيك تدمعا

كان موعد دخولي (مكتب عنبر) كما قلت لكم هو سنة ١٩٢٠. ولكني لم أدخله إلا بعد ذلك بثلاث سنين. ما قصرت عنه سني، ولا عافني عنه كسلي، ولكن طال إليه طريقي.

إني لأذكر من رفاقي فيه سعيد الأفغاني، وهو اليوم مرجع في قواعد اللغة العربية. نحوها وصرفها، وإن كان أبوه على صلاحه وتقواه، لا يحسن العربية.

وما هذا عجباً، فإن سيويو شيخ النحو، ومؤلف (الكتاب) كان فارسياً، وإن كان كتبه معهوداً أكثره يلفظ رجل عبقرى كان من أذكى أذكاء البشر هو (الخليل).

وشيح الحق أبو حنيفة كان فارسياً، وشيخ الحديث البخاري، وشيخ الشعراء المؤلدين بشار. وأقوام لا يحصهم العد.

ومن رفاقنا الشعراء: أنور العطار، وأبو سلمى، وزكي المحاسني، وجميل سلطان، ومن كان سابقاً لنا سليم الرزكلي، ومن جاء بعدنا أجمد الطرابلسي.

ومن رفاقنا الأطباء: منير شوري، وبشير العظمة، ورشاد فرعون، وهو رفيقهم في كلية الطب (شفاه الله)، وبصرة الشلق، وعبدالحليم العلبي، وعبد الستار الأول. كان قبلنا بسنوات، والثاني: كان بعدنا بسنوات ونحم الدين الحدي، وأحمد الأسرد

ومن رفاقنا النحاة والفقهاء والمحامين: مصطفى الزرقا، وأسعد الكوراي، ومحمد الجبرودي، ورضا العظمة، وعبد العظيم الباجقني.

ومن رفاقنا في المدرسة: محمود مهدي الأسطبولي، وخالد بكداش،



وعمد المبارك (رحمه الله) وكان معدنا بثلاث سنوات، ومحمد كمال الخطيب، ومظهر العظيمة (رحمه الله)، وطل ابطال الرياضة محمود البحرة، وجمال الدار، ووجيه السمان، ونظيم الموصلي، وأحمد الفتيح، وأكثر هؤلاء ولى منصب الوزارة، وأتور الشلاح.

لا، لا أستطيع أن أعد الآن أكثر مما عدت وإن كانت أسماؤهم في ذاكرتي وذكرائهم في نفسي، ولكن المدرسات تتع فاني (بداعي الأفعال)، فالشيء تراه أو تسمعه يذكرك بتسببه أو ينقصه أو بما يتعمل به. مستأنى إد شاء الله خلال الحديث أسماء من لم أذكرهم الآن وأخبرهم فلا يعتب علي من أغفلت اليوم اسمه، أو يعتب ولده أو حبيبته.

أما أساتذتنا، فالحديث عنهم في الحلقة التالية إن شاء الله. ومستمرون أنهم اختاروا لهذه المدرسة الواحدة، لكل مادة كبار اسانديتها في البلد، على كثرت المدارس اليوم وازدادت. هبطت درجتهم صار يدرس فيها أصحاب شهادات، وقد كان المدرسون على عهدنا أصحاب علم، حذروا في تحصيله أعمارهم، وأحيوا فيه لياലهم، وأتعبوا فيه أبصارهم، وعصار كل منهم هو المرجع في المادة التي يدرّسها.

كانت المدارس كالبر صيفة الفوهة، ولكنها عميقة خفية، فصارت كالبركة الضحلة واسعة الرقعة، لكنها قليلة العمق.

## أساتذتي في مكتب عنبر

فعدت لأكتب هذا الفصل، هجاءني الجرائد التي يتفضل أصحابها بإرسالها إلي. وهي: المدينة، وعكاظ، والرياض، وقصاصات يبعث بها إلي أخي ناجي، من احرائد التي لاتصل إلي وهي: الشرف الأوسط، والجزيرة، والندوة.

وحدثت في (الشرف الأوسط) المرافعات العظيمة التي ألقاها المحامون عن المتهمين بقتل السادات، وحدثت في (الندوة) مقالة جيدة جداً عن حرية إحارة العقارب، وما تحره من متاعب ومشكلات.

ووجدت أحباء المسلمين المعذنين في أفغانستان، وفي فلسطين، ومسلمين آخرين أشد منهم ابتلاء، مع صدور أعظم خطراً، وأشد كفراً، ولكن لا يسأل عنهم أحد، ولا تمتد إليهم يد عرب أو مدد.

لما قرأت هذا فترت عزيمتي، وبعثت القلم في يدي.

أما أعود لأكتب ذكريات لا نهم أحداً، والنار تشتعل في كثير من بلاد المسلمين، والرباء يسري، والعمم يعم؟

للمسلم مصير يفكرون فيها، ويتحدثون عنها، وأنا أسره ما وقع لي من قبل حبس؟

لقد كنت إن أتم بالمسلمين خطب، أحمل سلاحي، وأسرع إلى الميدان، فإني صرت من القاعدين؟ لم يكن سلاحي الحسام والسنان، وإنما كان القلم واللسان، والضال بالمقال مثل القتال بالتصال والبال.

وفكرت أن أقطع سلسلة هذه الذكريات، ثم رأيت أنها لا تخلو إن شاء الله من نفع، وأنها ربما ذكرت ناسياً، أو أوقدت من العزائم خائباً، ورأيت أن مثلي في سني وكبري، لا يطلب منه مثل الذي يطلب من الشباب، وأن لكل موظف وعامل حقاً في التقاعد فلماذا أحرم أنا هذا الحق؟.

فهل ترون في هذا عذراً لي إن أصعت وفنكم، وسألت صحف مجلتكم، بحديث ذكرياتي التي لا تهم أحدا منكم؟. أترويه عذاراً أم أنا أعلل النفس بالأوهام؟.

ولو كانت ذكريات ملك أو أمير، أو قائد كبير، لغذت التاريخ بإظهار الخفايا وكشف المخبات، ولكنها ذكريات واحد من الناس، كل الذي عمله أنه قرأ وأفرد، وأنه كتب وخطب، وما أكثر الكتاب والخطباء، إني لأخجل حين أشغل القراء بنفسي، لذلك أفر إلى وصف أحداث البلد وأخبار الناس وهذا ما لامي عليه رئيس التحرير، لَوْح باللوم وَلَح، ولكنه ما صرَّح ولا وضح.

أنكلم اليوم عن أساتذتي في مكتب عنبر، لقد كان أول درس حضرناه فيه للشيخ عبد الرحمن سلام، البيروتي، فاستقبلنا رحمه الله بخطبة رنانة أعلل فيها أنه غدا ذلك اليوم مدرساً للعربية حقاً، ذلك أن من كان قبلنا قد درسوا في العهد التركي، فنشأوا (إلا من عصم الله) على ضعف بالعربية، ومن كانوا معنا درس أكثرهم في العهد العربي، فكانوا أقوى ملكة، وأقوم لساناً.

رحمة الله على الشيخ سلام، فلقد كان نادرة الدنيا، في طلاقة اللسان وفي جلاء البيان. ولقد عرفت بعده لُسن الأدياء، ومصاقع الخطباء، فما عرفت لساناً أطلق، ولا بياناً أجلى، ولست أنسى خطبته عندما أطل من شرفة النادي العربي قبل يوم ميسلون، على بحر من الناس بموج موجان البحر، قد ملأ ما بين محطة الحجاز، والمستشفى العسكري (الحسنة خانة) في بوابة الصالحية<sup>(١)</sup>

---

(١) المحطة نافية وهي من أجل أبنية دمشق، وأحتها الصغرى في المدينة، أما المستشفى فقد قامت في مكانه عمارة (الأركان)

وسراي الحكومة<sup>(١)</sup> وحديقة الأمة (المنشية)، وكبر تكبيرة رُدَّتْها معه هذه الحناجر كلها، وأحسننا كأن قد رُدَّتْها معه الخمائل من (الخطوة)، والأصلاذ من (قاسيون)، ثم صاح صيحته التي لا تزال ترن في أذني، من وراء اثنتين وستين سنة،<sup>(٢)</sup> حتى كأنِّي أَسْمَعُه يصيح بها الآن: (غورو، لن تدخلها إلَّا على هذه الأجساد)

ولكن غورو دخلها!.

دخلها لما حسبنا أن الحرب تكتسب بالحماسة وبالخطب، ثم خرج قوم غورو، لما عرفنا كيف تكتسب الحروب.

غورو هذا وقف على قبر (صلاح الدين الأيوبي)، الذي غلب أوروبا كلها مرتين: مرة بسيف القتال، ومرة بنبل الفعال، وقف يفاخر عظامه ميتاً، وقد كان قومه يتجمعون من بأسه حيّاً، ولا يفاخر الأموات إلَّا الجبناء، يقول: يا صلاح الدين لقد عدنا

حسب من عرووره أنه ملك الشام إلى الأبد، كما يحسب هذا المغرور المأفون (بيغن) أنه ملك القدس إلى الأبد.

فأين من يذهب فيبحث عن حفرة غورو، فيقف عليها ليرد عليه بالحق كل منة التي قالها بالباطل، ليقول له: كلا، بل لقد طردتم!

وليسعد من الآن من سيفرم عدا على حفرة (بيغن) ليقول له: أين عروورك، وأين ادعائك؟ إن القدس قد رجعت على رُغْمِكَ إلى أصحابها المسلمين

نعم إنهم مسترحح إليهم، إن رجعوا هم إلى دينهم، ولقد بدت بوادر الرجوع إلى الدين

لقد أقام الشيخ سلام معنا أشهراً ثم عاد إلى بلده، فعُيِّن أميناً للفتوى في لسان، وجاءنا من بعده الأستاذ سليم الجندي ولما أصدرت أول كتاب لي سنة ١٩٣٠ وهو (الهينميات) أهديته إلى روح المنفلوطي، سيد كتّاب العصر،

(١) وهي مافية أما شارع معداد ولم يكن قد فتح (٢) كانت هذه الخطبة أوائل سنة ١٩٢٠

وإلى علمي العربية: الجندي، والمبارك.

لقد ماتا وما أعرف تحت قبة القللك، أعلم منها بالعربية وعلومها، ولقد كانا أشد المدرسين تأثيراً في تكويتي اللغوي والأدبي، رحمة الله عليهما وعلى أسانذتنا جميعاً.

\*\*\*

أما المبارك فقد كان الإمام في اللغة، والمرجع فيها، فبد أولادها وجمع شواردها، وحفظ شواهدا، وكان أعلم العرب بالعرب، عريف أيامهم<sup>(١)</sup> وروى أشعارهم، وكان المفرد العلم في ياته<sup>(٢)</sup>، لا أعرف سطوراً له في العلماء، تحسّ إذ تجالسه وتسمع منه كأن الأصمعي وأباً عبدة قد ثملاك في جبته، وكأن ما كنت تقرؤه من أخبار الرواة والحنماظ، قد عاد لك حتى رأيت بالعيان.

لقد كثر اليوم الأسانذة من حملة الشهادات، وأصحاب الدكتوروات ولكن ذلك الطراز لم يعد له وجود.

أما درسه، فما حضرت، على كثرة ما حضرت من الدروس، درساً أكثر منه حياة، وأبقى في نفس سامعه أثراً، إن نعمته لا تزال إلى اليوم في أذني وكلماته في قلبي.

كنا ندخل الصف في مثل (العرضة): أصوات عالية متداخلة، وضجيج صاخب مزعج. وكان المدرسون يجدون مشقة في إسكات المتكلمين، وتهدة الصاخبين، فإذا كان درس الشيخ المبارك، رأى التلاميذ الباب قد انفرج مصراعاه، وبدا من بينها جبين عريض، من فوقه خط أبيض، ثم ظهر وجه الشيخ وعمامته، وجلجل صوته الذي كان يعرف من بين أصوات الشر جميعاً بضخامته وجهارته، بصدر بيت من الشعر، فيسكت الطلاب ليسمعوا، فيخطو الخطوة الثانية فيكون في الصف (أي الفصل) ويتم البيت، ويشرع بالدرس.

(١) أيام العرب حروبها.

(٢) يقال. هو من ناة فلان، إذا كان من أشكاله وطرأته.

والغريب أنه لم يكن بدرسنا العربية بل الفقه، يقرئنا (مراقب الفلاح شرح نور الإيضاح).

هذا مثال من الكتب التي كنا نقرؤها في السنة التي تلي سنة الشهادة الابتدائية، وهو كتاب أحسب أنه لو قرر اليوم لطلبة الجامعة لشكوا من صعوبته.

ولم يكن الشيخ يقتصر في درسه على الفقه، بل كان فيه مع الفقه تفسير وحديث وقواعد أصولية يسوقها بعبارات موجزة بليغة، يلقيها ويرددها ويكتبها بخط الثلث، على اللوح (السبورة) بعرض الحوارة<sup>(١)</sup>، وكان يتخذ لكل شيء ضابطاً، حلة موجزة تجمع الأحكام، ونسهل على اللسان، ولا تذهب من الأذهان.

ولطالما دلنا على كتب، قرأناها وانفعت بها، وهي رأس مالي في العلم والأدب ولولاه ما سمعت بها.

ثم درسنا الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية، لقدري باشا، فكان يشرحه ترحح عجيبة، فحل لكل حكم من أحكام الزواج والطلاق (قصة...) يولفها كما يولف الأديب قصته، ويجعل لها قواعد تحفظ فلا تنسى، مثالها (لا تخلو زواج من عقر أو عفر). أي لا بد من مهر في النكاح، أو حد في

الطلاق، ويصف أمكنتها، ويشرح ما قيل فيها، ويدل على مراجعها، فكاننا كنا فيها.

وكنتم سوسهم استيعاب الثروة العطشى ماء المطر، وكان يدلنا على الكتاب فأسرع إلى ورائه إن كان في مكتبتنا، أو إلى شرائه إن لم يكن عندنا، ولقد مضمي لما كتّاب (الروص الأنف للسهلي)، فشريته عند خروجي من

(١) لا يعرف في الشام إلا اسم الحمار، لما يدعى (الطاشير) وهي كلمة عربية لأن التحرير هو التيسير. وإن كان شيخنا المارك يسميه (الحكك)، وهي لفظة ولدت مينة!

المدرسة وما بت حتى تصفحته، وقرأت صفحات كثيرة منه. أما جملة فقد صدقت منه ما يروى عن حماد الرواية، وابن الأنباري، والمعري لقد كنا نقلد لهجته، ونحكي صوته، حتى صارت هي لهجتي في التدريس وأنا لا أدري.

لما كنت أدرس في بغداد، أقيمت حفلة سمر في آخر سنة ١٩٣٦، فسأل الطلاب مدرسيهم، على عادة اعتادوها هل يأتون لهم ليقبلوهم؟ فكان منهم من أذن، ومنهم من أورد، وكنت فيمض أدن، فقاء طالب يقبلني بزعمه، ولكنه قلد شيخا المبارك

فقلت: ونحك هذا شيخنا المبارك

وإذا بالطلاب يصيحون من الأركاء الأربعة بل هذا أنت، هذا أنت وإذا أنا لطول ما حاكيت الشيخ قد صرت ستله أعني ستله في لهجته ونغمته، لا في علمه ولغته، أين أنا من علم الشيخ؟

واتصل جبلي بحبله، إلى أن توفاه الله. أزوره في داره. وينفضل فيشرفني بزيارتي في داري.

والشيخ من أصحاب النوادر، وأستطيع أن أسوق من نوادره وعرائشه ما يملاّ صحفاً كثيرة.

وكان عليّ يوم توفي سنة ١٩٤٥ أن ألقى كلمة التأييد، في مقبرة الباب الصغير، التي دفن فيها معاوية وجلة من الصحابة، فرأيت في المقبرة أستاذنا محمد كرد علي، متأثراً حزيناً، وما أعرفه إلاّ مرححاً مزاحاً، ثم عرفت أنه كان سنين<sup>(١)</sup> المبارك، وأنه كان رفيقه في الدراسة عند أبيه الشيخ محمد المبارك، فأمرني أن أوصله إلى داره، فلم أخطب.

وكان الشيخ المبارك هذا، وهو جزائري الأصل، أحد أفذاذ الأدباء في عصره، له نثر، وله شعر، وله آثار مروية تدل على فضله وملكوته.

(١) سمين الرجل لدنه، أي من كان في مثل سنة

أما أخوه الشيخ محمد الطيب، فكان عالماً صوفياً، وقبره كان في أحلى مكان في دمشق، في طرف (المزة) من جهة الربوة.

ألا تعرفون ما الربوة؟ اقرأوا وصفها في كتابي (دمشق)، وقبر الشيخ محمد المبارك في مقبرة الصالحية، يشرف على دمشق والغوطتين.

والشيخ الطيب كان تلميذ جدنا الشيخ محمد الطنطاوي، الذي قدم دمشق من مصر، وتوفي فيها سنة ١٣٠٦هـ، وقد ذهب معه بأمر الأمير عبد القادر الجزائري إلى (قونية) في الأناضول، وأحضرا منها نسخة الفتوحات المكية، لمحيي الدين بن عربي.

والنسخة التي قبلت على نسخة مؤلفها، وطبعت المطبوعة عنها، وضعتها في مكتبة مجمع اللغة العربية في دمشق، من عهد بعيد.

رحمه الله شيخنا المبارك، ورحم أباه وعمه، ورحم ولده رفيقنا الأستاذ محمد الذي توفاه الله من شهرين<sup>(١)</sup> ودفن في البقيع. لقد صحبت الشيخ نحواً من ربع قرن، أرويه في داره، وأذهب معه إلى مجالس أصحابه، وألزمه أكثر مما لازمه أولاده محمد رحمه الله وقد كان معنا في المدرسة، ولكنه كان بعدنا، وعدنا، وهابي، وكاننا تلميذتي سنة ١٩٤٠، ومازن وقد كان صغيراً عندما كنت أزيّر الشيخ وهو اليوم خليفته في أستاذيته، أما عبد الهادي فقد كان يومئذ صغيراً من أن يدخل علينا مجلس أبيه، أو لعله لم يكن ولد:

دم لما بعد منزلة اللوى والعيش بعد أولئك الأيام

سقى الله تلك الأيام . . .

---

(١) توفي رحمه الله سنة ١٤٠١ هـ



## أساتذتي في مكتب عنبر

خبروني هل تحفظون من أخبار أساتذتكم مثل الذي أحفظ من أخبار أساتذتي هؤلاء الذين أحدثكم حديثهم؟ هل يبقى من ذكرياتهم في نفوسكم بعد ثلاثين سنة من اعتادكم عنهم، كالذي بقي في نفسي من ذكريات أساتذتي التي أكتب اليوم عنها بعد ستين سنة من تاريخها؟.

وإن هي بقيت في نفوسكم وحدثتم بها، فهل تحملون لهم من الحب كالذي أحمل لأساتذتي؟.

إني أحبهم، وإلا فلماذا أنفي عليهم وأمدحهم؟.

الشعراء كانوا يمدحون الملوك والأمراء وهم أحياء، أملاً بالمكافأة والعطاء، فهل أطمع بعطية من الناس مضوا إلى رحمة ربهم؟.

(وما أنا بالشاعر، وما صناعتي نسج التهاويل، ما أنا إلا مصور يتأبط آتد يطوف بها. يصور مشاهد الحياة. ومشاعر النفس، مصور (فوتوغرافي) مسكين. بمثل صورته نقلاً، ولست المصور المبدع الفنان الذي يحمل لوحاته ما لم يكن ولا يكون. أنا إنسان يدب على أرض الواقع، على حين يضرب الشعراء أمواج الحب (أجنحة النور) فأين أنا من جواء الشعراء<sup>(١)</sup> الذين نجسسون أنهم يتعالون عن واقع الحياة)<sup>(٢)</sup>

(١) كلمة جرحها جواء لا أحواء - وما كان من الحمل بين قوسين فهو من مفالات لي قديمة

(٢) أقصد ما يسمى السريالية وأصلها (Sur) أي فوق Realité أي الواقع.

إني أفكر فيما صرت إليه، وما كنت في صغري فيه، فأرى الفصل له أولاً واحبراً، ولكن السبب فيه هؤلاء المدرسون وأمثالهم، وإن قل أمثالهم، الذين قعدت بين أيديهم، وأفدت منهم، في المدرسة مضطراً . وفي حلقائهم المساجد مختاراً، أو قابلتهم في مسالك الحياة مضادة، فكان لهم، لغير شخصياتهم، ونبل صفاتهم، وطهر قلوبهم، أعمق الأثر، في فكري وفي عاطفتي، وفي سلوكي وفي تكبيبي، لم أحس به في حينه، ولكن عرفته بعد حين .

وإذا كان كثير من المعلمين يعملون لأجلهم الراتب، ويشتت من الطلاب يقرؤون ليحملوا الشهادة، وكان في المدرسين المهمل المسيء، وكان فيهم زائف القلب، فاسد العقيدة، فقد كان أكثر معلمينا يعلموننا اتقاء نواب الله، وحباً بنشر العلم، وكنا (أو كان أكثرنا) نتعلم حياءً بتحصيل العلم . وبعده في الأجر من الله .

وكانوا كالآباء لنا، يهتمون بدياننا، وأحرارنا

فهل نستكثرون عليّ أن أنضح بالدمع قبور رحلهم ملؤوا قلبي بالعاطفة التي ينبع منها الدمع؟ .

لقد بكيتهم يوم ماتوا بصوب قلبي، لا نياء عيني في رب ارحمهم، وارحم كل الذين علموني، وارحم أبي لأنه كان أبي وكان معلسي وارحم عني خير الجزاء .

\*\*\*

كان أساتذتنا في مكتب عنبر أصنافاً . . .

أما مدرسو العربية فكانوا أئمتها في البلد، وكانوا المرجع فيها: الشيخ عبد الرحمن سلام الخطيب الشاعر، والشيخ المبارك اللغوي الراوية، والشيخ سليم الجندي أستاذ اللغة والنحو والصرف والقروض، وقد سبق الكلام عن المبارك وسلام، وسأتكلم عن الجندي .

والشيخ الداوودي، ولم نقرأ عليه، ولكن عرفنا من تلاميذه أنه كان

يشرح الدرس على طريقة العلماء الأزهرين، في لطف ظاهر وخلق عظيم، وقلب رقيق، وكان شيخاً كبير السن، مريض الجسم، يستنفد الدرس قوته، فيخرج من غرفة التدريس، فيستلقي على الأريكة يستريح.

وكان يأتي المدرسة على أتان (حمار)، وكانت يومئذ للعلماء كالسيارة اليوم للأغنياء، فإذا دخل الباب تسابق الطلاب يعينونه على النزول عنها، ويقبلون يده، ويمشون معه، وكان محبوباً ما رأيت له كارهاً.

ولما توفي سنة ١٩٢٦ نظم رفيقنا الشاعر (أنور العطار) قصيدة في رثائه ألقيتها أنا على قبره، في كلمة تأبين لي.

والأستاذ محمد البرم، الشاعر الفحل الذي كان يعد يومئذ أحد شعراء دمشق الأربعة وهم: خير الدين الرزكي، الذي صار بعد من أركان وزارة الخارجية سعود بن عبدالعزيز (الأعلام) أحد الكتب العشرة التي يفاخر بها هذا الخبير ثننوا السابقات، وكتاب شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز. كتب حتى معروفة.

وحبيب مردم بن نسي محمد اللغة العربية في دمشق، العالم المؤلف والد المصدين الشاعر عبد مريم بك.

وتنبق حرق بن عميد الكلية الآداب في جامعة دمشق، وركن وزارة المعارف قبل ذلك، مؤلف كتاب نسي والحاحط.

والعبد المرم لم يعرف في عمر قصيرة، وقد كان أمثاله بل لقد كان تلاميذه معروفين. ولم نشر في (الرسالة) في أوائل الثلاثينيات وضع الزيات في امر مثاليته (أدب محمد المرم) مع به كان يكتب لي، وأنا عثمان تلميذ لهم، (الأستاذ المرم).

ولم اقرأ عليه لقد قرأ عليه من جاء بعدنا من التلاميذ، وكان منهم أحيى حاجي، أحيى عبد العلي فخبروا أنه كان مدرساً نادر المثل. كان فصيح اللهجة. بين الأسلوب، تعرف ذلك من سلامه ومن كلامه، لا يتكلم إلا باللغة العربية البليغة.

ولقد اتصل جبل المودة بأخرة بيني وبينه، وكنت قد جافيته أولاً...  
ذلك أنه كان يكتب في مجلة (الميزان) <sup>(١)</sup> كلمات يتناول فيها الأدباء بالتجريح  
لا يكاد يسلم من لسانه أحد، فكتب عن أستاذنا الجندي «أنه يهدم للمعري  
قصرًا فخماً ليقيم من أنقاضه كوخاً حقيراً». فأخذتني الحمية لأستاذي وكنت  
عن البزم «إنه يعرف في النحو ما يجهله الناس... ويجهل ما يعرفه الناس،  
وإن شعره جدار من الحجارة الصلدة، ولكنها مركومة ركنًا ليس بينها ملاط»

فغاضبه ذلك سني، وكف عن الجندي مع أنه كان في خصام دائم مع  
الأدباء. نظم أرجوزة، نحلها الشيخ المارك، وجعلها على لسانه، وسارت في  
الناس، وأضحكتهم على الشيخ.

ولقد سألت المبارك عنها، فأبدى ألمه منها، ولكنه صرح لي بأنه كان  
بتمني أن يقدر على نظم مثلها!.

وهجا مرة الأستاذ شفيق جبري بقصيدة قافسها على الرأي المضمومة: لمز،  
وَحْزُ، طنز عجز. فيها هذا البيت:

ولو شئت سيرت القوافي جحافلا وأوقرت أسماعاً وكدار لي الفوز

ونشرت أيام الثورة، وكانت (البعثة) أي دار (مندوب المتوصي السامي  
الفرنسي) تراقب المطبوعات، وكان المراقب نصرانياً، صعيماً في العربية، فلم  
يفهمها وحرار في رفع تقريره عنها، فسأل زميلاً له، أعلم منه. فقال له: إن  
الجحافل هي الجيوش، فكتب أن البزم يدعو لحشد الجيوش لحرب فرنسا!.

فقبضوا عليه وبيتوه في السجن، فما أنقذته إلا شفاعة الجندي  
وجبري!!.

\*\*\*

(١) التي كان يصدرها الكاتب الأديب أحمد شاعر الكرمي - في أوائل العشرينيات من هذا القرن، وهو  
ابن الشيخ سعيد الكرمي، والآخر الأكبر لحسن، وعبد الغني، وعبد الكريم (وهو أبو سلمى  
رفيقنا) وكلهم كاتب أدب أو شاعر مجيد.

ولعل سبب هجومه على الأدباء الأحياء، وعلى أئمة النحو الأموات، أنه نشأ بعيداً عن العلم والأدب، ثم اشتغل بهما بعد أن بلغ العشرين. فكان يحس في نفسه أنه دخيل عليهم، غريب فيهم، فيريد تثبيت منزلته بالخط منهم، والتعالي عليهم.

ولا تعجبوا فرمما كان عنف الهجوم دليلاً على الشعور بالنقص في نفس المهاجم، وإسرائيل مثال ذلك، إسرائيل أعني الدولة الظالمة الغاصبة، لا إسرائيل النبي الذي هو يعقوب عليه السلام.

وما لحكام دولة إسرائيل ويعقوب؟ ما لبيغن هذا وما لقومه وأرض فلسطين، وما له بني إسرائيل صلة قرابة ولا نسب، ولا له في تراب الأرض المقدسة ذرة من سفايا عظام أب واحد، إنما هو من (الخزر) الذين تهودوا طلباً للدينا من طريق اليهود.

استغفر الله أن أقول اسم محمد البزم الشاعر الفحل العربي المسلم، باسم بيغن، وبكى حرته القافية، ونسأل الله لنا وله العافية، ورحمة الله عليه. واللعنة على بيغن وكل معتد غلوم كفار.

لقد أصاب اليرم في آخر عمره مجموعة أمراض ذهبت ببصره، وأوهنت حسه القوي. وألفته على الفراش أمداً طويلاً، ولكن الله أحم (الشيكلي) حزه الله حبراً وكان حاكم البلد، فأدخله المستشفى العسكري، وبقي فيه محدوداً مرعاً، حتى توفاه الله فقيراً. ما ترك إلا ديوانه الذي طبع بعد موته.

أما مدرسو العلوم (أي الطبيعة)، والرياضيات، والتاريخ، والجغرافيا، فكان أغلبهم من الأطباء. وأكثرهم من الضباط العرب في الجيش العثماني.

الأطباء المذكور يحيى الشماخ. وكان مدرس الكيمياء، والدكتور جودة الكيال. وكان يدرس الفيزياء وكما تسميها الحكمة الطبيعية، ونطقها بالتاء المبسوطة فنقول الحكمت والكيمياء، أما كلمة فيزياء، فقد وضعها بعد ذلك الأستاذ عبد الدين التنوخي وسبأ في الكلام عنه، وهو الذي وضع كلمة (الحيوانات البرمائية) منحوتة من البرية والمائية وغيرها.

ولما كنا في الصف الثامن ذهب الشماع والكيال إلى (لوزان) لاستكمال  
دراسة الطب، وكان معها الدكتور حسني سبح، الرجل العالم المحقق، وهو  
اليوم رئيس مجمع اللغة العربية في دمشق، وهو أقدم المجامع العربية.  
فلما عادوا حياهما الشيخ الداودي بقصيدة مطلعها:

دع ذكر ذات الحلي والخلخال      والقائات أحبا النوى بالخال  
وجمع أساءهم في هذا البيت العجيب

بحمى بي الشماع حسني من بي      سبح وجودة من بي الكيال  
وكننا نسمع تلاميذ الداودي من الشعبة التي يدرسها، يشدون القصيدة  
على نغمة (البردة):

أمن تذكر جيران بذي سلم      مرجت دما جرى من مقلة بدم  
وهي نغمة معروفة في الشام، نعلمها التلاميذ في درس العروض،  
ليضبطوا بها بحر السيط.

وأقول بالمناسبة إن الصديق الأستاذ أحمد عبيد، نظم قصيدة أيضاً حاء  
فيها بيت كان أشعر وأسير من بيت الداوي، وهو:

الطب بحر طمى      وفيه حسبي سبح

أما الرياضيات فكان يدرسها اثنان: جودة الهاشمي وهو أتهر مدرسي  
هذه المدرسة، وقد سميت باسمه أكبر ثانوية في سورية، وكان عالماً  
 بالرياضيات، (هضمها، - كما يقولون - هضمًا، وقتلها فهمًا، وأحسن فيها تعليمًا  
وتفهيماً، وأعانه على ذلك سكوت التلاميذ في درسه، واستماعهم لقوله، فأفاد  
واستفاد).

وكننا نتوارث هيئته والخوف منه، يتوصى بذلك الطلاب، الخلف منهم  
عن السلف.

أما الثاني فهو مسلم عناية، وهو عبقرى من أفذاذ الرجال، كان من

كبار الضباط أركان الحرب، ومن أعلمهم بالفنون العسكرية، وكان أستاذاً في العلوم الطبيعية وفي الكيمياء خاصةً، يرجع إليه مدرّسوها في معضلات مسائلها، لا يكتفون ذلك عنا، ولا يتخرجون من ذكره أماناً، وكان أستاذاً في (الطبوغرافيا)، وأستاذاً في علم الموسيقى، وكان يتقن التركية وكان أديباً فيها، والفرنسية وكان يدرسها في مدرسة الشرطة، والألمانية وكان يحسنها. ولكنه كان على هذه المزايا كلها، بعيداً عن التوفيق في التدريس، عاجزاً عن ضبط التلاميذ، له في الفوضى نواذر عجيبة.

لقد كان أكبر من أن يكون مدرّساً في مدرسة ثانوية، فعجز عن الهبوط إلى (مستوى) عقول التلاميذ ليفهمهم، وعجزوا عن الصعود إليه ليفهموا منه، فبقي بينه وبينهم فراغ، ملأوه بالشغب والضجيج وإفساد الدرس.

رحمه الله. فقد عشت حتى بلغت هذه السن، وتقلت في البلاد، ولغيت العلي. ولأدب. ولأذكاء، فما صادفت أشد منه ذكاء.

وإن أعزب بك، أنه سرعة المحاكمة، والعقل بأنه صحة المحاكمة، وسلم بك أدنى من عرفت. وإن كان ذكاؤه أكثر مما ينبغي، لا تعجبوا من هذا الكلام. فإن الذي كان يفتقر فيحيي على ظهر القرس، والغبي يفتقر فيمنع دونه. فإن كان ذكاؤه أكثر مما ينبغي، كان كالذي يفتقر فقرة وسبع فيمنع في القرس.

وإذا كان مسلم بك، كنا نرى به كلمة لا نقصد لها سوءاً، فيولد له دناءة مفاسد، وخطر لما على بال، فيعصب ما، أو يعرض عنا.

ولا أتوصي في درسه لاستند به الكثير.

وإن سلم في الفوضى مدرّس الموسيقى، مع أنه مدرّس موسيقى بارع، وملحن ممتاز، وأستاذ العزف على القيثارة هو مصطفى الصواف، وكان يدرسنا الموسيقى كما تدرس في المعاهد الموسيقية، ولقد درسنا السلم الموسيقي، والإشارات كلها، وسلم (دو) الكبير، وسلم (فا)، وسلم (صول) إلخ. وسلم (الراست) في الموسيقى العربية، والموازنة بينه وبين سلم (دو ماجور)

والتأليف العربي، والتأليف العربي، والمقامات، والصيغ بأنواعها

كل ذلك كان يُدرّس في الثانوية، ولكما ما استقدا منه في  
الاستاد لم يكن بسطيح صط (الفصل)، ولأما لم يكن سطر إلى الموصف طر  
احترام وتقدير، ولأننا كما أو كان أكثر ما بأر التدريس على الآلات الموسيقية

واقصر انتفاعي بها على إعداد المطبق فقط. وما سمع - ما سمع  
منها، لأنني ما أصغت شيء يؤسف على ذلك

وللحديث نقاب



## من مصر إلى الشام

أما ترون الإذاعات تقطع برامجها أحياناً لتذيع خبراً طارئاً؟ إنني أتبع اليوم سنة الإذاعات، فأقطع سلسلة ذكرياتي، لا لخبر طارئ، فما عندي أخبار أذيعها، ولكن أقطعها لأن هذه الأيام تعيد إلى ذاكرتي حادثاً أحب أن أقف عنده قليلاً.

ففي يوم الجمعة ٢٣ من جمادى الأولى حدث حادث كان له الأثر الأكبر في حياتي، ولكنه لا يدخل في ذكرياتي.

حادث. تسعة أعشار القراء لم يعرفوه، لأنهم لم يدركوه، والذين أدركوه لم يعرفوه لأنهم لم يسمعوا به، والذين سمعوا به لم يبالوا أن يعرفوه، لأنه حادث عادي يقع مثله كل يوم، وفي كل بلد، وقد وقع لقوم عاديين لم يكونوا من ذوي الشأن. ولا من أهل الغنى والسلطان، ووقع في طرف حي صغير من أحياء دمشق، في دار فقيرة، ولكنها ليست فقيرة، لأنها دار شاب عالم، بكرمه الناس، ويقصده طلبة العلم، فيعقد لهم حلقات دروس مجانية، في الصباح وفي المساء، في هذه الدار، وفي مسجد الحي، يعطيهم الكثير من علمه، ولا يأخذ لا كتباً ولا قليلاً من أموالهم.

هذا الحادث هو أن روجة هذا العالم وضعت غلاماً، فقرح به أبوه وجده، وعمته وحدته، وكانوا هم والأم، سكان هذه الدار.

ولدتها قابلة (داية) الحي، ولم يكن في دمشق يومئذ قابلات كثيرات يحملن شهادة، ولم يكن يولد النساء طبيب، ولا يجوز في دين الله، إلا أن نكون

(ضرورة) أو (حاجة) تشبه الضرورة، ولا يكون ثمة طيبة أنشئ.

والعجيب حقاً أني لا أذكر عن هذا الحادث شيئاً.

بل أنا (لضعف ذاكرتي) لا أعرف كيف كان شعوري لما خرجت من عالمي الصغير، وهو بطن أمي، إلى هذه الدنيا الواسعة، ولا أعرف كيف سيكون شعوري عندما (أولد) مرة ثانية. فأخرج من (بطن) هذا العالم الأرضي إلى سعة عالم الآخرة.

تلك الولادة يسميها الناس موتاً. لأنهم لا يعرفون من الوجود إلا هذه الدنيا، ولو كان في البطن توأمان، فسبق أحدهما بالخروج، وسئل الثاني عنه، لقال (أيضاً) إنه مات، ودفن في أعماق الاحتشاء.

فهل تشابه الولادة والوفاة، أم هي خيالات أديب؟

قلت لكم إنني لا أذكر هذا الحادث، ولكن رأت جبره على باطن جلدة المصباح المنير، وهذا نص الخبر:

رزقنا الله فجر يوم الجمعة الثالث والعشرين من حمادى الأولى سنة ١٣٢٧ غلاماً سمياً علياً.

\*\*\*

كتب ذلك مصطفى بن أحمد سبط الطنطاوي.

فمن هذا (الطنطاوي) الذي نسب إليه، ونحمل لثمة؟ إنه حد أبي لأمه، وهو عم جدي وهاكم قصته من أولها.

\*\*\*

في سنة ١٢٥٥هـ وصل إلى دمشق شاب مصري لم يسجل اسمه على الحدود، ولم يطلب منه جواز سفر، لأنها لم تكن بين مصر والشام حدود على الأرض، ولا فروق بين السكان، ولم تكن الأسفار تحتاج إلى (جواز)، بل كانت كلها بلداً واحداً، ترف عليه راية واحدة، هي الراية الحمراء ذات النجم والهلل، راية بني عثمان. وكان بنو عثمان حكاماً بشراً، لهم حسنات ولهم سيئات، وما حسناتهم (في جملتها) بأقل من حسنات من حكموا ديار الإسلام

على سعة رقعتها، وامتداد زمانها، ولا سيئاتهم بأكثر من سيئاتهم، ولكن اليهود (وأصل كل بلية في الدنيا إبليس واليهود) لما صدهم السلطان عبد الحميد، وضرب وجوههم بأموالهم التي جاؤوا يسأومونه بها على دينه، افتروا عليه، وبهتوه، والافتراء والبهتان من خلائقهم.

لما كان ذلك ذهبوا يشوهون تاريخه وتاريخ قومه، وصدق ذلك ناس منا، بل من أفاضلنا.

هذا الشاب الذي وصل دمشق سنة ١٢٥٥هـ ولد في طنطا، التي كان اسمها طنطنا. وأنا لم أدركه، وكيف؟! وقد مات سنة ١٣٠٦، أي قبل أن أولد بإحدى وعشرين سنة؟.

ما أدركته ولكن سمعت خبره من شيوخ أسرتي، من ولديه الشيخ عبد القادر، والشيخ عبد الوهاب، وهما خالا أبي، وعمن أدركت من تلاميذه كالشيخ عبد المحسن الأسطواني، والشيخ محمد شكري الأسطواني مفتي سورية.

ومن ترجمته في الكتاب القيم (روص البشر) للشيخ عبد الرزاق البيطار جد شيخنا الشيخ محمد هجة البيطار، وكتاب الحقائق للشيخ عبد المجيد الخاني وهما تلميذاه، وكتاب الشيخ تقي الدين، وعما كتبه عنه الأستاذ محمد كرد علي.

ومن نظري في تراجم علماء الشام في القرن الماضي، في هذه الكتب وغيرها وجد الكثير منهم، قد قرأ عليه، وفعد بين يديه.

قالوا في ترجمته: (هو محمد بن مصطفى الطنطاوي مولداً، الدمشقي موطناً، الشامي مذهباً).

لقب (الطنطائي) كما كان يكتب عن نفسه، أو (الطنطاوي) كما سار على ألسنة الناس، لسموه به في الشام، فماداً كان لقب أسرته في بلده؟.

لا أدري، ولكن الذي سمعته في صغري، ولا أتبينه ولا أحقق الآن مصدره، أن اسم أسرته كلمة فيها (شين ونون). لا تضحكوا، إني أقول الحق. لعلها الشناوي، أو المنشاوي، أو الشنواني، لا يعرف ذلك أحد، وكيف وقد مضى على نزوحه منها قرن ونصف القرن، وما كان علماً من الأعلام حتى يتم

بحلّه ونرحاله، ما هو إلّا رجل من أوساط الناس.

ولو بحثتم عن المصريين الذين سكنوا الشام وعُدّوا من أهلها، والشاميين الذين سكنوا مصر، والمغاربة الذين هاجروا إلى المشرق، لوجدتم الكثير.

ذلك لما كانت بلاد المسلمين داراً واحداً، يسافر من شاء إلى حيث شاء

أما الآن، فيا أسفي لقد فرقت السياسة الأسيّة الواحدة، فأنا سوري، وبنّي أردنية، وبناتي الأخريات سعوديات

ولقد سافرت بصف ساعة في الفطار من اخس (اكس لاثايل) في المانيا إلى لياج في بلجيكا، فتغير عليّ كل شيء اللغة، وماطر البلد، ووضع الشوارع، وفواعد السير. لقد شعرت أنّي انتقلت من بلد إلى بلد

وأسافر من الرياض إلى بغداد، أو إلى الكويت، أو إلى عمان، أو إلى دمشق، أو إلى مصر، فلا (أكاد) أشعر بتغير حقيقي، إلّا التغير الذي يشعر به من يسافر من مدينة إلى مدينة، في الدولة الواحدة

قالوا: إنه ولد في طنطا (من أعمال مصر القاهرة). ويتأّبناً في حجر أخيه الأكبر، وكان اسمه علي. فمن أبوه؟ وما عمله؟ وما حبره؟ الله اعلم.

أما علي هذا، علي بن مصطفى الذي سميت باسمه، وسمي أبي باسم أبيه، والذي هو أبو جدي، فلا أعرف عنه إلّا أطراف أخبار، لم استقصها ولم أتحقّقها.

منها أنه كان (والله أعلم) في جيش إبراهيم باشا، وأنه لما سكن دمشق فتح دكاناً في خان الجمرك، وهو سوق مستوف قريب من الأموي، على شكل زاوية قائمة، في وسطه مخزن واسع، لما أراد (أبو خليل القباني) أن يقيم مسرحه، وكان أول مسرح في الشام، جعله في هذا المخزن، فلما أبى أهل دمشق أن يفتح فيها هذا الباب للفساد، واضطّروه إلى إغلاقه رحل إلى مصر، عام ١٨٨٤، وفيها راجت سوقه، وعلا نجمه، واشتهر اسمه. وكان يقتبس الرواية، أو

---

(١) عاصمة شارلمان ومبها آثاره.

بؤلفها، ويلحنها، ويمثلها فكان مؤلفاً وملحناً وممثلاً.

كان في خان الجمرك، سوق القماش، وكان يرتاده النساء، لذلك كان يدعونه أحياناً (سوق النسوان)، فكان جدنا هذا الذي لا أعرفه، إذا جاءته امرأة فكشفت وجهها لترى القماش، أو مدت يدها لتلمسه، زجرها وأمرها بالستر، فتركه النساء، فاضطر إلى ترك الدكان، وعاد إلى مصر.

ويظهر أنه كان فقيراً، لأن أخاء (الشيخ محمد الذي أتكلم عنه) كان يعيش في الجامع الأحمدى في طنطا على خبز الجرابية ومرق المخلل، لا يجد غيرهما.

وقد حفظ هنالك القرآن، وحصل بعض العلوم النغلية والعقلية، ثم سافر إلى حلب.

ويظهر أن حب كانت مثابة للعلم والفن، فهذا الرجل قد قصدها لتلقي العلم على غلمته. بعض كبار أهل الفن أموها لأخذ الفن عن موسيقييها، ومن هؤلاء محمد عبد الوهاب كما ذكر عن نفسه، ومصادر الغناء اليوم (فيما أعلم) موسيحيون أندلسيون، والأدوار والأغاني المصرية، والقذوذ الحلبية، والمقامات العراقية. ههنا، وفي جبل السورية واللبنانية.

كيف ذهب إلى حلب؟ لا أعلم وقد (قرأ في حلب على الشيخ أحمد سامي، وغيره وأحارود).

ههنا لإحارود كانت ثمة. الشهادات الجامعية اليوم، (وكان من طبيعتهم) الشيخ محمد الطالب في ذاك. ثم يجيره ههنا. والإجازات على راحت منها الإحارود عامة، ومنها الإحارود خاصة. وليس للإحارود العامة اعتبار لأحد خاص. بل ثمة العلماء مشهورون عن العمل بها<sup>(١)</sup>.

ثم قدم دمشق سنة ١٢٥٥ (أقام بها حتى سنين، وتلقى الطريقة المشيخية عن الشيخ محمد الخافي الكبير، وبقي نزيله هذه المدة).

(١) من كان الإمام السامري، في سلسله (أعلام التاريخ) التي كنت أصدرها

وكذلك كان يصنع العلماء الأغنياء برلوق الطالب ويعلمونه وينتقلون عنه.  
كما كان يصنع الإمام محمد بن الحسن (صاحب أبي حنيفة) مع أسد بن القراء  
وغيره. قرأ على محدث الشام في تلك الأيام الشيخ عبد الرحمن الكزبري، أستاذ  
الأسانذة، والشيخ سعيد الحلبي، والشيخ عبد الرحمن الطيبي، وهؤلاء كلهم  
أعلام يعرفهم أهل الشام.

ثم عاد إلى مصر ولزم الجامع الأزهر خمس سنين، قرأ فيها على الشيخ  
إبراهيم الناجوري، شيخ الجامع الأزهر، صاحب الحواشي المشهور، والشيخ  
إبراهيم السقا خطيب الجامع الأزهر، والشيخ محمد الخصري الكبير، وهو فقيه  
عالم بالعربية والفلسفة والعلوم، وهو رجل عبقري، أصابه الضمم فاحترق  
طريقة للكلام بإشارات اليد، وعلمها من حيله، فكان يخطبهم ويحاطبهم بها،  
وقد تلقى جدنا عنه العلوم الرياضية والملك

ثم رجع إلى دمشق، واتخذ له حجرة في مسجد (سدي صبيح) في أول  
حي الميدان فكان يعلم فيها نهاره كله، واستمر في ذلك سنين حتى دعاه الأمير  
عبد القادر الجزائري، فدخل البلد، واستأجر له داراً واسعة (وهي لدار التي  
آلت فيها بعد للمحدث الأكبر الشيخ بدر الدين الحسي وتوفي فيها) و (عين له  
معاشاً) وأرسل إليه أولاده ليقرئهم، فاتخذ حجرة في المدرسة الباذرانية، ولإنشاء  
هذه المدرسة قصة طريفة ليس هذا موضعها، فكان يعلمهم أولاد الأمير  
وغيرهم من طلبة العلم.

قالوا: (وكان مشاركاً في كل علم وله فيه تدقيقات وتحقيقات) (ومن آثاره  
البسيط الموضوع في منارة العروس، وهي المنارة «الرئيسية» في الجامع الأموي).

وكان هذا البسيط من صنع ابن الشاطر، وهو فلكي رياضي كان رئيس  
المؤذنين في الجامع الأموي، وله مؤلفات في الفلك معروفة ومشهورة، وكان  
مولده في سنة ٧٠٤هـ في دمشق، وتوفي فيها سنة ٧٧٧هـ.

بقي هذا البسيط صالحاً إلى سنة ١٢٩٢ فطراً عليه خلل، فكلفوا جدنا  
بإصلاحه فانكسر في يده، فشنع عليه ناس من أهل الشام، وهجاه الشيخ عبد

السلام الشطي رحمه الله بقصيدة مطلعها:

كسر البسيط برأيه المعكوس .....

وكان الأمير عبد القادر، يتصرف كأنه حاكم، فأمر به فأقيم عليه حد القذف، أو ما يشبه هذا فما أروي إلا ما سمعته، ولا أتهم في هذا بريئاً، ولا أدافع عن معتد، وقد ذهب الجميع إلى لقاء ربهم، والأمير معروف جهاده، ومعلومة مناقبه، والشيخ عبد السلام عالم من أسرة علم، فغفر الله لمن أساء، وعوض من أسى إليه.

\*\*\*

وقد صغ جدنا بسيطاً آخر، أجود من الأول، حسبه على الأفق الحقيقي، ورائد فيه قوس الباقي للفجر، ووضع في مكانه في يوم مشهود، وقد نظم الشيخ الحارث، قصيدة عارض فيها قصيدة الشطي مطلعها:

صغ البسيط بغاية التأسيس شيخ الشام رئيس كل رئيس

وارح لذلك على طريقة حساب الجمل، في آخر بيت فيها، فقال:

ما قال أهل الشام في تاريخه نم البسيط بنفحة القدوس

أي سنة ١٢٩٣، ثم صغ بسيطاً آخر للجامع الدقاق، الذي كان يؤم

فيه ويحضره شيخنا الشيخ مهجة البطار

وكان يعيش على الراتب الذي يأخذه من الأمير، فلما مات الأمير جعلت

له الحكيم راتبا، فلم يأخذه، ونهى ولديه عن أخذه، ولست أدري لماذا؟ ولا

أعرف لرفضه وحهاً شرعياً، ولا من باب الورع، فالحديث صريح بجواز

أخذه، بل بالحث عليه.

وجعل يبيع كتبه، وهي أغز شيء عليه، ويعيش منها، حتى توفاه الله

آخر ربيع الثاني سنة ١٣٠٦هـ (وُضِلَّ عليه في الجامع الأموي بمشهد عظيم،

ودفن في مقبرة الباب الصغير) وترك كتباً صغيرة، أكثرها في الفلك

والرياضيات منها: (حساب البسيط ورسومه)، (حساب الربع ورسومه)، (كشف

القناع عن معرفة الوقت من الارتفاع).

وله كما قالوا (تقريبات على كافة الكتب التي أقرأها مشتملة على حل مشكلات وإيضاح مبهمات) رحمه الله .

\*\*\*

وأنا أكتب هنا للحق وللناريح، فلا أستطيع أن أحتم الكلام عن جدنا من غير أن أعرض إلى أمر صنعه، ما أدري هل أحسن فيه أم أساء؟ هو أن الأمير عبد القادر العالم المحاهد كان (وليته لم يكن) ممن يقول برحلة الوجود، وشيخ القائلين بها ابن عربي<sup>(١)</sup> وأكبر كتبه الفتوحات المكية وكان فيه نسخة كاملة في (قونية) بخط المؤلف، فبعث الأمير جدنا الشيخ محمداً وتلميذه الشيخ محمد الطيب (المدفون في المزة في أجمل بقعة منها) إلى قونية لنسخ صورة عنها، وطبعها.

هذا هو الذي صنعه. وللأمير عبد القادر كتاب اسمه (المواقف) مملوء بمذهب (وحدة الوجود)، ألزمت وأنا صغير بالمشاركة تصحيح تحارب طبعه فلما رأيت ما فيه استعذت بالله، وتركته.

### عودة إلى اقتراح قديم

ولقد كتبت في الرسالة من أكثر من أربعين سنة، أن كثر كفار قریش ليس أكثر مما في هذه الكتب، فقام عليّ مشايخ من مشايحي، وكانت بيني وبينهم مناظرات، ثم اقترحت اقتراحاً، أعيد ذكره الآن:

إن ابن عربي واحد من الكتاب الخمسة الذين هم أعظم كتاب العربية: الجاحظ، وأبو حيان التوحيدي، والغزالي وابن خلدون.

وهو فيلسوف لا يبلغ سبينوزا إلا أن يكون تلميذاً له. وكتابه الفتوحات كتاب عظيم، ولكن يفسده، ويذهب بخيره، ويمحو جماله، ما فيه من كلام لا يشك في أنه كفر، وأنه أخذ الأفلاطونية الجديدة لأفلوطين (Plotin) فجعلها من الدين.

---

(١) قالوا في المشرق ابن عربي، ليميز من ابن العربي الإمام الفقيه المحقق المعروف.



والافتراح هو أن نأخذ الفتوحات، فنمحو منها هذا كله، وهذا كله لا يبلغ  
عشر الكتاب، ثم نطبعه طبعة جديدة، ونكتب على غلافها (مهذب الفتوحات)  
فنستفيد منه ونستمتع بالخير فيه، ونسلم مما فيه من الشر، فما رأيكم دام  
فصلكم؟

## جدي الشيخ أحمد الطنطاوي

تكاثر الطء على خراش فما يدري خراش ما يصيد

هدد غر مثالي اليوم. وأنتم تعلمون مما بقي في أذهانكم من دروس  
البلاغة (إذ كان قد نفي فيها شيء منها) إن المشبه لا يكون كالمشبه به في  
جميع صفاته. بل فيه عو (وحه الشبه). فإن سمعت مغنياً يقول: (يا غزالاً صاد  
فلي) لا يصح أن لهذه الخيبة التي صادت قلبه ذنباً كذنب الغزال، أو أنها  
تقني على أربع!

وإن مشبهه بالمرسل ربعة عشر، لم تصور وجهها دائرة كاملة كوجه  
الخمر، ولا أنه مثله (كما عمو) فيه الصخر والحجر!

أد مثلي خراش في برده وحيرته لا في خلقه وصورته، لأنه كما تعرفون  
أفكم لا تعرفون كلب، وأنا بحمد الله بشر. وإن كان في البشر من يحسن به  
أن يعيد من كذب (تفضيل الكلاب على كثير من لبس الثياب).

\* \* \*

لقد وصل في هذه الدكرات إلى مرق الطرق، ففتحت أمامي  
مسالك لا أستطيع أن امتني فيها كلها معاً، وأحار فلا أدري أيها أختار:

هل أكمل الكلام عن (مكتب عنبر) وعن أساتذتي فيه؟ أم أتكلم عن  
(نهضة المشايخ)؟ أم (الثورة السورية)؟ أم أنتم ما شرعت فيه في الحلقة  
الساقة، لتصل الحديث وتسبق؟

أنتم ما شرعتم فيه .

قلت لكم: إن الذي قدم الشام من طنطا في مصر، هو الشيخ محمد، وقد جاء معه أحمد ابن أخيه الكبير.

والشيخ أحمد هذا هو جدي الذي توفي سنة ١٩١٤، وفي ذاكرتي عنه بقايا صور قليلة ولكنها واضحة، وكذلك تكون الصور التي ترسم في عهد الصغر.

ولقد ساءلت نفسي لماذا أحدث الفراء عنه، وما استفاعهم بهذا الحديث؟ ثم رأيت أنه كان (نوعاً) من الشخصيات لا يخلو من طرافة أو غرابة، ثم إنه جدي والكلام عنه، حلقة لا بد منها في سلسلة الذكريات

كان جدي (إمام طابور) متقاعداً في الجيش العثماني. وكان للوعاظ والأئمة في هذا الجيش رتب مثل رتب الصباط، وأعلالها رتبة (مفتي آلاي) وأحسبها تقابل وظيفة قاضي العسكر قديماً، ولا أعرف أنا من نالها إلا الشيخ رضا الزعيم وهو رجل يستحق أن أقف عليه وقفة قصيرة، فقد كان صادقاً مع الله، صداعاً بالحق، جريئاً جرأة نادرة المثل، وكذلك كان ولده: الولد الصالح وهو الصديق الداعي إلى الله الشيخ صلاح الدين رحمه الله، والولد الـ... وهو (المشير...) حسني الزعيم. الذي اندل في بلاد العرب بدعة الانقلابات العسكرية سنة ١٩٤٩، وإن كان قد سبقه الفريق بكر صدقي في بغداد سنة ١٩٣٦ بانقلاب جزئي غير كامل، وقد حضرت الانقلابين، وربما تكلمت عنها.

شارك الشيخ رضا في حرب (الترعة) لما أعد جمال باشا، بأمر جماعته الاتحاديين وضغط حلفائهم الألمان، حملة حشد لها ما استطاع من العدد والعند اجتياز (ترعة السويس) وتحرير مصر من الانكليز.

خطب الشيخ رضا الجند، وذكّرهم الله، ودعاهم ليصتحوا نيابهم في الجهاد. وتلك سنة المسلمين قبل كل معركة، ليخوضها الجندي على بصيرة، فإذا مات لم يخر الدنيا بالموت حتى يكون قد ربح الجنة بالشهادة. وهذا ما

يجب أن يعرفه كل جندي مسلم، وكل فدائي، وكل من يتعرض للمنايا،  
ينال إن ظفر الثواب، ويحظى إذا قتل بالشهادة. وليس الشهيد الذي يقاتل  
لمجرد استرداد البلد السليب، ولا الذي يموت خدمة للعلم، ولا تضحية للوطن  
ولا دفاعاً عن مجد العروبة، بل الذي يقاتل لإعلاء كلمة الله، ويموت في  
سبيل الله.

ولو كان هذا قولي أنا لما ألزم أحد منكم باتباعه، ولكنه قول من يُلزم  
باتباعه كل واحد منكم: رسول الله ﷺ.

لم يخطف الشيخ رضا الجنّد ليحمسهم، ويدفعهم إلى الموت ثم يأوي  
إلى خيشته لباكل وبنام، بل خطبهم وصاح (الله أكبر) وأقدم، فطارت به قبلة  
مدفع من مدافع الانكليز، فما وجدوا له جسداً يدفن، لم يقم له قبر، ولكن  
أقيم له في قلوب الناس حسن الذكر، وثبت له عند الله جزيل الأجر، وهذا  
دعاء لله، وليس تألياً على الله.



أعود إلى حديث حدي... كان جدي نظامياً بطبعه، وزاده عمله في  
الجيش التزاماً بالمظام، وحرصاً على الترتيب، فكانت حياته كحياة تلميذ في  
مدرسة داخلية. كل حركة فيها بحساب، وكل عمل له وقت. فكأنها كانت -  
على طولها - يوماً واحداً يتكرر. نومه في موعد محدد، وقيامه في موعد محدد،  
كانوا يومئذ يأكلون مرتين فقط، الفطور بعد صلاة الفجر، والعشاء بعد  
العصر. كان عشاء مبكراً، أو فطوراً متأخراً، فليس المهم الاسم، بل إن  
كوبه الساعة الثامنة العروبية إذ لم يكن التوقيت الزوالي مألوفاً، لا يتقدم عنها  
ولا يتأخر، إلا إذا خرجت الأرض عن مدارها، أو أسرعت في مسارها، أو  
غابت الشمس قبل حين غيابها.

وطالما كان يولم الولاثم يدعو إليها كبار قادة الجيش، أو وجهاء البلد، فإذا  
بلغت الساعة الثامنة، باشر الأكل مع من حضر وإن لم يحضر أحد شرع يأكل  
وحده

إنه مثل (كنت) (١) الذي كانت تضبط الساعة على موعد خروجه من داره، وإن كان ابن بلده (هاينه) (٢) يقول: إنه ليس إنساناً يشعر، بل آلة تتحرك، وشاعرنا (٣) يقول:

ولذيذ الحياة ما كان فوضى ليس فيه مسيطر أو نظام  
والله أعلم بصحة ما قال.



سكن حدي أولاً مع عمه في داره الكبيرة، وتزوج ابنته. لذلك كان أبي يُعرف نفسه بأنه (سبط الططاوي) أي ابن سته، وكان أهل الشام يحرمون على اجتماع الأسرة كلها في الدار الواحدة. الحد والجدة والأولاد وزوجاتهم، وأبناء هؤلاء الأولاد وبناتهم. لكل منهم جانب من هذه الدار الواسعة، وكلهم يأكل من قدر واحدة، تغرف كل أسرة صغيرة وتذهب بطعامها إلى غرفها وكان عمل الدار مقسماً بين نسائها، لكل واحدة يوم في الأسبوع أو يومان أو ثلاثة، تبعاً لكثرتهم أو قلتهم. وإذا اجتمعوا عند الحد قعدوا متأدبين خاشعة أصواتهم، لا يخالفون له أمراً، ولا يجروون عليه مطلب. ولا يبدوونه بحديث، بل إنني سمعت من أبي، كما سمعت عنه من أصحابه بعد وفاته أنه لا يعرف ما لون عيني أبيه لأنه لم يرفع بصره إليه أبداً!!

ولست أحبذ هذا الذي أصفه، ولا أرى أنه هو الصواب، ولكن أذكر ما كان. أما الذي أحبه، وأرجو أن نحافظ عليه، فهو ألا نسي أن ابن العم أجنبي عن ابنة عمه، ولو جمعتها الدار الواحدة، وأنه إن جاز (عند الحاجة) أن تشاركه مجلس الأسرة، فلا يجوز في دين الله أن تكتب أمامه عن أكثر من الوجه والكفين، ولا أن تنفرد به، وعليه أن يغض عنها بصره، وتغض هي بصرها.

... وكانت تقع الخصومات وتحدث المشكلات، بين أطفال هذه

(١) Kant (١٧٢٤ - ١٨٠٤)

(٢) Heine (١٧٩٩ - ١٨٥٦).

(٣) أظن أنه حافظ إبراهيم.

المجموعة فتنقل إلى الأمهات، وقد يشارك فيها الآباء، وهذا شيء ما منه بد حتى لو انفرد الرجل بزوجته وولده. ولو خلت دار من مثل هذه المشكلات، خلت منها أشرف دار قامت على ظهر هذه الأرض، دار رسول الله عليه صلاة الله، فقد كانت فيها أشياء منها.

ولكنها كانت كاصطدام الغصن بالغصن في الدوحة الباسقة، والموجة بالموجة في البحيرة الصافية، وأصل الشجرة واحد، وماء البحيرة واحد، ولكنها ريح الصبا هبت في الأصيل، فأزاحت الملل، وجاءت بالأمل، وهل الحياة إلا الحركة، وهل في الحركة غالباً إلا البركة؟ خلاف ولكنه على السطح، وما في الأعماق، إلا الإلفة والاتفاق.

وكان جدي يحب أن يكون له المكان الأول، وهو في هذه الدار الكبيرة لا يكون إلا الثاني. لذلك استأذن عمه. وانفرد بنفسه وأهله، وأخذ داراً صغيرة (دويرة) من أملاك وقف جامع التوبة.

وفي دمشق مسجد جامع بعد من مساجد الإسلام الكبار، بل هو أكبرها وأقدمها بعد الحرمين. وهو الجامع الأموي. ومسجد تليه، في كل حي من أحياء دمشق، جامع التوبة لحي العقيبة وما والاها، ومسجد القصب للعمارة وباب السلام (وكان اسم باب السلامة)، وجامع السنائية<sup>(١)</sup> لباب الجابية وما اتصل به، وجامع باب المصلّى، حيث كان مصلّى العيد في أول ميدان الخصى. وجامع مجك، وجامع الدقاق للميدان، وجامع الشيخ محيي الدين، وجامع احابله، وجامع الشيخ عبد الغني النابلسي، وجامع ركن الدين وهي لأحباء سمح قاسيون، وجامع تنكز، وجامع يلغاء، في المرجة أو بجوارها.

وحى العقيبة حي صغير، يمر في طرف دمشق، وفي طرفيه ثلاث حارات، أو لعل كلاهما مجمعة حارات، أوها (الديمحية)، أي صناع الدنيا، ولو نظرتم في كتاب (قاموس الصناعات الشامية) للفاسمي، لرأيتم أنه كان في الشام صناعات جليلة أصيلة، سيناها بل لقد نسبنا اليوم أسماؤها،

(١) الذي ساء سنال باشا أعظم مهندس في العهد العثماني

ورحم الله القاسمي، الذي ألهمه الله تأليف هذا الكتاب، في وقت لم يكن  
يهتم فيه أحد بمثل هذه الموضوعات، وشكراً لأخيना الأستاذ ظافر<sup>(١)</sup> أن طبعه  
ونشره.

كان في الشام أقمشة تنسج على المنوال، وتباع قطعاً كل قطعة لثوب  
واحد وتسمى (الصاية) منها الرخيص المصنوع من القطن ونحوه وهو (الديما)،  
والغالي من الحرير وشبهه وهو (الآلاجة) وهو القماش المخطط اللماع الذي  
تصنع منه (قفاطين) المشايخ في مصر، وكنا نلبسه في الشام في الأعياد تتعدّد  
فيه ألوان القماش، والخطوط المرسومة على القماش، وأشكال هذه الخطوط  
فيكون منه عشرات وعشرات من الأنواع، وهو متين يكاد يعيش مع لابس  
شطر عمره ولا يبلى. فالديمجي، هو صانع الديما، ولما درسونا التركية أيام  
الحرب الأولى، علمونا أن النسبة إلى الصناعات تلحقها غالباً جيم قبل ياء  
النسبة، فنقول: بندقجي كندرجي (وفي مصر جزمجي)، وإلى البلدان بزيادة  
لام. فنقول: ازمرلي، نسبة إلى أزمر، وأورفلي، نسبة إلى أورفا (وأورفا هي  
الرها قديماً)، وأنا أكتب هذه الذكريات كلها من ذهني ما عندي شيء مكتوب  
أرجع إليه، وأعتمد عليه، فإن أخطأت، أو بدّل الترك ما تعلمناه يومئذ من  
قواعد لسانهم، فسأحوني.

وإلى جنب (الديمجية) حارة تسمى (حارة تحت المئذنة) كان فيها من  
مشايخنا ومن أصدقائنا، الشيخ أبو الخير الميداني، والشيخ محمود ياسين الحمامي،  
وحارة اسمها (السمانة) وهي أكبر من حارة، إنها حي صغير، وبينهما طريق  
ضيق متعرج يفضل فيه الخريت<sup>(٢)</sup>، لذلك كان اسمه الذي يعرف به بين  
الناس هو (محل ما ضيع القرد ابنه)!

وفي حارة السمانة كان منزل آل الزعيم، ومنزل رفيقي العمر: الشاعر  
أنور العطار، والأستاذ أحمد مظهر العظمة رحمهما الله، وكان في دمشق (كما كان  
في أكثر البلاد) أحياء وحارات يتجمع فيها أرباب الصناعة الواحدة، فتعرف

(١) رحمه الله.

(٢) الخريت: الخير بالطرق، وخالد بن عبد القسري أمير العراق المشهور كان يلقب في شبابه بخالد  
الخریت، كما قال أبو الفرج في الأغاني.

بهم، وتنسب إليهم. ففي الشام سوق القطن، وسوق الحبوب، وسوق الحرير، وسوق الصاغة، والحدادين، والمناخلية، وسوق النحاسين، وقد وجدت في فتوح البلدان للبلاذري أن (قصر البريص) إذ كانوا:

يسقون من ورد البريص عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسل

كان - كما يقول - في موضع سوق النحاسين، مقابل باب الفرج، وباب الفرج هو باب المناخلية، وهما بابان: باب في السور الداخلي وآخر في السور الخارجي، وهما باقيان إلى الآن. فالسوق إذن في موضعه الذي كان عليه قبل الإسلام. وسوق القباقيب - حيث تصنع القباقيب - وقد كان في موضعه الدار الخضراء دار معاوية وأكثر الخلفاء من بني أمية جنوبي الجامع ووراء جدار القبلة، ولا يزال الباب الذي كان يدخل منه الخلفاء إلى المقصورة ظاهراً ولكنه مسدود. أما عمر بن عبد العزيز فقد كانت داره في موضع المدرسة السيماطية شمالي الجامع، وهشام كانت داره في موضع مدفن نور الدين زنكي في سوق الخطاطين.



كل ما في الدنيا يولد ويموت، بقوى ويضعف، يعزّ ويذل، فالدار الخضراء التي كانت يوماً عاصمة الدنيا، وسرة الأرض، ومنزل الخلفاء من بني أمية الذين كانوا يحكمون ما بين قلب فرنسا وقلب تركستان وأطراف باكستان وكانت محط الآمال، ومطمح أنظار الرجال، صارت سوقاً للقباقيب!

ولم ير من اسم الخضراء، إلا مصبغة صغيرة، تحت الأرض، هي المصبغة الخضراء



## عود للحديث عن مكتب عنبر

اعود إلى الحديث عن (مكتب عنبر) ولعلي لا أخطيء إن قلت إن الحديث عنه وعن أساندي فيه، أشهى إلى النفس من الحديث عن داري وأهلي فيها . ولقد فكرت أن لماذا أحن إلى الماضي؟ .

لماذا أجد كلما سمعت في الإذاعة، أو قرأت في الصحف حديثاً مع شيخ مثلي عالي السر، ماذا أجده يفصل أيامه الخوالي على الحواضر من أيام الناس؟ .

هل كان الأمر دائماً حيراً من اليوم؟ هل كانت الأخلاق كلها أفضل؟ والناس جميعاً أكمل؟ وأحياناً بكل ما فيها أحمل؟ .

هل كان لطلاب كلهم أكثر جداً واجتهاداً؟ وكانت المناهج أغنى بالعلوم وأحتمل؟

هل كان المدرسون جميعاً أعلم بما يدور من مواد، وكانوا أشد إخلاصاً وأكثر حناية بالطالب، حرصاً على تعليمه؟ .

وهذا يجرب إلى سؤال، لا أحيب عنه الآن بل أدع جوابه لحلقات آتيات، من هذه الذكريات، هو:

هل كان علماء القرن الذي ودعناه من قريب، خيراً من علماء اليوم؟ .

\* \* \*

أما الحنين إلى الماضي فهو شيء طبيعي<sup>(١)</sup>، لأن الإنسان لا يعرف قيمة  
النعمة إلاّ عند فقدانها: الطعام الآن أمامك والشراب البارد تحت يدك، مهمل  
تقدرهما كما تقدرهما وأنت صائم في نهار الصيف الطويل؟ هل تعرف قدر نعمة  
الأمن إلاّ عند الخوف، والصحة إلاّ عند المرض، والإقامة إلاّ عند السفر...  
كذلك الشيخ لا يعرف قيمة الشباب إلاّ عند فقدّه

الشباب في الشام والعراق لهم نشيد مشهور هو (سحر الشباب لنا الفد).  
فما لنا نحن الشيوخ غير الأس؟.

لذلك نأسى عليه، ونحنّ إليه، ومن هنا سمى العرب الشيخ الكبير  
(الكنّي) لأنه يكثر أن يقول: كنت وكنت

أما المناهج، فلقد درسنا في الثانوية من المواد ما يدرسه الطلاب اليوم،  
ودرسنا ما لا يدرسه الطلاب اليوم، كعلم آداب البحث والمناظرة،  
و(الطبوغرافيا)<sup>(٢)</sup> أي علم التخطيط ووضع الخرائط، والحساب التجاري وكنا  
نسميه علم (مُسك الدفاتر) أي المحاسبة، ودرسنا في الكيمياء «الفيزياء والفلك»  
آخر ما وصل العلم إليه في أيامنا ولكن العلم تقدم واتسع، ولقد شاعدت من  
سنين درس كيمياء في الرائي، فرأيت شيئاً جديداً، ولقد سألت صاحبه أن  
يعلمني، أو أن يدلني على كتاب مفهوم أتعلم منه فحسب أي أمرح، وأخذها  
على أنها نكتة..!

وما كنت مازحاً بل كنت جاداً كل الجدة، فأنا أحب أن أتعلم كل شيء.  
أما إقبالنا على العلم، فقد كان أكبر من إقبال الطلاب الآن من غير  
شك. وسبب ذلك أمران:

الأول: إننا كنا في بداية بقطة فكرية جاءت بعد نوم طويل. والثاني: أنه لم  
تكن عندنا هذه الصوارف التي تصرف الطلاب عن العلم، والمعلمين عن حسن  
الاستعداد للتعليم.

ما كانت إذاعات ولا كان هذا الرائي ولا كان شريط التسجيل، ولا

(١) القياس أن نقييل، طبعي، ولكن علماءنا قالوا من القديم طبيعي وبديهي.

(٢) من اليونانية Tapos أي مكان Graphieiss تخطيط ووصف.

كانت هذه المجلات، ولا كانت الأسفار بالطيارات ولا الجولات في السيارات. نعم كان عندنا داران للسبينا الصامتة لا يدخلهما إلا من سفه نفسه، وكانت دمشق عدا المرجة وما حولها، وباب توما والقصاع وهما مسكن النصارى، كانت تنام من بعد صلاة العشاء. حتى المقاهي الشعبية لم يكن يسهر روادها إلى أكثر من الساعة الثالثة أو الرابعة (بعد غروب الشمس) يستمعون إلى الحكواتي أو يشاهدون (كراكوز)<sup>(١)</sup> وهو خيال الظل، ثم يمضون إلى بيوتهم، وما وراء ذلك من اللهو لم أكن أعرفه.

أما المدرسون فكان منهم أئمة في المواد التي يدرسونها، كالمبارك الذي سقت طيراً من حديثه، والجندي الذي جئت أُنحدث عنه، ومنهم أساتذة ما بلغوا هذه المنزلة، ومنهم من هو أقرب إلى العامة، ومنهم السيء وحسبكم مثلاً على ذلك: مدرس رسم حاءنا به الفرنسيون، وهو ولد خليع ماجن أبوه صاحب خارة، ولكن الطلاب أصْلَوْهُ من هزئهم به، واحتقارهم إياه، ناراً دفعه لحيها إلى باب المدرسة فولى هارباً. . . .

أما مدرس الرسم الذي لا ينسى فهو الأستاذ عبد الوهاب أبو السعود، وما كنا نبالي الرسم، ولا نقيم له وزناً، ولا كان القائمون على التعليم يعدلونه بالعلوم الأخرى، ولكن عبد الوهاب يضطر جليسه أن يباليه وأن يلتفت إليه فكيف تم هو تسميته. لقد كان أحد رواد التمثيل الأوائل، وكانت له فرقة للمسرح والموسيقى، أخوه يتولى الجانب الموسيقي منها، وكانت تنازعه فرقة العطري، وما كان أطرف ما يأتي منه حين يذكر له هذا المناس، فقد كان يمثل كانه على المسرح، ويأتي بمبالغات وعجائب، ولقد رأيناه في روايات كثيرة مترجمة عن الأدب الفرنسي ممثلاً مجوداً على طريقة يوسف وهبي.

أما في الرسم فأشهد أنه فنان بارع، وهو أول من رسم (من خياله) صورة المعري، وأبي نواس، وغيرهما، وطبعت وتداولها الناس، وله لوحة بارعة لسوق نكاظ كما تخيلها. وكانت في دمشق مجلة هزلية لصحفي (حقيقي) اسمه حبيب

(١) ومعنى الكلمة بالتركية العين السوداء أي صاحب العين السوداء. وخیال الظل في كتب الأدب والتاريخ حديث طويل وقد عرض لذكره الإمام الغزالي واشهر من كان يؤلف رواياته وينظم أناشيدها ويلحها ابن دابال طيب العيون

كحالة، هي مجلة (المضحك المكي) ينشر في كل عدد منها صورة كاريكاتورية.  
في الموضوع الذي يشغل الناس، تبقى الأسبوع كله حديث البلد، ويطلبها تاجر  
وجيه اسمه أبو درويش سويد، عبقرى في ابتكار النكتة، ما رأيت له تائلا، ولا  
في مصر، بلد النكتة كما يقولون.

أما اللغة الفرنسية فقد درسناها كما يدرسها الطلبة الفرنسيون في فرنسا،  
المناهج هي المناهج، والكتب هي الكتب

وكان يعلمنا الفرنسية أول عهدنا بمكتب عنبر، رجل فرنسي عجز له  
لحية بيضاء طويلة، وهو أحق لا يصطُ سَفَ (أي فصلا)، ولا يصعي إلى درسه  
أحد، وكان يسكن الدار المواجهة للمدرسة. يؤذيه الطلاب فيحمل الأذى  
صابراً، اسمه المسيو ميشيل.

ثم جاءنا مدرس لبناني نصراني، قصير القامة، غريب الشكل، له تاربان  
دقيقان مفتولان، يأتيان من تحت منخره، ويمداد إلى الأمام، كأنهما رجلا  
عنكبوت، يخرج صوته من أنفه ويمر على شاربيه. بالكلمة الفرنسية يلحق بها  
ترجمتها العربية، بصوت ثاقب، كأنه صوت دجاجة حاءت تبيض معلقة البيضاء  
ب... أعني بمخرجها منها، ولم يطل بحمد الله، مقامه يساء، وصرف الله  
غلاظته عنا.

ثم جاءنا الرجل الدين المذهب الأنيق، الذي يصرب أدبته المثل، الذي  
يحسن الفرنسية كأحسن أهلها، والذي كان ضابطاً في الجيش العثماني ثم في  
جيش الشريف الحسين بن علي وبقي معنا حتى خرجنا من المدرسة، وقد توفي  
من سنيتين، هو شكري الشريجي.

وجاءنا بعده فرنسي استعماري جاهل بلسان قومه يبدو أنه من أجناف  
الريفين في فرنسا هو تريس Tresse، وكان يدرس في الفصول الأخرى أستاذ  
جزائري ندعوه المسيو علي، درست عليه أيام حكم الشريف فيصل قبل  
ميسلون، وهو رجل رقيق الحاشية، حيي الطبع، مهذب اللفظ، توفي من عشرين  
سنة، وأستاذ تونسي ندعوه المسيو صالح (بفتح اللام)، بدين نبيل عظيم  
الشاربين جهير الصوت، ناري الطبع، يؤلف الجملة الواحدة من كلمات

عربية، وكلمات فرنسية يقول (شاكان يقعد في بلاسه واللي يحكي نعمل له البونيسيون) شاكان Chacun أي كل واحد، بلاسه أي محله، البونيسيون Punition أي العقوبة وكانت لهجته نونسية، أخرج طالباً مرة إلى اللوح ليترجم فقال له: (ملك عطش ملقأماً) أي ملك عطش ما لقي ماء، سكن حروفها كلها، ودمج كلماتها دجاً، ووصل أوائل تواليها، بأواخر أواليها<sup>(١)</sup>.

فما فهم الطالب. فغضب وقال: تكلموك بالعربي ما تفهم؟ وقد درسنا قواعد الفرنسية (الكرامير) ولا أزال أحفظ أكثر ما درست، وفقه اللغة Philologie، والتجويد Phonétique، ودرسنا أدبها دراسة عميقة: الأدب الاتباعي (الكلاسيكي) وحفظنا طائفة صالحة من كورناي، وراسين، وموليير ولافونتين، وبوالو، وحطب بوسويه، وأقوال لاروشفوكلد، ولابروير.

ثم درسنا مونتسكيو، وفولتير، وديدرو، وبوفون، ثم درسنا روسو، وشاتوبرياد، ولامارتين، وموسه، وصاحبه جورج صاند،<sup>(٢)</sup> وهوغو، ولا أزال أحفظ قصيدته (البلبل الثاني) وكلماته الرائعة لتأبليون عن المستقبل. ودرسنا دوماس، وبلزاك وفيريس، ومودسان، ودرسنا مذاهب سانت بوف، وتين، وبرونتيير، في النقد لكن لا نستأوي لوم عنها، ولا نمتحنوني فيها، فقد مرَّ عليّ مذ ودعت الدراسة الثانية. وصويت كتب الفرنسية ثلاث وخمسون سنة<sup>(٣)</sup>.

وبعد من الأحكام حسن الطوق بها، لأنني كنت أضرب بكرامتي أن أخطيء في كلامي. فلي. لذلك أقمت في مصر سنوات (متفرقات)، وفي العراق سنوات، وفي لبنان سنة. وفي في السعيدة الآن نحو عشرين سنة متصلة، وما تعلمت في ذلك كله شيئاً من هجات هذه البلاد، ولا بدلت من لهجتي شيئاً، أمر السبب هو الذي ذكرت.

ما أحل من امتناده من (مكتب عبري) فهو التمكن من العربية وعلومها، العفو عنكم فيما افعل هذا ادعاءً ولا فحراً، ولكن تحدثنا بسمعة الله عليّ.

(١) لأولي، لأولي.

(٢) من أدبية معروفة سميت باسم رجل وهو جورج صاند، وكانت صاحبة موسه كتب عنها وكنت أعرفها.

(٣) من سنة ١٩٢٨ إلى الآن.

وأكبر الفضل في ذلك بعد الله للمبارك والجندي .

أقيمت حفلة تأبين للجندي في جامعة دمشق سنة ١٩٥٥ ، أقيمت فيها كلمة طويلة ، كان مما قلت فيها :

(لقد مضى الرجل الذي لم يبق تحت أديم السماء ، فيمن أعرفه أو اسمع به من الناس ، من هو أعلم منه بلسان العرب ، لغة واستقفاً ولحواً وبلاغة وعروضاً ورواية وضطاً ولا من هو أوفى لها ، وأغبر عليها . وأنه لما بعد في ديار الشام من أذهب إليه أنا والأفغاني والمطار<sup>(١)</sup> كلما دهمتنا المشكلات في العربية نحملها إليه ليحل لنا عقدها ، وأن عليه بعد اليوم أن نعتمد على أنفسنا ، كما يعتمد الضابط على نفسه حين يفترق القائد العبقري ، وسط المعركة الحمراء ، وهيهات أن يسد أحد مكان قائد المعركة بين العربية والعجمة ، حجة العرب سليم الجندي) .

الثلاثة الذين من الله بهم عليّ في مكتب عسر ، فقصت منهم وأخذت عنهم : سلام ، والمبارك ، والجندي ،

أما الشيخ عبد الرحمن سلام ، فهو الذي (جرأني على امتطاء صهوات المنابر ، ومقارعة الفرسان في ميادين البيان) (والذي كان عجباً من العجب ، إذا احتاج أن يتكلم في موضوع لم يكن عليه إلا أن يفتح فيه ، ويحرك لسانه ، فإذا المعاني في ذهنه ، والألفاظ على شفتيه ، والسحر من حوله . والأبصار متعلقة به ، والأسماع ملقاة إليه ، والقلوب مربوطة بحركات يديه . وكان يرتجل الشعر كما يرتجل الخطب ، شعراً دون أشعار المطبوعين المجودين وفوق شعر الفقهاء . وكان يرمي الكتاب (كتاب النحر) لا يحفل به . ويتكلم من أول الساعة إلى آخرها في اللغة وفي الأدب وفي كل شيء ، كأنه كان يريد أن يربينا على السليقة العربية بالمحاكاة والمران ، وينفخ فينا من سحره ليجعلنا أدباء قبل الأوان .

وأما المبارك فما رأيت وما أظن أني سأرى مدرّساً له مثل أسلوبه في الشرح والبيان ، وفي امتلاك انتباه الطلاب ، وفي نقش الحقائق في صفحات نفوسهم بهذه الضوابط المحكمة العجيبة التي تلخص في جملة واحدة فصلاً من فصول العلم .

(١) رحمه الله .

وفي يوم من أيام سنة ١٩٢٣ دخل علينا الشيخ سلام ولكن لا كما كان يدخل كل يوم، وألقى خطبته ولكن لا كما يلقي، دخل حزيناً وألقى خطبة الوداع، ثم ذهب وذهبت معه قلوبنا.

وجاءنا مدرس جديد فقعده على الكرسي، وما كان الشيخ سلام ولا الشيخ المبارك يقعدان أبداً، وفتح كتابه وجعل يقرر الدرس، بصوت خافت، لا يكاد يسمع، وكان هو الأستاذ سليم الجندي..

.. وكانت صدمة، وكانت خيبة للأمال، وكانت فجيرة... ووصل إليّ (الدور)، فأقامني على اللوح، وأملئ عليّ بيتين للمعري، وقال: إقرأ، وفسر، وأعرب.

وانطلقت أحطب في موضوع البيتين خطبة حماسية مجلجلة كما علمنا الشيخ سلام، وإذا بالأستاذ الجديد يتسم ابتساماً أحسست كأنها كوب ماء على نار حماسي، بل كأنها سكين غرست في قلبي، وقال بهدوئه الساخر، ولمجته التي لها نعمة السكين وحدها، وقال: بعد، بعد، فسر أولاً معاني الكلمات الغريبة. فوقفت. ثم سألتني عن دقائق الإعراب فوقفت وفقة أخرى، فقال لي: أرايت؟ أتبي الدار قبل نحت الحجارة؟

رأيتي حقاً، أني الدار قبل نحت الحجارة. أي أبني دوراً في الهواء وصغرت عليّ نفسي، بمقدار ما كبر الأستاذ في نظري.

وعدت أبداً قراءة النحو والصرف من جديد، وكان الكتاب الذي نقرؤه هو قواعد اللغة العربية، وهو الجزء الرابع من الدروس النحوية لحفني ناصف وإخوانه، وقد فرات الأجزاء الثلاثة من قبل.

وهذا الكتاب يعي الطالب بل المدرس بل الأديب، عن النظر في غيره، وهو أعجوبة في جمعه وترتيبه، وإيجاز عبارته، واختياره الصحيح من القواعد، وهو أصح وأوسع من شذور الذهب، ومن ابن عقيل.

وعكفنا عليه وملأنا حواشيه البيض بتعليقات الأستاذ وفوائده، ثم ضاقت عنها، فألحقنا بين كل صفحتين من الكتاب، صفحتين أو أكثر نملؤها بما

نستفيد منه، وعرفنا يوماً بعد يوم مقدار النعمة، التي أنعم الله بها علينا حين جعلنا تلامذة سليم الجندي.

وكنا نفاخر إخواننا الذين يقرئهم الشيخ الداوودي، ونأق بالسهاب والمعضلات تنصيدها من كتب الأدب وأفواه العلماء، فطرحها عليهم فحظي نحن من الجندي بأجمع الجواب، بلا مراجعة ولا كتاب، ويرجعون هم بلا جواب.

وما انتفض الداوودي رحمه الله فلقد كان معلماً فاصلاً، وكانت له أخلاق أعطر من زبيب الحقل، وأطهر من ثلج الحل، وله قلب أثنى من الذهب، ولكنه لبس من بابة الجندي، والذهب ذهب، ولكنك إن قابلته بالجوهر المفردة، وأرى بريقه حياء.

وأحببت الأستاذ الجندي حب الولد أباه. وعرفت غدره، فكنت لا أكث عن سؤاله، أسأله في الصف، وألحقه في الفرصة. وأدخل معه غيرة المدرسين، أشرب من معين علمه ولا أرتوي، أتزود من هذا المهمل العذب، لسفري الطويل في بيداء الحياة.

أسأله عن الغريب فلا تعيب عنه كلمة منه، كأنه وعى المعاجم وغيبها في صدره، وأسأله عن التصريف والاشتقاق فيجيب على السببة بما يعي العلماء جوابه بعد البحث والتنقيب، وأسأله عن النحو فإذا هو إمامه وحقته، وألقي إليه بالبيت اليتيم أجده في كتاب، فإذا هو ينشد القصيدة التي يسمي إليها، أو أكثرها ويعرف بالشاعر الذي قالها.

لقد كان مدرساً للعربية ولكنه كان أكثر من مدرس، وكان عالماً من علماء البلد بل كان أكثر من عالم، ورب مدرس لا يكون عالماً، ورب عالم لا يكون عالماً إلا في بلده وبين أقرانه، ورب عالم لا يكون عالماً إلا بالنسبة إلى عصره وزمانه.

أما الجندي فكان من أعلم علماء العربية في هذا العصر، وكان واحداً من علماء العربية الأولين، ولكنه ضل طريقه في بيداء الزمان فجاء في القرن الرابع عشر، لا في القرن الرابع.

أقرر هذا بعدما مشيت في البلاد، وجالست العلماء، فما ثم عالم مشهور في



العربية، في الشام ومصر والعراق والحجاز والهند وماليزيا وأندونيسيا إلّا عرفته، لقاء به أو قراءة له أو سماعاً به. عرفت في مصر علماء الجامع الأزهر والجامعة والأدباء والكتاب أعني الكثير منهم، وأنا أؤكد القول صادقاً إن شاء الله أني لم أجد فيهم من يفوق في حفظه وضبطه وأمانته وملكته وإحاطته الأستاذ سليم الجندي.

وكشفت فيه يوماً بحر علم لم أكن أعرفه من قبل.

سألته عن مسألة أصولية فإذا هو أصولي، وإذا هو عارف بالفقه راوٍ للحديث عارف بالتفسير.

ومن هنا جاء علمه بالعربية، إن العربية لا تفصل عن الإسلام.



أذكر أنه لم قدم علينا حفظنا قصيدة المتنبي: وا حرّ قلباه من قلبه شيم.  
فلما كان الدرس استأني قال لنا، المتنبّي شاعر مولد لا محتج بعربيه، فأعرضوا عن هذه القصيدة، رخصاً (ولا زلت أحفظ الكثير منه) المتنبّي المختار، من شعراء الشعراء ادهش للإسلاميين. ممن محتج به في اللغة، وكان ينهانا عن قراءة الصحف ومجلات حثية لا تفسد ملكاتنا، وتدخل اللحن علينا.

حزى الله عبي الشحير المارك والجندي خيراً، وجزى الخير كل من غمى عليهم وبعدمهم، فسبها أخذت حل بضاعتي في العربية.

## شغلي الدائم المطالعة

بقرع التلاميذ اليوم أبواب المدارس المتوسطة، وما معهم من العلم إلا ما كان في كتب المدرسة الابتدائية. وكثير منهم لم يقرأها كلها، أو قرأها ولكن لم يفهمها كلها، أو فهمها ولكن لم يحفظها كلها.

وما ذاك لأنهم أقل منا ذكاءً أو أضعف إدراكاً، بل لأننا كنا أشد منهم رغبة في العلم وتقديراً له، وحرصاً عليه. كنا نفرح إن ازددنا علم مسألة لم نكن نعلمها، وهم يفرحون إن حُطَّت عنهم مسألة كانوا سيكلفون علمها.

ثم إننا لم نكن نجد ملهاة تصرفنا حقاً عن التحصيل، وهم لا يجدون لكثرة الملهمات ووفرة التسلية، وقتاً للتحصيل.

\* \* \*

أنا لما وردت (مكتب عنبر) كنت أحمل مع الشهادة الابتدائية في يدي، ذخيرة من المعلومات في رأسي، لا يقوى على حمل أكثر منها، فتى في سني. وما ألزمتني المدرسة بها، ولا حصلتها فيها، بل جمعتها أو جمعت أكثرها وحدي من خارجها.

لقد قرأت قبل (مكتب عنبر) وفي سنواتي الأولى فيه كتباً لا أكون مبالغاً، ولا مدعياً مغروراً، إن قلت إن في الأساتذة اليوم من لم يقرأها. ذلك أي كنت أمضي وقتي كله، إلا ساعات المدرسة، في الدار. لم أتخذ لي يوماً رفيقاً من لداقي، ولا صديقاً من أقراني، ولم أكن (بحكم تربيتي ووضع أسرتي) أعرف الطريق إلى شيء من اللهو الذي كان يلهو بمثله أمثالي، فلم يكن أمامي عمل

أنفق فيه فضل وقتي، وأشغل به نفسي، إلا المطالعة.

وكانت في دارنا مكتبة كبيرة، وهي دانية مني، كتبها كلها تحت يدي، ولم أكن (لشغل أبي عني) أجد من يرشدني ويدلني، لذلك كنت (كما قلت من قبل) أسحب الكتاب لا أدري ما هو، فأفتح فأنظر ما فيه، فإن لم أفهمه، أو فهمته ولكن ما أسغته، أعدته، وقد علق في ذهني اسمه، وإن فهمته وأسغته قرأته.

وكان أول ما قرأت كتاب (حياة الحيوان للمدبري)، وهو كتاب عجيب فيه فقه، بل هو أقرب مرجع لمعرفة الحكم الشرعي في الحيوان الذي يؤكل لحمه والذي لا يؤكل، وفيه تاريخ، وفيه مبادئ، وفيه حرافات ثم قرأت (المستطرف) و (الكشكول) وهما من أدب عبسور الانحطاط والتأخر. ثم وقعت يدي على (الأغاني) لأبي الفرج، فعلقت به، وقرأت أكثر أجزائه، لا أزعم أنني فهمت كل ما فيه، ولا أنني أحطت به، بل أقول إن الذي فهمته منه نقش على صفحة ذهني. وكنت بحمد الله أحفظ كل ما قرأت. وأكثر ما سمعت، لأن ذاكرتي بصرية M. Visuelle لا سمعية، فأنا يوم الامتحان أذكر مكان المسألة من صفحة الكتاب. وكنت أعرض عن الأسابيد وأتبع الأخبار، فحفظت من أسماء الشعراء والمغنين والعلماء والرواة الكثير، وحفظت كثيراً من الشعر أخذت بعضاً منه بلا ضبط ولا تحقيق. وقد سمعت أستاذنا الحندي مرة، يروي بيتاً فيه لحن، فأبديت عجبني فضحك وقال: سببه أي حفظته كذلك منذ الصغر.

ونظرت على مدى سنين، في أكثر كتب اللغة والأدب التي كانت مطبوعة في تلك الأيام. لأن جدي كان مولعاً بالكتب، فلا يسمع بكتاب ظهر إلا اشتراه وأودعه مكتبته، وتبعه أبي في (بعض) ذلك. وكانت أكثر الكتب عندنا (ميرية) من طبعة بولاق. والكتاب المطبوع في المطبعة الأميرية في بولاق، يباع بأضعاف ثمن المطبوع في غيرها (أي البراني)، ذلك لأن المصححين فيها كانوا من أعلام العلماء، وحسبكم أن يكون منهم الشيخ نصر الهوريني، صاحب (المطالع النصرية) أوثق وأوسع كتاب أعرفه في قواعد الكتابة، وكل من كتب فيها بعده، أخذ منه، ونقل عنه، وأجمع كتاب بعد المطالع، هو كتاب (أدب المُلِي). والشيخ الهوريني المتوفى سنة ١٢٩١ هـ. هو شارح مقدمة القاموس المحيط وكان

بحسن الفرنسية، نعلمها لما أرسل إلى فرنسا إماماً لإحدى البعثات. وتلك سنة حسنة تركناها، هي أن يصحب كل جماعة من المبتعثين إمام يشرف عليهم ويفتيهم.

أما الأدب الحديث فما عرفت منه إلا ما وجدته في مكتبتي، وهو ما كتب المنفلوطي رحمه الله وما ترجم له، فصاغه بقلمه صياغة جيدة، ولكنها فصلته عن أصله، وأبعدته عن مراد كاتبه، وشيئاً آخر: محلاً نادراً ما أحسب أنه بقي منه إلا نسخ قليلة، هو مجلد السنة الأولى من مجلة (الرابطة الأدبية) التي تألفت في دمشق سنة ١٩٢١. وقد وضعت لها قانوناً صادقت عليه الحكومة في ١٢/٣/١٩٢١ ولا بدّ لمن شاء أن يؤرخ للنهضة الأدبية في سورية من دراسة هذه المجلة

وكان من اعضاء الرابطة الأساتذة: سليم الجندي، وشفيق جبري، وحليل مردم بك، وعمر الدين التنوخي، وأحمد شاكر الكرمي، وزكي الخطيب، وعبدالله النجار، وحبيب كحالة، ومحمد الشريقي، وماري عجمي، وحليم دموس، ونسيب شهاب.

وقد وجدت في المكتبة كتاباً صغيراً، كشف لي طرف الستار عن عالم خفي مثير. هو ما يدعى اليوم (مسائل الجنس)، ولكني ما فهمت عنه من الكتاب إلا القليل، فأعدت فراءته حتى كدت أحفظ عباراته، ولكني ما حاوِزت في فهمه هذا القليل. هو كتاب (البيان في أصل تكوين الإنسان)، مؤلفه العالم الفقيه، والمحامي الرجيه أحمد بك الحسيني ونسبت أن أجد من يشرحه لي. ولكن أنى!

حتت (مكتب عسر) ومعني هذه الدحيرة، ومعني أيضاً ما ألزمت حفظه من المواد القيمة اس مالك، والجمهور المكسور، وكفاية الغلام، والجوهرة، وغيرها. وأقول أسداً إلى سبتها كلها . . .

ومعني حصيلة ما كنت أسمع من أبي ومن أصدقائه وتلاميذه في مجلسه ومجالس إخوانه التي يأخذني معه إليها من الفوائد والفرائد، والطرائف واللطائف، ومجموعة كبيرة من أخبار علماء الشام في القرن الماضي.

وكنْتُ واثقاً من ذاكرتي، فلم أستودع الورق ما قد تضييعه الذاكرة. وكان ولا يزال من عيوب التأجيل، فكنت أزمع كتابتها ثم أؤجل الشروع فيها، حتى وقع المحذور، فجنّت أدونها في هذه الذكريات فإذا أنا قد نسيت ما كنت أحفظه، وأملأ المجالس بروايته. ولم أجد ورقة مكتوبة أرجع إليها... ومع ذلك فإنّي أشكر الله الذي ألهم الأستاذ زهيراً الأيوبي، إلراي كتابتها، فلأر أكتب منها أقلها، خير من أن أفقدها كلها.



مثبت في دراستي من أول يوم في الطريتين معا... طريقة المشايخ وهي على الأسلوب الأزهري القديم، وطريقة المدارس النظامية التي سلكتها من أدنى الابتدائية إلى أعلى الجامعة، وأخذت من الاثنين حبر ما وجدته فيهما، ولكن الذي كان أجدي عليّ، وأنفع لي منها، أو هو في الجمع مثلها، هم المطالعة.

فإننا اليوم، وأنا بالأمس، كما كنت في الصغر، أمصبي يومي أكثره في الدار أقرأ، وربما مر عليّ يوم أقرأ فيه ثلاثمئة صفحة. ومعدل قرائي مئة صفحة، من سنة ١٣٤٠ إلى هذه السنة ١٤٠٢هـ.

اثنان وستون سنة. احسبوا كم يوماً فيها، واضربوها بمئة، تعرفوا كم صفحة قرأت. أقرأ في كل موضوع، حتى في الموضوعات العلمية، بل والفنية والموسيقية. هذا غير النظر في الجرائد والمجلات.

وقد قابلتنا المشاق أول عهدنا (بمكتب عتير)، لأننا كنا في مطلع العهد العربي ولم تكن لدينا كتب عربية مطبوعة، فكنا نصنع شيئاً لا يعرفه، بل لا يتصوره الطلاب اليوم، هو أننا كنا نأخذ أمالي المدرسين ممن سبقنا من الطلاب، فننسخها بأيدينا. ولقد كتبت آلافاً (آلافاً حقيقة لا مبالغة) من الصفحات، في التاريخ القديم والأوسط والحديث والجغرافيا: الطبيعية والسياسية والاقتصادية، والكيمياء المعدنية والعضوية، والفيزياء، وعلم الحيوان والنبات والجبر والمثلثات والهندسة المسطحة والفراغية والنسبية، وسائر العلوم. فضلاً عن الفرنسية التي كنا ندرسها كما يدرسها الفرنسيون في بلادهم: المناهج هي المناهج، والكتب هي الكتب...

سهرنا الليالي الطوال نكتب، ما يجده الطلاب اليوم مطبوعاً أجمل طبع،  
موضحاً بالصور والخرائط، في كتب توزع عليهم (هنا في المملكة) بلا ثمن.  
ولقد شهدت في السنة الأولى من (مكتب عنبر) شيئاً لم أر مثله من  
قبل...

رفض الطلاب يوماً الدخول إلى غرف الدراسة، وعمّ المهرج والمرج  
والصياح، وأنا مثل الأطرش (أي الأطروش)<sup>(١)</sup> في الرقة، يرى ولكن لا يسمع  
ما يقال. وأنا أرى وأسمع ولكن لا أفهم ما القصة!  
رأيت حركة: ناساً يدخلون وناساً يخرجون، ورجال يأتون إلى المدرسة  
بجاولون تهدئة الطلاب ثم يرجعون.

وكب صغيراً مبتدئاً فلم أدر ما الذي يجري، ولم أسأل لأنني من تلك  
الأيام متوحد متريد، لا أعرف أحداً من الطلاب الكبار لأسأله، ورفاقي الصغار  
مثلي، لا يعرفون، ثم فهمنا أن الثورة قد نجحت وأن المدير قد ذهب، وتولى  
الإدارة المفتش العام للمعارف في سورية، المربي الكبير، أستاذنا في السلطانية  
الثانية على عهد الشريف الأستاذ مصطفى تمر.

وكذلك برى في كل يوم دليلاً جديداً على أن هذه الأمة، أمة محمد، والشعب  
العربي منها على التخصيص، لا توحد بالعنف، ولا تصبر على الضيم، وإن هي  
اضطرت إلى الصبر حيناً فستثور عليه حتماً. فإن هي ثارت فلمن ظلمها الويل،  
لأنها لا تبالي حينئذ بشيء، ولا يقف أمام ثورتها شيء، لأن الحق معها، ومن  
كان الحق معه فإن الله معه، ومن كان الله معه لم يقلب أبداً.

الحق لا يجرم، والإسلام لا يبدل. وأهله هم أصحاب العزة ولكن الله  
يمنحهم، لتفوزهم المحن، أو يؤذيهم في الدنيا ليضعف لهم الأجر في الآخرة، أما  
الخاسر فهو الظالم وإن له في الدنيا الويل، والذي ينتظره بعد الموت يجعله ينمى  
هذا (الويل)!

\*\*\*

(١) البرقة عذبة مصححه. والطرش والاطروش عربية مولدة

مصطفى تمر، كان من أجل رجال التربية الدين عرفتهم دبار الشام.  
وكان الركن الركين في المعارف، العالم المتمكن، المفضل على أكثر المعلمين في  
ذلك العهد. لما مات لم يمر في جنازته عشرة رجال!!.

رحمه الله، فإن دعوة بالرحمة للمؤمن مات، من مؤمن ينتظر الموت. أجدي  
عليه من حفلات التأبين، وقصائد الرثاء، وكل ما ينوهم الناس أنه الطريق إلى  
تخليد ذكرى العظماء. كل ذلك زائل، ولا خلود إلا للمؤمنين في الحنة، وللكفار  
في النار.

اللهم بمضلك ورحمتك - لا بعلي - احري من النار وأدخلني الحنة، أنا  
ومن قال: آمين.



كانت (وزارة) المعارف كلها، في أربع غرف كبيرة. من قصر الحكومة  
(أي السراي): غرفة الوزير، وغرفة فيها الأستاذ شفيق حري، شاعر الشام  
وكان في منزلة الأمين العام للمعارف، (أي وكيلها) ولأستاذ مصطفى تمر المفتش  
العام، وغرفة (كبيرة تقسمها إلى غرف صغار، حواجز من الخشب) فيها الدبوان،  
ورئيسه الأستاذ عبد النبي القلعي، والمحاسبة، ورئيسها الأستاذ مصطفى  
القباني، وغرفة مثلها للمستشار، وكان معاونه كلهم من النصارى، وما كان  
ذلك اتفاقاً بل كان شيئاً مقصوداً، وكان مستمراً في كل حين. ومع كل حاكم  
أجنبي أو ماش على مذهب الأجنبي، رئيس ديوانه اسبرمباكوس، وترجمانه  
ميشيل السبع.

وكان مجموع العاملين في المعارف أحد عشر فقط، ومعهم المستشار  
الفرنسي الذي كان هو الوزير الحقيقي وهو الأمر النهائي، وأعوانه النصارى.



أقام معنا الأستاذ مصطفى تمر قليلاً، حتى إذا هدأت الحال، كلف بإدارة  
المدرسة أستاذنا جودة الهاشمي، وهو جزائري الأصل، ثم عين لإدارتها جزائري  
آخر أستاذ رياضيات قديم أسن من جودة بك ولعله كان (كما سمعنا) أستاذه،  
فأدارها حتى خرجت أنا منها.

وكان للمدرسة (مدير ثان) يأتّمر بأمر (المدير الأول) ويتولى الأعمال الإدارية، وكان المدير الثاني عند دخولي المدرسة الدكتور كامل نصري، ثم الأستاذ عبد الفتاح ملحس، وهو فلسطيني، وهو أخو الأستاذ رشدي ملحس، ثم الأستاذ عبد الرحمن السقرجلاني، ابن الشيخ عبد السقرجلاني. وكان الأستاذ عبد الرحمن شيخ المعلمين بعد الأستاذ سعيد مراد، الذي كان مديراً في السلطانية الثانية سنة ١٩١٨.

عاش الأستاذ عبد الرحمن حتى رأى من تلاميذه من جاوز السبعين، ومن وصل إلى أعلى المناصب. ولقد كنت مرة في زيارة شيخ قضاة سورية، الأستاذ مصطفى برمدا، رئيس محكمة النقض، وكان عنده الأستاذ عبد الرحمن، والأستاذ جميل الدهان المدير العام للأوقاف في سورية، وكان الحديث عن أيام المدرسة، واشترك فيه الثلاثة. فقلت: هل كنتم في مدرسة واحدة؟ قال الأستاذ عبد الرحمن: نعم. قال مصطفى بك: نعم، ولكننا كنا نلاميذ وكان هو أستاذنا.

ودخل بعد بصورة قديمة فيها الأستاذ عبد الرحمن قاعداً مع المدرسين وله شاربان كبيران. ومعهما مع التلاميذ.

ومن تلاميذه سكري بك القوتلي الزعيم الوطني ورئيس الجمهورية.

رحم الله الجميع، «تواى على إكمال هذا الحديث، وأعان القراء على احكامه»



## ثورة في المدرسة

مرّ على دخول الفرنسيين دمشق أربع سنين، وجاءت الخامسة، وكانت دمشق تخطط الحرف ينتظر أن تلامسه النار ليشتعل. ومن شأن الخطب الجزل أن يبطن دحور النار فيه ويبطن خروحها منه، فلا بد لاشتعاله من أعود صغار، أو حرمة من الفش، وكان الطلاب بمثابة هذه العيدان وطلاب (مكتب عنس) على التحصيص ففي سنتنا الأولى فيه كانت الثورة (ولا أقول الثورة) على المدير الأمرالي أي الكولوبيل سابقاً في الجيش العثماني شريف بك رمو، وكانت محدودة جداً إذ المدرسة لم تجاوزها.

وفي الثانية (وقت في نصف الثامن) كانت ثورة أكبر، خرجت من المدرسة. فامتدت وتوسعت حتى شملت البلد كله، وشارك فيها أهله جميعاً وكانت الحفلة الأولى في سلسلة الصال للاستقلال التي بدأت بهذه المظاهرة<sup>(١)</sup>، ثم تعاقب فيها لمظاهرات، ثم كانت الثورة الكبرى، ثم عدنا إلى حرب الشوارع، وسلاح الانتماءات، والاضطرابات، حتى كان الحلاء التام.

أقتصد حلاء الأجبي بحيونه عما. حتى لم يبق له حندي واحد ينظر على أريسا، ولا قلعه مد وجهه إليه. ولا راية ترغرف فوق رؤوسا. ثم هذا الحلاء، ولكن لم تجل افكاره عن رؤوس أولادها، ولا مبادئه عن أحزابنا، ولا مناهجه عن مدارسنا، ولا فوابينه عن محاكمنا.

(١) بل كانت قبلها حلقة يوم وصلت دمشق بعثة كراي الأميركي لتفصي الحقائق ولم أشهدها ولكن سمعت حبرها

وهذا هو الاستعمار الذي يهون معه استعمار الدبار إن الماء الذي  
بدرها المستعمر قبل رحيله أثبت نباتا لم ندى مثل مرارته أيام الاستعمار، ثار ما  
أنقاه وينا بعد نزوحه عما أشد علينا مما حمله معه لما جاءنا

فكيف أخرجت أرضنا السم الذي يودي بنا؟ كيف رأسا من حرج من  
أصلا بنا من هو أنكى علينا من عدونا؟

دعوني أقل كلمة ليست من الدشابات، لقد ربيت في عهد عمر الذي  
عشته من تبدل الدول، وثغور الحواب، هو عرفة من عهد من شاء،  
يعتبر، إنه من مر بها عهد على كثرة ما من سيوف، إلا بكبا فيه منه، وبكبا  
بعده عليه!.

أفقدنا علينا أن نستكبر الشر ضاء، نحن من هو شر منه فطبه  
فيأبانا؟.

استكبرنا التقسيم في فلسطين، ثم رأينا ما هو شر من هذا التقسيم.  
وأبينا ما كان قبل سنة ١٩٦٧، ثم عدنا نطالب بإزالة آثاره وعدونا. ولعوده إلى  
ما قبل ١٩٦٧، وأمثلة كثيرة على هذا الأصل

هذا واقع السياسة، وموقف أهلها، أما نحن، نحن مستسلمين. فلا من  
وإن مسنا الضر، ولا نحزن وإن حاق بنا الأذى. ولا يسلم في دين الله ولا  
نوالي عدو الله، وتؤمن بأن الله الذي نزل الذكر هو الذي يحفظه. وإن العاقبة  
للتقوى، لا ترتاب بديننا، ولا تشك بوعده ربنا.

\*\*\*

نحن في سنة ١٩٢٥ والبلاد تتمحض بالثورة، وكأنها (برميل) بتزين: نار  
كامنة لا تحتاج لتظهر إلا إلى شرارة، نفوس متوثبة مستعدة للهجوم لكنها ترقب  
الإشارة.

وجاءت الإشارة، لا الإشارة للثورة فلم يثن أوامها، بل لإحدى  
مقدماتها....

هل تعرفون قصة المحتال الذي وجد غنياً مغفلاً، فأحب أن يسلبه ماله  
فباعه الأهرام؟.

لقد اشتهرت القصة حتى جعلوا منها مسرحية!

إنه مجرم، باع شيئاً لا يملكه، وأخذ به ثمناً لا يستحقه. والذي اشترى  
أحق لأنه ظن أنه ملك الشيء الذي اشتراه ممن لا يملكه... ربما كانت  
القصة مكذوبة متخيلة، فما تهمني صحتها، ولا جئت أحقق خبرها، بل جئت  
أروي قصة مثلها، من نوعها وجنسها، ولكنها أكبر منها، وأشد ضرراً وأعمق في  
الشر أثراً، وهي بعد صحيحة لا يجادل أحد في صحتها.

قصة رجل، وهب أرضاً لا يملكها هو، ولا أبوه، ولا قومه، لمجموعة من  
الصوص الأشرار، ما لهم فيها ذرة من الحق... ولا كهرب واحد (ألكترون)  
من كهارب الذرة الواحدة.

وهب فلسطين لليهود الملاحين!

وإن قلت ملاحين، فما أشتمهم، بل أصفهم بما خبر ربنا أنه فيهم  
﴿لعن الدين كذبوا من بني إسرائيل، على لسان داود وعيسى بن مريم﴾.

لعن الذين كذبوا بآيات من أنبيائهم، وكل ما بقي من بني إسرائيل اليوم،  
هم من الدين كفروا. لأن القاضي الذي يحكم بقانون أطل أو عُدل، ويرفض  
التعديل الذي أمر به من وضع القانون، هذا القاضي بزلونه من قوس  
الحكمة. إلى قصص المتهمين.

وكذلك، كل من اتبع شريعة رسول. بعث الله رسولا بعده بعدلها أو  
يطلبها

وصور هذا الرجل واسمه (بلفور) إلى دمشق، كان الشارة التي فجرت  
دمبل السري

ما كان جمهور الناس يعرف بلفور الوزير البريطاني، ولا وعده الذي تحمل  
دولته ورره وما كانت قضية فلسطين قد ظهرت وعرفت وصارت القضية  
الكبرى. الذي عرف قصة هذا الوعد الأثم هم طلاب (مكتب عنبر). لقد

نساءلوا، من الذي اعطى هذا الرجل حق التصرف بفلسطين؟ كيف سمح له هذا شرفه إن كان له شرف؟ كيف برّره له عقله، وله ولا شك عقل؟.

وغضب الطلاب، وزاد غضبهم أن هذا الرجل سيزور الجامع الأموي..

كلا، هذا لن يكون، وخرجوا بالمظاهرة، وانشطرت المظاهرة شطرين، أما أحدهما فذهب إلى الأموي فأغلق أبوابه كلها، وأما الآخر فتوجه إلى الرجل في فندق فيكتوريا، الذي كان مقابل المصرف، على الضفة الأخرى من بردي، فذهب الفندق ومشى فوق رفاته شارع، وركب ظهر الشارع جسر يمر عليه الناس والسيارات. ودفن تحته أشهر مدو عرفته دمشق (أوتيل فيكتوريا) على اسم ملكة الإنكليز العجوز.

\*\*\*

لا نسألوني أين كنت في ذلك اليوم؟ وأين أنا من أحداثه؟.

إن جوابي ليس في مصلحتي، إنني لم أكر في العير ولا في النفير، لا في (القافلة) ولا مع المقاتلة.

لماذا؟ لأنني (صدقوني) لم أكن أدري بشيء من كل ما حدث.

ومن أين أدري وأنا أعيش بين بيتي ومدرستي، ما لي صديق أسأله، ولا عندي صحيفة أقرؤها، ولا كان في الدنيا إذاعة أسمعها.

لذلك ذهبت إلى المدرسة كما كنت أذهب كل يوم، فلم أحد فيها أحداً فعمجت. وقرع جرس الدخول إلى الصف فدخلت وكنت وحدي، وجاء المدرس لأنه لم يكن يستطيع ألاّ يجيء، ونظر إليّ ووجهه ينطق بالازدراء لي.

أنا وعدت في مقدمة هذه الذكريات أن أقول الحق، أقوله بلا تزويد إن كان لي، وأقوله بلا تردد إن كان عليّ.

لقد كان الحق مع المدرس أن ازدراني.

كيف لا يُزدري طالب يخالف إخوانه كلهم، ويتجاهل موقف أهل بلده جميعاً؟.

من يصدق أنني لم أدر بشيء؟ من يصدق؟

وخرجت أجر رجلي، فوجدت باب المدرسة مفتوحاً، فخرجت، وكانت سوق الحميدية مغلقة ما فيها أحد، ووصلت إلى شارع النصر - شارع جمال باشا - الذي لم يكن في دمشق شارع غيره، فصرت في وسط اللج... .

بحر من الناس تلتطم أمواجه، يهجمون، يرمون الجنود بالحجارة، ولقد رأيت رجلاً أمسك بحجر ربما زاد وزنه على كيل، فذف به من فوق الشجرات الكبار التي كانت في الشارع... .

... فإذا كر عليهم الجند فروا، فإذا ولوا رجعوا، فدخلت بين الناس عليّ اعتذر أمام نفسي، بأني شاركت الناس فيما هم فيه.

\*\*\*

كان ذلك سنة ١٩٢٥، فاسمحوا لي أن أقفز إلى الأمام أربعة أعوام، لأنني لا أحب أن ادعكم اليوم وهذه الصورة هي صورتي في نفوسكم، إلى سنة ١٩٢٩ وأنا يومئذ في شعبة الفلسفة، وقد نجحت في امتحان البكالوريا.

بقيت على عرلي إلى تلك السنة، فجئت يوماً فخبرت أن جماعة من الطلاب منهم أخيب الشاعر أنور العطار، رحمه الله، قد طردوا من المدرسة ثلاثة أيام، لأنهم خالفوا أمر المراقب وسهروا محتفلين بليلة النصف من شعبان، فلم أبال بالأمر. ولم يباله إخواني، لأن العقاب طفيف، والسبب هين، والاحتفال بليلة النصف من شعبان لم يأمر به الدين، ولم تجر به السنة.

ومت في موعدي لا أفكر في ذلك، حتى إذا كان السحر، فإذا أنا بفكرة تسيطر عليّ بلغ من قوتها أن أيقظتني من منامي هي أن أذهب إلى المدرسة صاحبا فأنتظر قرع الحرس للمدرس، فإذا قرع وقفت على واحد من هذه المقاعد المحيطة بالساحة، فحطت أذعوا إلى الإضراب أو بعباد من طرد من الطلاب.

وصلت الفجر ولبثت قاعداً أرقب طلوع النهار، فما كاد يطلع حتى وليت وجهي شطر المدرسة، ولم يكن لي أب استأذنه، فقد توفي أبي قبل تلك السنة، ولم يكن لي أخ كبير أستشير. وكنت أصدر عن رأي نفسي وحدها. ووجدت

باب المدرسة مغلقاً لما يفتح، فمررت برفيقي محمد الجيرودي (المحامي) وكان يسكن بجوار المدرسة، فأمضيت عنده ساعة، وخضت معه في كل حديث، ولكنني لم أعرج على ما في نفسي، ولا أشرت إليه، وذهبنا إلى المدرسة معاً، فلما قرع الجرس، وهما بالدخول وقفت فخطبت، وهيجت وحمست، ودعوت إلى الإضراب.

فاستجابوا جميعاً، لا لما ألقى عليهم، بل لما كان من الاستعداد في نفوسهم، فقد كانوا يلبون أن دعوا بهمة يمس بها صاحبها ويختبىء، فكيف وقد دعوا (لأول مرة) بخطبة معلنة يلقبها صاحبها ويقف؟.

ذلك لأنها كانت أيام نضال، وكانت الأمة كلها كالجنود في الثكنة، ينامون على استعداد، ويقومون على استعداد، لا يسمعون صوت الداعي، حتى يقرعوا إلى أسلحتهم ويهبوا سراعاً إلى صفوفهم، فلا ترى البلدة هادئة مفتحة أسواقها حتى تسمع من كل دكان صوت الغلق ينحدر، وترى المظاهرات قد قامت، ودبابات الفرنسيين قد نزلت، والمعارك قد ابتدأت.

لم يكن مكتب عنبر في الحقيقة مدرسة، بل كان بومئذ مجمع الشباب المثقف، ومصدر كل حركة وطنية، وكان لب البلد.

وكانت الاضرابات تعد في الخفاء لئلا يعرف من دعا إليها فيعاقب، فلما رآني الطلاب أجهر وأعلن، لا أحتفي ولا أتوارى، عجبوا مني، وأعجبوا بي. وصرت في لحظة زعيم المدرسة<sup>(١)</sup>.

وجربت الإدارة الترغيب والترهيب، ولجأت إلى الوعيد والتهديد، ونزل المراقب، ثم المدير الثاني، ثم المدير الأول والأساتذة، فكنت أرد على كل محاولة بخطبة جديدة، فوجدوا الأمر أصعب مما كانوا يقدرون ويعرفون، فخبروا الوزارة.

فجاء مدير المعارف الأستاذ شفيق جبيري، فألقى كلمة أدبية بليغة،

---

(١) من مقدمتي لكتاب (مكتب عنبر) تأليف الأستاذ ظافر القاسمي. وقد توفي سنة ١٤٠٢ هـ وأصغر مني سناً، وكان في المدرسة بعدي بسنوات.

وردت بكلمة أذهبت أثرها، ثم جاء الوزير نفسه، وكان أستاذنا الكبير محمد كرد علي، فصحت به من مكاني: يا معالي الوزير. فمضى قدماً ولم يلتفت إليّ. فأعدت النداء فما وقف. فأسمعته كلاماً استوقفه، ثم حول وجهه إليّ فسمع مني، وأجابني.

وكنت يومئذ في قمة القدرة على الخطابة والارتجال، لا أحتاج إلا إلى ابتداء الكلام حتى تنثال عليّ المعاني، وتزدحم الخواطر، وينطلق اللسان يعبر عنها ببلغ الكلام.

وكنت يومئذ، فتيّ الذاكرة، كثير المحفوظ، لم تضعف ذاكرتي الأيام، فكانت كل حطبة كأنها قطعة أدبية من الأسلوب الفحل، تفيض بالآيات والشواهد والأساطير، فضعف مع الأيام جنائي، وكلّ لساني، على أن في بحمد الله بقية (لا يزال) تسر الصديق، وتكبت العدو<sup>(١)</sup>.

وفتح باب المدرسة، فخرجت وخرجوا ورائي، وكان حولي فئة من الشباب الأقوياء، وحرس الخاص عبد الستار العلمي (الدكتور الذي كان هنا. رحمه الله) وكان معي من يحمل سلماً قصيراً، فحيثما تجمع الناس صعدت عليه وحطت.

نفدنا إلى سوق الحميدية، والمسجدار، فالمرجة، فإلى قصر الحكومة، وجيب سري. غلفت المخازن ومسى الناس وراءنا، حتى أحاطت جموع لا يتصحب عاد بالمتصر، والبلدية القديمة. وإدارة الشرطة.

صعدت على العمود التذكاري، من قصر الحكومة، أخطب وأنادي رئيس الحكومة. ففتح باب الشرفة الكثيرة. وأطل منها علينا، وكان الرئيس الشيخ نوح الدين من الشيخ بدر الدين الحسي، وكانت خطبة كلماتها من نار الحميم، وأسليها من همة العواصف.

سقى الله تلك الأيام.

(١) من مقامه (مجلسه) بقية الكلام هناك

لقد أسكرني هذا الفوز، فكدت أتحرج فأتحدر في هذا الطريق، أولاً  
أن تداركني الله فأراني عاقبته، لقد اغتررت بالحلاوة في أعلى الكاس،  
فأذاقني الله طعم المرارة في أواسطها وفي قعرها.

وعد الشيخ تاج، وهذا، وشجع، بل وشكر فلما تفرق الجمع وصرت  
وحدي أمسكوا بي فلم أنتبه إلا وأنا في حاشرة (زنزارة) طيل أرضها متر،  
وعرضها متر، وحيد فريد، ليس حولي من أخطب له، ولا من يقصف لي، لا  
أستطيع أن أضطجع، ولا أن أمد رجلي، وليس من حولي إلا حدة، ان مغلفة،  
ليس لها نافذة، ولا معي فيها أحد  
فقدت أفكر.

كنت في أول النهار طالباً مغسوراً يمشي في جماعة الناس، لا يعرفه أحد،  
فيضره أو ينفعه، فما جاء الظهر حتى صرت علم البلد، وأصحيت ملء الأبصار  
والأسماع. فما صار العصر حتى كنت سجيناً دليلاً مسلوب الحرية، معرضاً  
للأذى.

هذه هي حياة السياسيين المغامرين: يوم في الذروة ويوم في الخضم،  
يأكلون يوم السبت (البفلاوة)، ولا يجدون الأحد ولا الخبز اليابس. إنهم كالذي  
يحتل مقعداً في الصف الأول من المسرح، إنه أكبر، والمنظر فيه أحمل ولكن ليس  
له رقم، ووراءه من ينتظر غفلته، ليرميه عنه، ويحتله دونه.

أفليس خيراً منه، مقعد في الصف الثاني، ولكنه مرقم، محفوظ، إن قمت  
عنه، رجعت إليه، فوجدته.

وقررت من ذلك اليوم أن أقعد في الصف الثاني.



## صفحة جديدة في سفر حياتي

دخل عليا تمثال ١٣٤٣. ونحن في الدار الثالثة التي استأجرها والذي في الصاحبة، وكانت من الدور الواسعة، فيها غرف كثيرة، ولها (إيوان) وطبقة عالية لفصل الشتاء. وكانت أعلى من نهر (يزيد) فلا يصل ماؤه إليها. ومياه (الفيحة) في اسفل بعمامة فقط - لم تكن قد جرت إلى البيوت - فكانت البيوت تستقي من الماء من أنهارها الماء من نهر (يزيد) والناس يسحبون المياه من الآبار بالمضخات، وكان في صحتها تقوية لعضلات اليد، ورياضة ونشاط للبدن. ولكن أرى كذا - يريد الراحة لأسرته، فما كاد يسمع بوصول المحركات الكهربائية إلى دمشق، حتى عاد أول محرك (موتور) مركباً في دارنا، اشتراه من السيد حمد الفارسي وكان من بروريا من الرجال والنساء، يتعجبون منه، لأنه لم يكن قد رأوا مثله

وكان سعد لمصان، لأن الضيوف يردون في رمضان، ونحن لا نكاد نحلهم سائر أيام السنة، وقلما كاد والذي يأكل وحده، أو يأكل مع أهله، لا في أنظور ولا في العشاء، وما كان يمر يوم لا بروريا فيه عمالي (أعني حالي أبي يكتب أدمهم - محمدين)، وأثناء أحدهم بعض تلاميذ أبي أو بعض أصحابه، فلا يرد إلا (صواب) الطعام داخله إلى المجلس. في وقت الطعام وفي غير وقت الطعام وكانوا يمدون السماط ويأكلون على الأرض، أما الشاي فلا ينقطع بمحسب (السماور) ويقوم أحد الضيوف بإعداده.

وكان عمي الشيخ عبد القادر رحمه الله (يلقب) الشاي الأخضر، وما كنا

نُشرب غيره، ثم يذوقه، فيعدله ثم يذوقه، حتى إذا ذهب بصف (البياد) راده ماء، وقدمه للحاضرين. . . .

وكانت الدار مفروشة فرشاً دون فرش الأغنياء، ولكنه فوق فرش الأوساط من أمثالنأ. والخبر كثير، والمؤونة والفاكهة و(النفل) لا تأتي إلا بالأكياس أو الصناديق.

وما مضت من شعبان إلا أيام حني مرض أبي، وكان صعب الجسد. أما صحتنا (أنا وإخوتي) بفضل من الله أولاً وأخيراً، ثم بالإرث من جدي<sup>(١)</sup> وقد كان قوياً بالغ القوة، متين البنان. ومن أمي وكانت بحمد الله صحيحة الجسم، ما رأيتها مرضت يوماً.

وما كان في دارنا تلك على سمعتها غريفة تملؤها أشعة الشمس، وهو محتاج في مرضه إليها، فجاء أحد تلاميذه وهو السيد كامل بكر، فأحذه إلى داره وهي قريبة منا بمرضه فيها.

وكان تلاميذه: الشيخ هاشم الخطيب، وأخوه الشيخ عبد الرحمن، والشيخ محمود العقاد، والشيخ محمود الحفار، وأخوه الشيخ عبد الزاق. والشيخ عبد الوهاب دبس وزيت، وبعض من إخوانه: كالشيخ موسى الطويل، وبعض تلاميذه في التجارية من الأطباء: ابن خاله الدكتور طاهر الطنطاوي، والدكتور سهيل الخياط، والدكتور محمد سالم، وبعض من كان معه في ديوان المحكمة، كالأساتذة: صبحي القوتلي، ومحمد علي الطيبي، وعارف حمزة، وإبراهيم السيوفي.

كل هؤلاء، ومن نسيت أكثر ممن ذكرت، لم يكونوا يتركونه، بل كانوا يوالون عيادته، وكانوا يسارعون عن حب ووفاء إلى إجابة طلباته، ويتسابقون إلى تحقيق رغباته، وكذلك كان طلبة العلم مع مشايخهم، فجزاهم الله (وقد مضوا جميعاً إلى رحمته) أفضل الجزاء.

\*\*\*

---

(١) إن صح فانون (ماندل) في الوراثة.

وجاء يوم العشرين من شعبان . . . جاء اليوم الذي بدل مسار حياتي . . .  
كنت أمشي في طريق ممهد إلى غاية واضحة، فتفجرت قبلة، فطمست معالم  
الطريق، فإذا أنا في قفرة لا أدري من أين أمشي فيها، ولا إلى أين . . .

كنا في خيمة تسترنا عن العيون، وتظللنا من الشمس، وتدفع عنا لفع  
الحر، ولذع البرد، وعصف الرياح، فكسر عمود الخيمة فانحطت فوق رؤوسنا،  
فلما خلعنا منها، إذا نحن مكشوفون، معرضون للأخطار، نأكلنا الأنظار، فلا  
نحمينا درع، ولا يسرننا ستار.

في يوم عشرين من شعبان سنة ١٣٤٣ مات أبي.

لكم يعرف معنى كلمة (مات)، لأن كل حي إلى ممات، وما من أحد  
إلا شهد موت عريب، أو فقد حبيب، أما جملة (مات أبي)، فلا تعرفون ماذا كان  
معناها عندي

كان معاشنا في هذه الدار الفسيحة لم تعد دارنا. أن هذا الفرش كله،  
وكل ما في الدار لم يعد من حفتنا، ذلك لأن تركة أبي (رحمه الله) كانت رفياً كبيراً  
كان يعد في ذلك اليوم ثروة، ولكنه رقم علينا لالنا، إنه رقم الديون التي كانت  
عليه، لا المال الذي كان له.

كان (رحمه الله) مرة ثانية. ورحمه ألف مرة) يستدين ليوسع على عياله،  
ويؤتي كل ذي به. ما كان يطر، ولا يحس نظن، أنه سيموت شائاً، لم يجاوز  
عمره ستاً وربعين سنة، وكان قادراً على رواء الدين من مرتبه الكبير، لو مد الله  
في أحله. ولكن حكمة الله أعلى، وحكمه أمضى.

\* \*

يقال إن المتصية تبدأ كبيرة ثم تصغر.

وهذا الكلام صحيح من وجه واحد، وعبر صحيح من تسعة وجوه. إنها  
تصغر بالسيان، والسيان من أعظم نعم الله على الإنسان، ولكنها تكبر كلما  
ظهر أثر من أثارها، والأثار لا تظهر دفعة واحدة، بل تظهر تباعاً، وكلما بدا أثر  
جديد حدد وقع المتصية.

لم أدرك أول يوم مفدار ما الم بناء، ولم أفكر فيه لأن لم أحد. وقتنا للتفكير  
كنت كالضائع في الزحمة، لا أحس بنفسي، ولا يكاد يحس بي من كان حول  
من أين اجتمع هؤلاء الناس كلهم؟ لقد ضاقت بهم الدار، وضاقت ده  
الجيران التي فتحوها لهم، وكذلك كنا في الأفراح وفي الأتراح، كانت حواء  
وكانت اشتراكية صادقة، لا اشتراكية المذهب أو الحزب. بل اشتراكية الفطرة  
السليمة، التي يوجهها الإسلام

وكنت يومئذ كالذي نصيبه حبه على رأسه فيعتمد شعره، كنت أظن  
ولكن لا أرى، واتحرك ولكن لا أفكر

لم أعلم كيف غسلوه، ولا كيف كفوه، ما دعاني أحد لأني، ولا حاولت  
أن أرى من غير أن أدعى. كنت أمني من هنا إلى هناك. ثم أعود إلى حيث  
كنت، لا أهدأ، ولكني لا أعمل شيئاً، حتى سمعت النداء - (لا إله إلا الله)،  
وكانت تلك علامة سير الجنازة.

مشيت مع الناس، كان الناس بملؤود انطرب كلهم. فلا أعرف أول  
الموكب من آخره. مشى الناس على أقدامهم من الصاحبة إلى مقبرة  
الدحاح، في حين القديم، في طرف العقبة، وكانت آخر ابلد ما بعدها إلا  
اليساتين، فصارت اليوم في وسطه.

من الصاحبة إلى المقبرة أربعة أكيال، امتلأت كلها بالناس، وكلما تقدمت  
قليلاً، انضم إليها ناس جدد. يسألون: من الميت؟

فإذا قيل: الشيخ مصطفى الطنطاوي، قالوا: رحمه الله، ومشوا فيها.

ما كان من رجال السياسة، ولا من أهل الرئاسة، ولا من ذوي الجاه  
والسلطان، ولا من الأكابر والأعيان، ولا من الأدباء ولا من الخطباء، ما كان إلا عالماً  
ومعلماً، ولكنها محبة وضعها الله له في قلوب الناس.

وما كنت أعلم أن له في قلوبهم هذه المحبة حتى مات.

\*\*\*

رجعنا من المقبرة وأنا لا أزال في دهشة المفاجأة، ثم بدأ توافد الناس

علينا، الباب مفتوح، والغرف كلها معدة، وصحن الدار الواسع صفت فيه الكراسي، لا أدري من أين جاءت.

وكل ذلك ممتلئ بالناس، يخرج قوم فيدخل مثلهم، أعرف منهم واحداً وأجهل التسعة...

... حتى انتهت أيام التعزية، وختم موسم الكلام، والكلام ولو كان حلواً ولو كان بليغاً، لا يكلف مالاً. وذهب كل من المعزين إلى داره، وبقينا وحدنا نواجه أول آثار الحادث.

كنت في أول السنة السابعة عشرة من عمري، ولكن لا مال لي ورثته ولا مورد لي أنفق منه، وأنا أكبر إخوتي، أما عمي (أعني خالي أبي) فما كانا، رحمهما الله، ثم يمد يده إلى كيسه يخرج منه ما يقدمه إلينا، وإن كان في الكيس ما يخرجنا منه لو شاء. أما عمي الأكبر فما زاد على حلوه الكلام، دفعه إلينا... ومضى، وأما الأصغر فقد أعاننا (جزاه الله خيراً) بجهد لا بماله. استخرج لأي معاش نقاعدياً، كان ضئيلاً، لأن مدة خدمته الحكومية (أميناً للفتوى، ومفتياً في السويداء. ثم رئيس ديوان محكمة التمييز) لم تكن طويلة، وتولى بيع كل ما كان في الدار من فرش وأثاث وبيع المحرك (الموتور)، ولم يبق إلا المكتبة فقد وقف دوماً واستأجر لنا داراً صغيرة في الحارة التي ولدت فيها، مقال الدار القديمة.

هل قلب دار؟ لا، بل هي ديرة، وما أظن هذه التسمية صحيحة، لأنها كانت اقرب إلى (الاصطبل). بل إنها لا تصلح أن تكون اصطبلًا، ولا يوجد طبيب بصري يوافق على ربط الدواب فيها، لأن الشمس لا تدخلها أبداً، والدار التي لا تدخلها الشمس في الشام لا يخرج منها الطبيب.

أما ماؤها فمن نهر (نورا) نال أبناء بردى، ولكنه يأتي في ساقية مكشوفة ثماني ستة أكيال، قبل أن تصل إليها، بلقي فيها من شاء ما شاء. لا أقول إن ماءها ملوث، لأن كلمة ملوث أنظف من مائها، فماذا أقول عنه؟

تدخل من الباب إلى ساحة صغيرة، أرضها من (العدسة) لا من البلاط

ولا الحجارة. فيها غرفتان، إذا دخلتهما في ساعة الظهيرة من ثور (سولي)  
أحسست الرطوبة وشممت ريح العفن، جدرانها من الطين، مملوءة بالبق. وقد  
باد البق الآن ولم يبق له أثر، وهو حيوان صغير، حشرة حمراء، كأنها كيس  
صغير، له رأس وأرجل يمشي عليها، إذا كانت جائعة رأيتها قشرة رقيقة، سمك  
ورق الكتابة، فإذا مست جسد الإنسان مصت دمه، فتمتلئ بالدم الأحمر  
هذه هي الدار التي استأجرها لنا عمي.

لم نحمل إليها من العرش، لآ سينا، لا يستعني أحد من منله، مما لم يشتره  
أحد من فرش دارنا التي يبعث لوفاء الديون. فكنا نفرش حصيراً على الأرض،  
وفوقه بساط وفرش رقيق، وكان إخواني يامنون على هذا الفراش، وأمي تسهر  
عليهم تذود البق عنهم، تمسكه ثم نلقيه في كوب فيه الماء، أو تدب منه مصباح  
الكانز، إذ لم يكن في الدار كهرباء، فترمي في سلة المتساح، وكانت الملحف لا  
تكفي، فكانت تغطيهم بالبساط.

تسهر الليل كله، تذكر ما كانت فيه. وقد صوب إليه. تقطع الليل  
بآهاتها، وتذيب آلامها في دموعها، لا يرى بكاءها ولا يسمع شكواها إلا ربها،  
وكانت مؤمنة راضية عن الله، صابرة على ما قضاه

افترقت أسرتنا، أما عمي، فقد سكنت عند أبة حرا، هي أم حلمي  
حباب (الخطاط) ومعها جدني.

وأما نحن أنا وأمي وإخواني فهنا، وكان عمر أخي سعيد ثلاثة أشهر  
فقط، فنشأ لا يعرف أباه، بل إن أخي عبد الغني لا يعرفه تماماً، وكذلك أخته  
الصغرى.

وكان بيني وبين أخي ناجي أقل من ست سنوات، ولكنها في تلك السن  
تبدو كبيرة، فأنا شاب وهو ولد، لذلك شعرت من أول يوم أن العبد القبي  
علي.

ولم يكن لنا مورد إلا معاش التقاعد الذي عُيِّن لأبي، وهو قليل، ومعاش  
الإمامة التي كانت لأبي في جامع رستم، وهو مسجد صغير إلى جنب هذه

الدار، فوُلِّيت إمامته مكان أبي، وكان راتب الإمامة مئة وخمسين قرشاً في الشهر، وكانت له تلاوة جزء من القرآن في جامع سنان باشا في باب الجابية، فولَّيتها بعده وراتبها خمسون قرشاً في الشهر.

ولم نجد من يمد إلينا يداً بمساعدة، إلّا خالي الأستاذ محب الدين الخطيب صاحب (الفتح)، و(الزهراء)، والمطبعة السلفية في مصر، فجعل لشقيقته (أمي) جنيهين مصريين في الشهر.

وكان الجنيه المصري يصرف بخمسة مجديات عثمانية ويضعه قروش، على حين تصرف الليرة الذهبية الرشادية بخمسة مجديات فقط.

وقد رددت إليه بعد أربع سنوات كل ما دفعه إلينا، بل أكثر منه من حصة في أرض في (سحنايا) في الغوطة الجنوبية، ورثتها أمي عن أخوالها من آل الجلال، دفعتها أنا إليه لما كنت في مصر.

لكن يبقى 'الفصل'، فله منا الشكر، ومن الله حسن الأجر، رحمه الله.

والذي 'عاش' وكان يحمل الأثقال عنا ويمد يده في كل ضيق إلينا، بجهد لا يباله، هو من حالي الشيخ طه الخطيب، وقد فرقت الأيام ما بيننا، فمن قرأ هذا الذي أكتبته عنه، فليعلمه إياه ليعلمه أن المعروف لا ينسى.

وانقطعنا عن الناس، اعني أن الناس انقطعوا عنا، الذين كانوا كل يوم في زيارتنا. والذين كانوا يمشون شطر غمارهم في دارنا، حتى أن عمّي، رحمه الله يسألهما، جاء في يوم عيد فزارا جاراً لنا غنياً، داره لصق دارنا، وهي التي تسد مطلع الشمس علينا، وما طرقتا باننا.

لا أقول هذا تنهيباً ولا تشفياء، بل شكراً لله على أن أغنانا عنها وعن غيرها. يكتب علينا أياماً عجافاً لتكون تدريجاً لنا، وغريباً، ونزداد بها علماً بالأبام، وطاقة على حوض غمرات الحياة.

\*\*\*

لقد فنحت الآن صفحة جديدة، في سفر حياتي: كنت لا أعرف حل التمتع، فحملتها قل أن يقوى عاتقي على حملها، وكنت أحس أي فرع من

اصل، فصرت أصلاً (أو كالأصل) لفروع.  
كنت أخطر على الشاطئ، ألتفج بالظر إلى موج البحر، فرميت في ماء.  
وأنا لا أحسن السباحة.  
فماذا صنعت؟ وماذا وجدت؟ الجواب في الحلقة القادمة. إن شاء الله.



## لما صرت تاجراً!

قلت لحكم في أول فصل من هذه الذكريات، إن الذي يكتبها ليس واحداً، بل كثير في واحد، لست أعني أنني أصبت بـ (انفصام الشخصية) وأن عليّ أن أرحع الدكتور محمد فضل الحائلي، بل أعني أن النفس البشرية، في تبدل مستمر مع أهل واحدة، مثلها مثل مجلس فيه مئة عضو، تنتهي في كل شهر عضوية عشرة منهم، ويأتي عشرة جدد، أو كمثال شهر جاري، لا تقف قطرة منه، ولا ترجع بعد ممرت. وقد بصفتو مائة أو يتعكر، وقد يفيض النهر أو يغيب، ولكن يبقى الببل مثلاً هو الببل، صفاً أو تكدر، وعند الفيضان وفي أيام النقصان.

ولإنسان يرصى ويغضب، ويجب ويكره، ويطمع ويقنع، ويصح ويمرض، ويفرح ويحزن، وهو في كل حالة من هذه الحالات، وأمثالها، يصير كأنه إنسان جديد، بتبدل نظره إلى الأشياء وحكمه عليها.

ومن هنا قلت، إن كاتب هذه الذكريات ليس واحداً.

ولقد قرأت اليوم ما كنته في الفصل السابق، فما رصيته! لقد جعلت قارئه يسعر أو انصاع أبى، قد هز أركان، ورلزل إيماني، وأن قد حطم آمالي، أغراض عمي عمي، وأن اعتمادي كان عليهما، فلما منع أحدهما غضبت عليه، ونكلمت عنه، ولما منع الثاني شكرت له وأثبتت عليه، حتى أن ذكرياتي عنها كانت كالنهر الحياش الذي يحمل معه حطباً له شوك، شاك بعضاً من أقبائي، ممن أفضى إلى ربه، فآللهم إن كنت ظلمته فاغفر لي، ورضه بكرمك

عني، وإن كان الحق لي عليه فقد سألته.

احفظ من الصغر أن (لو اطلعت على الغيب لاخترتم الواقع)، ولا أقول إنه حديث، ولكن أشهد الآن، (وقد صار واقعاً بالنسبة لي، ما كان ذلك اليوم غيباً)، أن الخير فيما اختاره الله لي.

إني لأنظر إلى تلك المصيبة من وراء تسع وخمسين سنة مرت عليها، فأرى أن ما قدره الله علينا كان فيه النفع لنا. لقد نخرمت بالحياة مسكراً، ودقت منها ألواناً، وخبرت الناس أصافاً وأجناساً، وكانت الفائدة من ذلك القدر أكثر من الضرر.

لقد أدركت يومئذ، وتحققت اليوم. أن الحياة مثل الناعورة، هل ترونها في الصورة؟ دولاب كبير علقت به دلاء وسطول<sup>(١)</sup>، يكون السطل منها ملآن وهو فوق، كما كنا على عهد أبي، فينزل فارعاً إلى الحصبض، كما نزلنا بعده. فمن كان قصير النظر ظن أنها النهاية، ومن دقّر وحنّق رأى الدولاب يدور، فما نزل يصعد، وما فرغ يمتلئ.

وإن هذي هي الدنيا: ارتفاع وانخفاض، امتلاء وفراغ، فقر بعده غنى، وغنى قد يأتي بعده الفقر، لا العالي يبقى فوق، ولا الهابطي تحت، ولا يدوم في الدنيا حال، والدولاب دوار...

الأحقّ بظنها حظوظاً ومصادفات، والعاقل يدرك أنه عمل متقن، فلا البناء الذي يحمل الناعورة أقامه الخط، ولا حركتها بست المصادفات، لكنها هندسة محكمة، وحساب دقيق.

ما يعطى أحد في هذه الدنيا ولا يحرم، ولا يعلو ولا يهبط، إلا لحكمة بالغة، وأمر متدبر، سطره مقدّره في كتاب. فمن اهتدى إلى هذه الحقيقة، واطمأن إلى أنه عادل لا يظلم، حكيم لا يعبث، سكن واستراح.

ومن أنزل غضبه بخشب الناعورة أو بحديدتها، يحسب أنها هي أفرغت

---

(١) الناعورة السطل من العامي الفصح. والصورة ستجيء في جزء الصور من هذا الكتاب.

إناءه، وأراقت ماءه، عذب نفسه بها، ولم يتل منها منالاً.

فعدت الآن أكتب عما مرَّ بي، بعد موت أبي، وقد عرفتم أبي لا اعتمد في هذه الذكريات على شيء مكتوب، ما اعتمد إلا على ذاكرة خرقها كر الليالي، فصيرها مصفاة.

رجعت إلى ذاكرتي، فهل تصدقون أن هذه المرحلة الوعرة من طريق حياتي، المرحلة التي مشيت فيها على الأشواك فلفظ الله بي، فلم تدم منها قدمي، وعلى الرمضاء فلم تُكْوِ بها رجلي، هذه المرحلة كادت تحي صورها من نفسي.

إي والله، وذلك من نعم الله عليّ، حتى لا أذكرها فتؤلني ذكرها. كنت فيها كماش على الحادة المعبدة، فعاقته العوائق عن الاستمرار فيها، واضطرته إلى تنكبها. وإلى اسر في الوعور، والقفز من فوق الصخور، والتخبط في المفازات. ثم سر الله له العودة إلى الجادة، فمن فرحه بالخلاص مما كان فيه، لم يعد يريد أن يعد إليه ولا بالذكرى، لذلك نسيت أكثر أحداثها.

كانت كصفحات دفتر أصابها الماء فطمس سطورها، إلا كلمات متفرقات بقيت وإصحاح هذه الكلمات هي التي أسجلها في هذا الفصل.

### نهضة المشايخ

تاب نهضة المشايخ قد بدأت قبل وفاة أبي، ولقد شهدت جلساتهم معه بتداولي في أمر افتتاح المدرسة التحاريرية التي كان والدي مديرها أثناء الحرب الأولى. لأن من أكبر مقاصد حركة المشايخ أو (نهضة المشايخ) كما دُعيت، هو إحياء الأولاد من مدارس الحكومة. ولا يتحقق هذا إلا بفتح مدارس تغني عنها. فلهذا استُثنت (الجمعية الغراء)، وقد كانت أول الأمر بإشراف الشيوخ اللذين قاموا بهذه النهضة وهما: الشيخ علي الدقر، والشيخ هاشم الخطيب، ثم أدركها داؤما المرمس، الذي بصيب كل حركة إسلامية، وهو الاختلاف والانقسام. فاستغل الشيخ علي بالغراء، وأنشأ الشيخ هاشم (جمعية التهذيب والتعليم)

لقد كان يؤمل من هذه الحركة أن يكون لها آثار أعمق وأبقى، ولكنها (ونحن هنا للتاريخ لا للمدح والذم، وليبان الحق لا لصوغ المجاملات) كانت قاصرة على كثير من المظهر، وراءه قليل من الجوهر، وكانت معنية بأمور من فروع الفروع، لا بتدعيم الأسس، وتثبيت الأصول، كما أمر الشرع ووسع الرسول، ﷺ.

لقد أثمرت خيراً كثيراً، وخرجت علماء ودعاة، وأحيا بها الله أرض حوران والبلقاء (الأردن)، ولكن كان أكثرهم متبعيها ومن منى تحت لوائها، إعفاء اللحى، وتكوير العمام، وأن تتخذ النساء الأزرق البيض بدل الملاءات السود. استفاد من ذلك تجار (الشاش)، وباعة القماش، وخسر الحلاقون لما نأت عنهم الذقون... كأن هذا هو الدين، وهذه أركانه:

أغاية الدين أن تحموا شواربكم يا أمة صحكت من جهلها الأمم

جعلوا مدرستهم أولاً في الريحانية، وهي مدرسة قديمة، كان واضح البد عليها الشيخ عبد الجليل الدرا، وسأحدث عنه إر الله وفقني إلى سرد ما أعرف، أو بعض ما أعرف من أخبار مشايخ الشام. فلما انتهت السنة المدرسية، وجاءت العطلة، أغروني بأن أدع الدراسة، وأشتغل معلماً في مدرستهم.

وقبلت وكلفوني بتدريس النحو في الصف الرابع الابتدائي، ثم طلب الدرس الشيخ أحمد الدقر، فأثروه به وأعطوني درساً آخر. فأبيت، وقلت: لماذا؟ لأنه ابن الشيخ علي الدقر، ولأن أبي مات؟.

هلم امتحنوني وامتحنوه، في النحو والصرف وعلوم العربية كلها، فإن ساوته أو لم أفقه إلا بالشيء القليل، فأنا أدع الدرس، ولم أشرط أن يسبقني لأني كنت أعلم أن هذا بعيد. فأبى الامتحان وأبوءهم، فغضبت وتركت التعليم وعدت إلى التعلم، وكان بيني وبين شهادة الكفاءة<sup>(١)</sup> سنة واحدة.

(١) ولقد اقترحت من قديم أن تدعى شهادة الكفاية. لأنها تشهد لحاملها بأنه رجل كفٍ، ثم إنه قد يكتفي بها، وكلمة الكفاءة لا معنى لها هنا.

وكذلك ترون أن الذي يختاره الله لعبده، خير له مما يختاره العبد لنفسه، فلو لم يبعث الله الشيخ أحمد (رحمه الله) ينازعني الدرس، فيجعلني أعود إلى الدراسة، لبقيت معلم مدرسة ابتدائية، بلا شهادة في يده، ولا أمل بالترقي أمامه.

ولما نلت شهادة الكفاية، رأى عمي الشيخ عبد الوهاب أن أتعلم المحاسبة. وكنا نسميها حساب الدوبيا، (أي الطريقة المزدوجة) لأننا نقيد كل رقم مرتين، مرة في دفتر الصندوق، ومرة في دفتر البضائع، أو دفتر الذمم الذي نقيد به حسابات العملاء، وكانت هناك الطريقة المفردة، وتسمى الأميركية. أما الأولى فتدعى الإيطالية.

وتعلمت الدوبيا، أو المحاسبة على أفدر محاسب يومئذ في دمشق، وهو السيد كامل بكر نسيب بن الوفي، الرضي الخلق، الذي توفي أبي في داره، وحضر معي هذه دروس بعض الإخوان منهم السيد نظمي المجتهد، ولم أره من تلك الأيام أي من سنة ١٩٢٥. وكنا نتخذ دفاتر كدفاتر التجار، ونعمل الموازنات سنوية (سلاسن) - وهي بالانلس بالفرنسية - ولا تزال هذه الدفاتر عندي في دمشق. ولا أرى - عذراً بقواعد المحاسبة وأصولها، وإن كنت يومئذ (وكنتم فيه ولا أنا) - جهل الناس بالحساب، وأشدهم ضيقاً به، وكرهاً له.

عجبت أن تصور بي كنت محاسباً أذكر قصة بكري مصطفى، وهو رجل تركي من حلب (حسب). احتار مرة حتى جعلوه إماماً في مسجد، فجازوا حجرة مقصود غايها، فابحى عن بيت. واقترب من أذنه كأنه يوشوشه، فسأله مد فسه.

فأجابته: إذا سألوك عن حساب الديار، فلا تطل الكلام يكفي - نموت. بكري مصطفى إمام.



واحتمل لي السيد كامل بكر رحمه الله، بعد أن أكملت التعليم تاجراً

أضبط له حساباته، وكان تاجر أدوات كهربائية، قبيل باب الجابية، وأمام جامع السباهية. وكان في الجامع مدرسة أولية، معلمها الأستاذ أحمد الكزبري من شبوخ المعلمين في الشام، وكان عملي ساعة في الصباح، أذ يأتي العمال، فيأخذون أسلاك الكهرباء والقطع والأدوات التي يحتاجون إليها في يومهم، ثم تخلو الدكان إلا من طالب مصباح أو زر أو شيء مما في الدكان، فأبيعه ما يطلب وأضع الثمن في الدرج، وأبقى منفرداً بلا عمل ومن سكنت جوارحه تحرك ذهنه، فما ظنكم شاب نشأ في طلب العلم، واستعد ليكون من أهل العلم، تأى به الحياة عن غرف المدرسين في المدرسة، وحلقات المشايخ في المسجد، ورفوف الكتب في المكتبة، وتخبسه في دكان يباع أدوات كهربائية....

كنت حين أسمع الأولاد يقرؤون جماعة، أحسن بقلبي قد تقطع بين ماضٍ صار مجرد ذكرى، ومستقبل لم يبق إليه سبيل، أهذه هي النهاية؟ يباع كاتب في دكان كهربائي؟ ألهذا سهرت الليالي، وقرأت الكتب، وحصلت العلم؟:

أشقى به غرساً وأجنيه ذلة إذن فاتباع الجهل قد كان أحزماً

لست أذكر كم لبثت في هذا السجن المزري، ولكني أذكر أني ضقت به يوماً ذرعاً، فخرجت منه، وصرت محاسباً أو كاتباً أو ما نست أدري، عند شريكين - مسلم ونصراني - في (الخريزانية)، وهي شعبة من سوق (البزورية). اشتغلت معهما مدة ثم اطلعت على أن عملهما غش السمن، وخلطه بما ليس منه، وبيعه على أنه سمن عربي خالص، وصنع الصابون مغشوشاً. وكان الصابون يعمل بزيت الزيتون، لم تكن قد جاءت هذه الأنواع من الصابون الإفرنجي، المعطر الملفوف بطبقات من الورق الصقيل، المربوط أحياناً بشريط، فهو متعة للبصر وللشم، أما الدهن الذي صنع به، فليس من زيت الزيتون كما كنا نصنع في نابلس وفي حلب والشام، فهذا عمل أبناء العالم الثالث، أما المتحضرون من أهل العالم الأول، فيأخذون الدهن من جيف الحيوانات الميتة، ويستخرجونه من مياه المراحيض، يجرّدونه مما علق به،

ويزجونه بعطور لا تستخرج من الورد ولا الزهر، بل تستخرجها الكيمياء من القطران<sup>(١)</sup>، لها ريح الورد والفل والياسمين، وما تُثَمَّ ياسمين ولا فل ولا ورد.

فتركت الشريكين الغشاشين، واشتغلت عند تاجر خيطان، أعرفه في خان في سوق الخياطين، فسمعت جارا له كان عنده لما جئته، يقول له: هؤلاء الأفندية من تلاميذ المدارس متعبون، فكله قبل أن يأكلك، ولا تدعه يقعد وراء المكتب بل شغله ينزل بضاعة، ويرفع بضاعة، ويأتي بها ويذهب. فأقمت عنده مدة، ثم ذهبت فلم آت.



وصنت بالسجدة وبوظيفة الكاتب أو المحاسب، وقلت: أكون أنا التاجر، وما خيفت والله للتجارة، ولا أصلح لها ولا تصلح لي، وما عندي لها المال، ولا الخبرة. وكانت عند أمي قطع حلي، فباعتها وأخذت ثمنها، وشاركت تاجر دار طالب علم، هو الشيخ رياض كيوان، واستأجرنا مخزنا في خان العميد. مدخل الخان العظيم، والبناء الأثري الرائع، خان أسعد باشا العظيم. وحدث في مكتبي إلى حسب مكاتب كبار التجار، وكانت نجارتي بالسكر والأرز يبيع بالكيس كله فريشا معادودة لا تكفي للغداء، فمن أين أطعم أسرة أن كبيرها، المطلوب مني أن أكون عائلها؟.

من هذا الفروخ التي لا تبلى تمن غدائي، أحصر فطور أمي وإخوتي الثلاثة. "وأخى"

ورأيت أن الرجوع إلى الحق أفضل من التماذي بالباطل، فتركت مكاني ببيع كتب التجار، وحررت من احاد كتب دخلت، والحمد لله أن استطعت الخروج.

وكانت محكمة النقيب (محكمة النقض) التي كان والدي رئيس ديوانها، تنقل من السراي، إلى بناية العابد في المرجة، إلى طريق الصالحية، إلى

(١) هذه حقيقته علمه

البحصة... فمررت أمامها فخطر لي أن أزورها، فرأيت الأستاذ محمد علي الطيبي قد حلَّ محل أبي، فرحب بي، وسألتني... فلما عرف أبي نرى المدرسة عجب، وقال: ومن الذي أشار عليك بهذا؟

قلت: عمي الشيخ عبد الوهاب. فقال: الله يفرج عنا وعنه!

لقد نبهتني هذه الكلمة، كما يتسه المنحرف عن الطريق إذا سمع من يسأله عن مسيره، وعلمت أني قد غلطت، فهل يمكن أن أصحح الغلط؟!

وكان قد مضى ثلثا السنة المدرسية، ودخل الطلاب الامتحان الفصلي الأول، وهو على أبواب الثاني، ما بقي له إلا عشرة أيام.

وذهبت إلى عمي الأكبر. العالم الملوكي الشيخ عبد القادر وكان عاقلا. هادئ الطبع، بعيد النظر، فقلت له: إني أريد العودة إلى المدرسة.

فضحك وقال:

- لقد أبطأت. كنت أنتظر منك هذه الأوبة. ليكي ما قدرت أن تتأخر إلى اليوم، وأنا مع ذلك قد أعددت لك الأمر من ثلاثة أشهر قم معي.

وأخذني إلى الأستاذ محمد علي الجزائري، مدير مكتب عنبر (أي مدرسة التجهيز ودار المعلمين)، وقال له: هذا هو الذي حدثتكَ عنه.

فقال لي: لماذا تأخرت إلى اليوم، ألا تعلم أن الاستحان الثاني قد اقترب، فهل تستطيع أن تدخله مع رفاقك؟ وهل تقدر أن تعيد الامتحان الأول بعده بعشرة أيام؟

قلت: أرجو الله.

قال: إذن فتوكل عليه، وادخل صفك، فأنا لم ألغ قبلك. إنك لا تزال من الطلاب.

ودخلت الامتحان، وعندني الوثيقة الرسمية بأني كنت بحمد الله الأول بين الطلاب.



## مشايخي خارج المدرسة

وفقت بكم طويلاً على ذكريات أساتذتي في المدرسة، وما تكلمت إلا عن بعضهم، ولا سردت إلا بعض أخبار من تكلمت عنهم، ولو أفضت لأطلت وأملت. فاذنوا لي اليوم أن أقف معكم على بعض مشايخي خارج المدرسة

استطعت أن أذكر من مشايخي في المدرسة، وإن فضله عليّ لكثير، ولكنني وعدت في مصعب هذه القصص أن أقف على حق، لا أصعب شيئاً مما هو لي تواضعاً، ولا آخذ شيئاً من تربيته. وحق أن من قرأ على أبي أو لازمه، يؤكد أنه كان معلماً عسيراً، شديداً على من يخطئ حتى يبط نفسه أذكى من الأذكياء، ويبسط المعتمد من المسائل حتى تحسب من حيث الواضحات. وذلك بالأمثال المحسوسة، فأنشأه الطاهرة

بعض بني فهم يسأله: «هتسمها» حتى صارت ملكاً له يستطيع أن يفتي من شاء. شئت العبارات، ويدرك ذمائهم، حتى يصل إلى العبارة صلبة، لا تملك لمسه فإن وجدت معه يشرح الدرس فلا يفهم عنه. ويعيد شرحه حتى يصل إلى الإفهم. فاعلم أيها ما فهم هو ما يدرسه، وإنما يخطئه، فهم يجد أنه لا يستطيع أن يخرج عنه

ويظهر لي في ثار من الصف الأول، هذا ما سمعته من تلاميده سمعاً. لا بد رحمه الله، ما حصني يوماً بدرس، ولا أقرأني كتاباً شتواً. أرهد الناس في العالم أهله وجيرانه، لأنهم بروه في جده وعزله

وغيظه ورضاه، والبعيدون عنه لا يرونه إلا في أحسن حالاته، ولا يبصرونه إلا أجملاً جوانبه.

وأنا أزيد: أن العالم أزهى ما يكون في تعليم أهله وجيرانه، ورنا حرص على تعليم التلاميذ وشرح الجواب للسائلين، ما لا يحرص مثله على تعليم ولده، وإجابته على أسئلته.

لذلك كان حظي من علم أبي دون حظوظ الآخرين. وما كنت أراه إلا طرفي النهار، وإن كان في الدار، لم يخل من أصدقاء أو زوار، ولو أن الله أهدى أن يتفرغ لي، أو أن يولياني مثل الذي كان يوليهِ المقربين من تلاميذه. لرحوت أن انتفع به أكثر مما انتفعوا، وأن يبدو أثر ذلك في أكثر مما بدا فيهم.

وكنت من يوم وعيت وأدركت ما حوطني. أصبح فأرى أبي في خلعه وعده تلاميذ ما كانوا كتلاميذ المدرسة، بل كانوا رجالاً بعمائم ولحي، فكنت أدخل عليه بالشاي أو بالفاكهة يحملها لي أول الأمر ساء أهلي إلى باب المجلس، ويقرعن الباب، ويحملني منها ما أطيق حمله، فيبعضهم فيأخذني ويحمله ويقرعن الباب، ويحملني منها ما أطيق حمله، فيبعضهم فيأخذني ويحمله عني.

ثم صرت أقعد معهم قليلاً، فالتقطت الكلمة بعد الكلمة، ثم صرت أناولهم الكتاب بعد الكتاب، فعرفت الحاشية، والقاموس المحيط، ونقيح الحامدية، والجزء كذا من تفسير الخازن، أو من فتح الباري، أو الفتاوى الهندية. . أقول إني عرفت شكلها واسمها لا أبي قرأتها.

وكانت الحجب مسدلة بين الآباء والأبناء، لم ترفع كما رفعت اليوم. وما كنت أبسط معه في حديث، فضلاً عن أن أدخل في مناقشة، وكنت أناديه (كما كان يفعل أمثالي ممن أعرف) بسيدي، ما قلت له يوماً: يا أبي، أما (بابا) فما كنت أتصور كبيراً يقولها، إنما يقولها الأطفال، في بداية عهدهم بالكلام.

وكان أبي معدوداً من مقدمي فقهاء المذهب الحنفي في الشام. وكان أمين الفتوى عند المفتي الشيخ أبي الخير عابدين، وكان يستفتي في حياة مشايخه، ولما صار رئيس ديوان محكمة التمييز (محكمة النقض) على عهد الشريف فيصل،

كانوا بدعونه للمشاركة في دراسة القضايا الشرعية، سمعت ذلك من رئيس المحكمة الأستاذ مصباح محرم، ومن بعض الأعضاء فيها كالشيخ سليمان الجوخدار الفقيه القانوني، الذي كان مفتي الشام قبل الشيخ أبي الخير، والذي صار رئيس محكمة التمييز ووزير العدل، ومن القاضي الوزير النصراني يوسف بك الحكيم، ومن القاضي صلاح الدين الخطيب الذي صار بعدُ حمي<sup>(١)</sup> (والد زوجتي)، ومن زميله في عضوية المحكمة الشيخ مسعود الكواكبي (عضو المجمع العلمي)، ومن عضو المحكمة الشيخ علي عياد والد الدكتور كامل عياد.

ولما مات وعدنا إلى حارتنا القديمة، كان يسكن قريباً منا الشيخ أبو الخير الميداني، وهو صديق أبي، وزميله في القراءة على الشيخ سليم المسوتي، الذي كان من كبار المشايخ المعلمين الصالحين، وهو الباني الأصل، لم أدركه ولكنني أحييته لكثرة ما سمعت من أخباره من أبي ومن شيخنا الميداني، وعن كرمه العجيب الذي يجاور حد التوسط بين غل اليد بخلاً ويسطها كل البسط سفهاً، لا تعتمد معه بحلقة أمر الله، أعوذ بالله أن يعتمد هذا مسلم، ولكنها طبيعة طبعه الله عليه.

وكان يومه في رمضان. وكان مجلسه قريباً من باب الدار. وكانت مائدة الإفطار قد أعدت. وقد عرفت، ففرغ الباب فقير يسأل ويتقسم أن أهله في البيت صباء. وليس عندهم شيء. يزكّل. فتلفت فلم يجد حولَه أحدًا من أهله، فتساور عطفًا وبعض الخبز، فوضعها جانباً، وقال له: احمل هذا كله. فحمله فذهب به ودخل النساء فلم يجدن الطعام، فسخطن وصحن عليه، وتكلمن كلاماً شديداً. فهو صامت.

وحسب المدفع. وأخذ الميداني من حامع التبريم، فإذا الباب يفرع، وإذا بالدار الطعام من الخا. والبارد، والخلو والحامض، تدخل عليه. وإذا القصة أن معيد ناتساً تسدي، احدا كبار الوجهاء، كان قد دعا ضيوفاً فلم يحضروا، فأمر بحمل الطعام كله، إلى دار الشيخ، فقال: أرايتي مكافأة الصدقة؟.

(١) م.ك. من الاسماء الخمسة ماتت تقول حمي كما تقول أبي

أعود إلى حديث الشيخ أبي الخير. الذين يؤثرون فيك ببلاغتهم، وطلاقة  
السننهم إن سمعتهم، كثيرون. وكثيرون هم الذين يأسرونك بروعة أسلوبهم،  
وسحر أفلامهم إن قرأت لهم، والذين يعجبونك بصحة محكماتهم، وإصابة  
آرائهم، إن أنت استشرتهم.

كل هذا مشاهد في كل بلد، معروف في كل زمان، ولكن أعجب من  
هؤلاء كلهم ناس لا يتكلمون وإن تكلموا لم يكن لهم من سحر البلاغة ما يبد  
القائلين، ولا يكتبون وإن كتبوا لم نجد عندهم من سمو البيان ما يعجز  
الكاتبين، وهم مع ذلك يبلغون من التأثير عليك ما لا يكون مثله لكاتب ولا  
خطيب.

إنهم يؤثرون بحالهم لا بمقالهم، ومن هؤلاء شيخنا الشيخ أبو الخير  
الميداني، ومنهم شيخه، وشيخ الشام الشيخ بدر الدين الحسيني، ومن عرف  
في مصر شيخ مشايخنا السيد الخضر حسين الذي صار شيخ الجامع الأزهر،  
ومنهم العالم اللغوي المحقق أحمد تيمور ياشا.

وعندي في هذا الباب أخبار كثيرة، أروي الآن واحداً منها، حدثني به في  
مصر الأستاذ أحمد حسن الزيات صاحب الرسالة، عن شيخ سمّاه ونسيت أنا  
اسمه، قال: كان هذا الشيخ مدرّساً، لا يعرف من الدنيا إلا الجامع الأزهر  
الذي يدرس فيه، قبل أن تدخل عليه ناء التأنيث فيصير جامعة، والبيت  
القريب منه الذي يسكنه، والطريق بينهما... فلما طالت عليه المدة، وعلت به  
السن، واعتلت منه الصحة، احتاج إلى الراحة، فألزمه الطبيب بها، وأشار عليه  
أن يتعد عن جو العمل وعن مكانه، وأن ينشد الهدوء في البساتين والرياض  
وعلى شط<sup>(١)</sup> النيل.

فخرج فاستوقف عربة، ولم تكن يومئذ السيارات، وقال له: خذني يا  
ولدي إلى مكان جميل أنفرج فيه وأستريح.

وكان صاحب العربة (العربجي) خبيثاً فأخذه إلى طرف الأزيكية، حيث

---

(١) الشط: الشاطئ.

كانت بيوت المومسات، وقال: هنا. قال: يا ولدي لقد قرب المغرب فأين أصلي؟ خذني أولاً إلى المسجد. قال: هذا هو المسجد.

وكان الباب مفتوحاً، وصاحبة الدار قاعدة على الحال التي يكون عليها مثلها. فلما رآها غض بصره عنها، ورأى كرسيّاً فقعد عليه ينتظر الأذان وهي تنظر إليه، لا تدري ما أدخله عليها، وليس من رواد منزلها ولا تجرؤ أن تسأله، منعها بقية حياء، قد يوجد أمام أهل الصلاح حتى عند المومسات، وهو يستبح وينظر في ساعته، حتى سمع آذان المغرب من بعيد، فقال لها:

- أين المؤذن؟ لماذا لا يؤذن وقد دخل الوقت؟ هل أنت بنته؟ فسكتت. فانتظر قليلاً. ثم قال:

- يا بنتي المغرب عريب، لا يجوز تأخيرها، وما أرى هنا أحداً، فإن كنت متوضئة فصلي وراسي. تكن جماعة.

وأذن، وأرد أن يتيم، وهو لا يلتفت إليها، فلما لم يحس منها حركة، قال: مالك؟ ألسنت على وضوء؟.

فاستيقظ إيمانها دفعة واحدة، ونسيت ما هي فيه، وعادت إلى أيامها الخوالي. أيام كانت فتاة عتيقة طاهرة، بعيدة عن الإثم، وراحت تبكي وتشتج، ثم ألفت نفسها على قدميه...

ولم يدر كيف بواسيتها وهو لا يريد أن ينظر إليها، أو أن يسها. وقصّت عليه قصتها، ورأى من ندمها وصحة توبتها، ما أيقن معه صدقها فيها. فقال اسمعي يا بنتي ما يقوله رب العالمين:

اعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقطعوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾.

جميعاً يا ابنتي جميعاً، إن باب التوبة مفتوح لكل عاصٍ، وهو واسع يدخلون منه فيشبع لهم، مهما ثقل حلهم من الآثام، حتى الكفر فمن كفر بعد إيمانه، ثم تاب قبل أن تأتبه ساعة الاحتضار، وكان صادقاً في توبته، وجدد إسلامه فإن الله يقبله. الله يا بنتي أكرم الأكرمين، فهل سمعت بكريم يغلق بابه

في وجه من يقصده، ويلجأ إليه، معتمداً عليه؟.

قومي اغتسلي، والبسي الثوب الساتر، اغسلي جلدك بالماء وقلبك بالنسوة  
والندم، وأقبل على الله، وأنا منتظرُك هنا، لا تبطلِي لثلاثتونا صلاة المغرب  
ففعلت ما قال، وخرجت إليه بثوب حديد، وقلب جديد، ووقفت  
خلفه، وصليت صلاة ذاق حلاوتها، ونقّت الصلاة قلبها.

فلما انقضت الصلاة، قال لها: هل سبي اذهبي معي. وجاءني أد تغطي كل  
رابطة تربطك بهذا المكان ومن فيه، وأد غمحي من ذاكرتك كل أثر هذه المدة  
التي قضيتها فيه، وداومي على استعمار الله، والإكثار من الصالحات فليس الزنا  
بأكبر من الكفر، و(هند) التي كانت كاذبة، وكانت عدواً لرسول الله، وحاولت  
أن تأكل كبِد عمه حمزة، لما صدقت المؤنة صارت من صالحات المؤمنات،  
وصرنا نقول: رضي الله عنها.

وأخذها إلى دار فيها نسوة ذنابات، ثم رويح بهن من رصي الزواج به  
من صالحى المسلمين، وأوصاه بها خيراً.

لقد خرجت عن الخطأ، ولكن لا كما يخرج الفطار عن القضان، فينهار  
ويسبب الهلاك والدمار، ولكن كما يميل المسافر إلى الواحة في ظل الماء، فيجد  
فيها الراحة والري.

فعفوكم إن جرّتي المناسبة إلى سرد قصة ليست من صلب الموضوع ولكن  
أرجو أن يكون من سردها متعة أو منفعة.

أعود إلى موضوعي.

كان شيخنا الشيخ أبو الخير الميداني من هذا الطراز. كان الشيخ بدر  
الدين الحسيني يبلغ بصمته أحياناً ما لا تبلغ السنة الأبيّنة من الخطباء، والبلاء  
من الكتاب، وأنا أقول من قديم إني أسمع واعظاً أو محاضراً، يتكلم ساعة أو  
أكثر، في موضوع يجمع أطرافه، ويكشف أسرارَه، ويظهر خفاياه، بأجود  
عبارة، وأحسن إلقاء، يحشد ما لا مزيد عليه من الأدلة والشواهد، فلا يترك  
شعرة مني، ولا بشر في ذرة من خشوع. وأسمع من راكب في الحافلة، أو ماش

في الطريق جملتين، ما فبهما فكر ولا بيان، فتصلان مني إلى أعماق القلب، وتثيران فيه مكامن الخشوع، وربما أسالنا عيني بالدمع.

فما السبب؟ السبب: أن محاضرة الأول خرجت من عقله ولسانه، وكلمة الثاني صدرت عن قلبه، والذي يخرج من القلب يدخل القلب، والذي خرج من اللسان لم يجاوز الأذان.

وشيخنا الشيخ أبو الخير الميداني، كان من أرباب القلوب، لا أعني قلوب العشاق، بل قلوب المؤمنين، المتصلة أبداً بالله، الحاضرة مع الله.

وكان فوق ذلك محبوباً، لا يستطيع أحد أن يكرهه لأنه لا يؤذي أحداً. كان لين العريكة، حلو الشخصية، رضيعاً لا يَغْضَب من أحد، ولا يُغْضِب أحداً. كانت له نفس شفافة، إذا أنت قعدت وراء الجدار، حجب عنك ما بعده فلا تراه، ولكن إذا كان الجدار من بلور، حاكك من البرد والمطر ولم يحجب منك النظر، وهذا مثال نفس الشيخ. كان نقشبندياً، والنقشبندية أقرب الطرق إلى الاعتدال، وأبعدها عن المخالفات، ولما نقلت إلى كركوك في العراق مدرساً، قبل الحرب العالمية الثانية، لقيت كثيراً من مشايخها من الأكراد، منهم الشيخ علاء الدين، ومنهم الملا أفندي، وكدت أتلقى الطريقة يوماً من أحد مشايخها الكبار، وهو الشيخ أبو النصر حلف. ثم تركتها، كما تركت غيرها، وقلت: أمشي على أحادة العريضة ما لي لبنات الطريق؟ والجادة هي الكتاب والسنة، والفقه المستمد منها.

سقى الله أبيامي مع الشيخ أبي الخير، لقد كانت من أمتع أيام حياتي، وداره الفسحة التي لم يكن لها رونق دور الأغنياء المترفين، ولكن لها سعتها وعلوها وورعها وشجرتها.

كنت أرقب النهار كله ساعة الدرس في المساء، وكان يحضره أربعون أو خمسون، وكان درس النحو. ولقد قرأت عليه (الأزهرية)، و(الفطر)، و(الشذور) و(ابن عقيل)، وكان يشرح باللهجة العامية، ولكن طريقته تثبت النحو حتى لا يمكن أن ينسى.

كان يقول مثلاً (جاء قاضي). قاضي؟ أترونها سائغة، الياء لنحت والضممة لفوق؟ فوق وتحت معاً؟ لا، لا، فلنحذف هذه الضممة. (جاء، قاضين)، ساكنان؟ تصوروا النقاء ساكنين ساكتين، هذا مجلس لا يطاق فليتنصرف أحدهما. لقد انصرف، فصارت (جاء قاض).

وكان أكثر الحاضرين أكبر مني سنًا، ولكنني كنت أكثرهم علمًا، فأقامني معيداً للدرس. وكان له درسان في الأسوع للحديث، فأنا فيهما الصحيحين وبعض سنن أبي داود، وكان له مجلس للمحتم، مجلس نقاشي، حصرتة مرة، فلم يرتج له قلبي، فاستعفيته منه فأعذار وأنا والحمد لله لم أدخل في (طريقة) من الطرق الصوفية، ولا حزب من الأحزاب السياسية.

### من أوراق أبي

وجدت بخطه رحمه الله مسودات عمل عظيم - لم أعلم متى كتبها - ولا كيف قدر عليها، هي أنه أحصى زيادات القاموس المحيط على (لسان العرب) فبلغت نحو ألف مادة، ويبدو أنه أكمل العمل وبيّض هذه المسودات، ولكنني لم أجد إلا مقدمتها، مكتوبة على طريقة العلماء لا بأسلوب الأدباء، وهماكم صورة الصفحة الأولى منها مكتوبة بخطه<sup>(١)</sup>.

ومن شاء أن يتصور ما بذل الله عليه، من جهد، فليقرأ القاموس المحيط كله. ولسان العرب كله، ثم لينظر ما زاد في أحدهما على الآخر. كم ترون هذه القراءة وهذه المقابلة تقتضيه من وقت مع استفاد أكثر وقته في التدريس وفي العمل، وفي لقاء الأصدقاء؟

---

(١) انظر نهاية الكتاب.



## أسرة الخطيب وبعض أسر دمشق العلمية

تلقيت رسالة من أطرف الرسائل تقول مرسلتها (الجوهرة): إنها فتاة متعلمة، تحب وتعتب عليّ، تحبني كما كانت تحب جدها، الذي فجعت بوفاته. وأما لما رأيته في الرائي شبهتني به، فهفا قلبها إليّ، وفكرت أني ربما لحقت به، فكت .

\*\*\*

بكتني وأنا حي، ورثتني قبل أن أموت... ألا ترون أن هذا هو الصواب؟ وما أدري لماذا ينتظر الناس حتى يموت الرجل، ليندبوه ويرثوه ويشنوا عليه، ويحلوه سزايا ليس له، وفضائل ما كان له حظ امتلاكها، وإن كان كاتباً أو شاعراً، فسروا أدبه تفسيراً لم يكن يخطر على باله، ونسبوا إليه أفكاراً ما خرجت قط من رأسه، بل ما دخلت إليه...

فهلاً كان ذلك وهو حي يسمع ويرى، حتى يسرّ بالثناء، ويصيح الخطأ؟!

أما وجه عتبتها عليّ فلا في ذكرت أبي ولم أذكر أمي إلا عرضاً في أسطر معادودة. ولم أسمها ولم أبن كيف تزوج أبي بها

وتسألني هل أنا على عادة الشيوخ من أهل بلدي، أحسب أن من المروءة ألا أصرح بأسماء النساء، لذلك يقول الواحد منهم (الأهل) و(العائلة) و(أم الأولاد)، يرى عيباً أن يقول (زوجتي)، فضلاً عن أن يقول (فلانة) باسمها...

... إلى آخر ما جاء في كتابها.

\*\*\*

وجوابي: أن لا. لست في هذا على عادة شيوخ بلدي ومن ظن أن التصريح باسم زوجته عيب، أو حسب أنه محل بالمروءة، فإني أحسن عليه الكفر، لأنه يكون قد نسب العيب، والإخلال بالمروءة إلى أكمل البشر وأفضلهم محمد ﷺ، فقد ورد في الصحيح أنه صرح باسم عائشة وواطمة وأمها خديجة، ولم ير في ذلك عيباً.

واسم أمي رقيقة بنت الشيخ أبي الفتح الخطيب شقيقة الأستاذ عبد الدين الخطيب. أما كيف تزوج بها فأنا امتنع عن ذكره. لماذا؟! لأنني لا أدريه. لا تعجبوا إذا قلت لكم: أن الغرباء دعوا إلى حضور العند، وأنا ولدها لم أدع إليه. إي والله، لم أدع إليه. ولم أعلم به إلا بعد إنغامه بزم طويل الزوج له الحق في أن يختار زوجته، مع أنه يستطيع إذا لم يرضها أن يفارقها ويتزوج غيرها. وأمي لا سبيل لي إن لم تعجبني أن أتبرأ منها وأنخذ لي أمّاً غيرها، فكيف إذن لم يؤخذ رأيي فيها؟

أليس لي أن أبدي موافقتي على المرأة التي ستكون أمي؟

\*\*\*

لكن لا تحسبوا أنني لم أرضها، أو أنني أنكرت اختيار أبي إياها، ولو أنني كنت معه لما فكر في خطبتها، أو خطبها أبوه له، فما كان الرجل يحطّب المرأة بنفسه، لو كنت معه وسألني عنها، لما رضيت غيرها، رحمه الله ورحمها فلقد عهدتها (لما عرفتها) امرأة صالحة. كانت مثلاً عالياً للمرأة المسلمة الراضية عن الله، الصابرة على ما قضاه، جمعت بين الخلق، وبين النسب، أما الجمال فبعبئته وحده، لا بعيني أنا، يكون الحكم عليه. الزوج يميز جمال امرأته من قبحها، أما الولد فلا يرى أمه إلا جميلة، ولو كانت أمة سوداء، ولو كانت عجوزاً وجهها أخاديد وحفر، وهذا يؤكد مذهب (طاغور) في الجمال، وأنه ليس ببهاء الطلعة، ولا بتناسق الأعضاء، ولا بسحر العيون، ونضارة الوجه، كل هذا من شروط الجمال، لا أنازع فيه، ولكن أسأل: لماذا ترى المثلة في

المسلسلة أو الفيلم جميلة بارعة الجمال؟ وترى ممثلة أخرى دونها جمالاً، فتقوم الأولى بدور الكذب والمكر، والثانية تمثل الصدق والطهر، فلا ينقضي الفيلم حتى تصير الأولى قبيحة في نظرك، تتمنى لو أطبقت بأصابعك على عنقها فيخنقنها، وتصير الثانية ملكة الجمال؟.

أليس معنى هذا أن سر الجمال كما يقول (طاغور) هو الإخلاص.

أما أسرة أمي فهي إحدى الأسر العلمية في الشام، حدثني خالي محب الدين الخطيب، ثم نشر ما حدثني به، أن أصلها من بغداد، ثم نزلت حماة، ونزح فرع منها إلى قرية عذراء (عدرا) التي ذكرها ياقوت في معجم البلدان فقال: إذا ابحدوت من ثنية العقاب وأشرفت على الغوطة رأيتها أول قرية تلي الجبل.

وثنية العقاب هي التي ندعي اليوم الثايا (التايا) تمر بها حين تعلقو في الجبل (جل لبنان الشرقي) متوجهاً إلى حمص، وإلى جنب عذراء تقع (الضمير) التي ذكرها المتنبي في قصيدته التي ودع بها سيف الدولة.

والذي انتقل منهم إلى دمشق الشيخ عبد الرحيم بن محمد الخطيب المدفون في مقبرة الدحداح سنة ١١٩٩ وقد بلغت ذريته اليوم، أي بعد مئتي سنة من انتقاله إليها الآلاف، وغدت من أكبر الأسر الدمشقية، وقد سخر الله عبقرياً من أبناء هذه الأسرة، وكان رساماً فناناً، فأحصى أفرادها، وجعل لهم سجلاً مثل سجلات النفوس الرسمية، في دائرة الأحوال المدنية، لكل منهم صفحة فيها اسمه واسم أبويه وولادته وزواجه وطلاقه وأسماء أولاده، وجعل للسجل فيها فهرساً، ثم صنع للأسرة شجرة رسمها بالزيت على القماش المشمع وجعل لها فروعاً، وجعل للولد ورقة وللبنت ثمرة، وجعلها بطناً بعد بطن حتى رادت في حياته رحمه الله على تسعة بطون وطول لوحة الشجرة أكثر من ستة أمتار وعرضها نحو الأربع، وقد اشترتها منه الحكومة السورية. وهي معروضة في متحف الفنون الشعبية، في قصر العظم في البزورية.

وهذا الرجل هو ابن خالي الشيخ سهيل الخطيب، وربما عدت إليه،

فتكلمت عنه.

كان الشيخ عبد القادر الخطيب حفيد الشيخ عبد الرحيم من علماء دمشق، أخذ عن أبيه وعن الشيخ عبد الرحمن الكزبري، وعن الشيخ سعيد الحلبي. وكان له أربعة من الولد كلهم علماء: الشيخ أبو الفرج والد الشيخ عبد القادر خطيب جامع بني أمية، والمدير العام للأوقاف، يوم لم تكن لها وزارة فكان هو المرجع الأعلى فيها، والأستاذ صلاح الدين الخطيب عضو محكمة التمييز (أي محكمة النقض) وهو والد زوجتي، والشيخ أبو الخير والد الزعيم الوطني الوزير زكي الخطيب، والشيخ أبو النصر خطيب الجامع الأموي القاضي العادل الجريء صاحب النوادر، والشيخ أبو الفتح (أبو أمي).

قال في الأعلام: أنه (ولي أمانة دار الكتب الظاهرية، والتدريس والوعظ في الجامع الأموي، وكان يميل إلى التقشف، ويكره معاشره الحكام، له مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، مخطوط في خمسة مجلدات، وهو في الخزانة التيمورية في مصر، بخطه، مولده بدمشق ١٢٥٠ ووفاته فيها ١٣١٥، وهو والد السيد محب الدين الخطيب صاحب مجلتي الفتح والزهراء).

قال: (وله ترجمة في منتخبات التواريخ ٧٠٦، وفي الأعلام الشرقية ٦٧: ٢).

\*\*\*

والأسر العلمية في دمشق كثيرة، أذكر ما يحطر منها على بالي، وربما ذكرت أسرة جلييلة ونسيت أجل منها، وربما قُدمت بالذكر من يتقدمه بالترتبة، من أخرت فلا تؤاخذني..

هذا يوم كانت الشام كما كانت أكثر بلدان الإسلام، يتعارف أهلها، يعرف بعضهم بعضاً، يقدمون أهل الفضل، لا ينكرون عليهم فضلهم، لم يكن قد اختلط الحابل بالنابل، والأصيل بالدخيل.

بعض أسر دمشق

فمن الأسر العلمية آل العمادي، وقد استمر فيهم منصب الفتوى أمداً طويلاً. ومن أشهرهم الشيخ حامد العمادي، وله الفتاوى الحامدية، التي نقحها الشيخ ابن عابدين صاحب الحاشية.

وقد انتزع منصب الإفتاء منهم الشيخ إسماعيل الحايك، في قصة طريفة سمعتها من أستاذنا محمد كرد علي،، وذكرت في مقالة عنوانها (التشجيع) نشرت في الرسالة في أواسط الثلاثينيات<sup>(١)</sup>، وهي في كتابي (فكر ومباحث) ومنهم آل الحمزاوي، وهم أقدم الأسر الشامية، ومن أشهرهم مفتي الشام محمود أفندي الحمزاوي.

وآل الكزبري نسبة إلى جدهم الشيخ علي كزبر، وأجلهم الشيخ عبد الرحمن الكزبري وآل الغزي وكان إفتاء الشافعية (غالباً) فيهم، وآل العطار وأصلهم من حمص من أشهرهم الشيخ حامد العطار، وأبوه الشيخ أحمد الذي ندب الناس لدفع نابليون لما حاصر عكا، وكان عصري الشيخ عبد الرحمن الكزبري وخطبه في العلم، وثالثهما الشيخ عبد الرحمن الطيبي، وكان لحامد خمسة من اليد كلهم عالم معروف، منهم الشيخ بكري العطار وهو أشهرهم وباسم وهو والد الشيخ سليم المشهور، والشيخ إبراهيم وهو والد الشيخ رضا القاضي في المحكمة الشرعية وهو أبو الأستاذ عصام زوج بنتي رحمة الله، وآل الشطي وهم فقه حنبلي فريضون، أصلهم من بغداد من أجلهم: الشيخ حسن الكبير المتوفى سنة ١٢٧٤ أخذ عن المشايخ: مصطفى السيوطي، وغنام الجدي، وعبد الرحمن الكزبري. وعبد الرحمن الطيبي. وولده الشيخ أحمد الشطي مفتي الحنبلي في دمشق المتوفى سنة ١٣٠٧، وهو والد صديقنا بل أستاذ الشيخ حسن الشطي، قاضي لك، وقاضي دوما، وقاضي دمشق، وقد خلفته في المحكمة الثلاث

والشيخ عمر، وهو أخو الشيخ أحمد والد صديقنا الشيخ جميل الشطي مفتي الحنبلي في دمشق، ومؤلف كتاب (أعيان دمشق).

والشيخ مصطفى، مؤلف كتاب (مطالب أولي النهى) وأصلهم من قرية الرحبة بجوار القطيفة، على جانب الطريق من دمشق إلى حمص وهو شرح كتاب (غاية المنتهى) للشيخ مرعي الكرمي، نسبة إلى بلدة

(١) الثلاثينيات أي عشر الثلاثين (١٩٣١ - ١٩٣٩)

طوركرم<sup>(١)</sup> (طولكرم) المتوفى ١٢٤٣. وآل الخاني وأشهرهم الشيخ محمد الخاني الكبير، وأصلهم من (خان شيخون) بين حلب وحماه.

وآل البيطار وأشهرهم شيخنا العالم النظار السلفي الشيخ محمد بهجة، مدير المعهد العلمي في مكة، ثم كان المؤسس والمدير للمعهد السعودي. ومن العجائب أن أباه كان صوفياً من غلاة الصوفية.

وآل الفاسمي وعلمهم الشيخ جمال الدين، صاحب المسنقات الكثيرة. وكان عالم الشام

وآل الأيوبي ومن صحبت سنهم العالم المربي الشيخ توفيق الأيوبي، مدير أول مدرسة شرعية فتحتها الأوقاف في الشام، وكانت في المدرسة السيمياطية على الباب الشمالي للجامع الأموي، وكانت فيها قديماً دار عمر بن عبد العزيز، وأكثر رجالها من أرباب الوجاهة والمناصب، أظهرهم عطا بك الأيوبي الذي ولي رئاسة الوزارة مراراً. وآل المحاسني ومن أقدمهم موسى وكان خطيب الأموي، وقام بالخطابة بعده ابنه أسعد ١٢١٨، ومنهم أستاذنا في معهد (أي كلية) الحقوق المحامي العالم الأستاذ سعيد، وبعده رفيقنا الوزير المحامي الأستاذ أسعد، وصديقنا الشاعر الذي كان معاً في مكتب غيره، ثم كان معاً مدرساً في مكة زكي المحاسني. وكان التدريس تحت القبة للشيخ عيد الرحمن الكزبري، ثم لولده الشيخ مسلم، ثم انتهى إلى الشيخ بدر الدين الحسني وهو جد زوجتي لأمها.

وكانت نقابة الأشراف للشيخ أحمد العجلاني، ثم للشيخ مسلم الكزبري ثم للشيخ أحمد منجك العجلاني، ثم للشيخ صالح تقي الدين، ثم لولده الشيخ أديب مؤلف كتاب (منتخبات التواريخ)، ثم عطلت زمناً. ثم وليها السيد محمد سعيد الحمزاوي فجدد لها بعض مجدها ثم ألغيت الوظيفة.

وآل الأسطواني، وكلمة الأسطواني تقابل كلمة العمودي هنا، أو في حضر موت، وأجل من عرفت منهم الشيخ عبد المحسن الأسطواني رئيس

---

(١) تسعة أعيان فقهاء الختابة من علدنا: من الشام.

محكمة التمييز الشرعية، المعمر الذي عاش مئة وثمانية عشرة سنة، وما فقد شيئاً من علمه ولا من ذاكرته، وسأعود إلى الحديث عنه، والفقير الشيخ محمد شكري مفتي دمشق، والقاضي الأستاذ وجيه الأسطواني رئيس المحكمة العليا، وخطيب الجامع الأموي الشيخ حسن، وحفيده زميلي في القضاء الذي توفي شاباً، الشيخ عبد الرؤوف، وسلفي في القضاء الشيخ عبد الفتاح.

وآل الباني، نسبة إلى فضيب البان اشتهر منهم: الشيخ عبدالرحمن، ثم ولده (أستاذنا) الشيخ سعيد الباني - وهو عالم محقق - له كتابان: عمدة التحقيق المطبوع سنة ١٣٤١، وكتاب في الذهب والحرير، وهو مفكر يحقن النص ويعمل فيه عقله، ويجعل منه شيئاً جديداً، وإن لم يخالف القديم. ومن آل الباني الأستاذ عبد الرحمن (الحفيد)، وهو عالم دین كان مفتش العلوم الإسلامية في وزارة المعارف السورية. فأدى في الوظيفة حق الله، ووفى الأمانة، وأفاد باشته المسلمين.

ومنهم آل الحسيني وكانت فيهم نقابة الأشراف آخر القرن الثالث عشر وأول تأليه. وأصلهم من طرابلس الشام، وكان فيهم الإفتاء وتدریس الفقه أوائل القرن الرابع عشر.

وآل المير من شيوخهم. الشيخ أسعد المتوفى ١٢٤٢، ومنهم اليوم أمين الفتوى الشيخ عبد الحكيم.

والمريني. وأصلهم من حارثي. وآل السفرجلاني، وآل الحندي وأصلهم من لمعة. ومنهم مفتي دمشق الشيخ أمين الجندي، وسميه الشاعر العام. وأستاذ من الحكيم.

والمالكي. آل الحلبي وكان منهم الشيخ سعيد شيخ علماء الشام. ولده الشيخ عبدالله، وآل السويدي وأصلهم من العراقي، أعرف منهم الشيخ أمين سويد (السويدي) الذي كان مدرسا في مدارس الفلاح. جاء به مؤسسها الرجل الذي يستحق أن تؤلف في سيرته كتب لا كتاب: محمد علي زينل، عرفه في حمدة من نصف قرن، وفي بومباي من ربع قرن.

وآل قزّيا كان منهم الشيخ مصطفى أمين الفتوى توفي ١٢٥٧. ومن القراء الشيخ أحمد دهمان، والشيخ محمد الحلواني، وقد جوّدت قراءتي عليه، والشيخ عبد الرحيم دبس وزيت، وولده الشيخ عبد الوهاب وقد قرأت عليهما. والشيخ عبد الله المنجد، وهو أول من جمع في دمشق، بين طريقتي الشافعية والطبية، وكان أستاذه في الطبعة حافظ باشا المشير العثماني، - فماذا يقول الذين يدعون الحكم العثماني استعماراً، ويقرونه باستعمار الكفار - وهو والد الصديق الدكتور صلاح الدين المنجد، وآخر ما صدر له (معجم ما ألف عن رسول الله ﷺ) وهو كتاب جليل.

وعندنا في الشام مجموعة أسر سجدية، كان أهلها غالباً أدلاءً في طريق الحج، يدعوهم الناس (العقيل) منهم: آل الرواف، وآل البسام، وآل الشبل. ومن كرام الأسر الشامية: آل القوتلي، آل العظم، آل العظمة، آل السكري، آل الشمعة، آل الميايبي، آل حتاحت، آل الطباع، آل الحلال. آل العاني، آل العابد، آل شوري، القدسي، الركابي، السقطي. الحليل، الذرا، الفتواي، القطب، النحلاوي، سكر.

وقد نسيت أن أعدد في الأسر العلمية آل عابدين. ومنهم أعظم فقيه حنفي ظهر في القرنين الأخيرين وهو صاحب الحاشية التي هي عمدة المفتي على المذهب الحنفي، ومنهم المفتي الشيخ أبو الخير الندي كان أبي أمين الفتوى عنده، وولده المفتي الطبيب آخر العلماء شيخنا الشيخ أبو اليسر

ومن الأسر الشامية: آل البرهان، وآل القضماني، وآل البارودي، وآل شمدين، والألسي، والدردي، والموقع، وبدير، وشيخ الأرض، والحجة، والفتواي، وأبو الشامات.

رحم الله من مات، وثبت من بقي ما يرضيه، وغفر لنا ما نسينا أو أخطأنا.



## الثورة على الفرنسيين

لقد كنت كتبت عن الثورة السورية كتابات كثيرة، لا أستطيع ولا أريد أن أجمعها هنا، ولا أقدر الآن على كتابة مثلها، من سنة ١٣٤٧هـ حين كنت في مصر، وكتبت في (الرهراء)<sup>(١)</sup> قصة (شهيد الغار) الأمير عز الدين الجزائري، ووضعتها في كتابي (اهمسيات) المطبوع سنة ١٩٣٠، وفي تلك السنة بدأت أكتب في مجلة (الناقد)<sup>(٢)</sup> قصة طويلة عن (حسن الخراط)، فوقفها الفرنسيون بعد نشر الفصول الأولى منها، وفي كتابي (دمشق) قصة عنوانها (في خرائب الدرويشية)، وفي كتابي (هتاف المحدث) الكثير عن الثورة والنضال وعن قضية فلسطين والجزائر.

وقد يسأل قارئ: ومن حسن الخراط؟ وحق له أن يسأل، فما في الألف من القراء واحد يعرف من هو، أو سمع باسمه، وما فيهم واحد في الألف لم يسمع باسم جيمارا أو كارلوس الإرهابي أفليس هذا عجيباً؟!.

نجهل أسماء أبطالنا المجاهدين، ونحفظ أسماء المجرمين المفسدين، فهل كان ذنب (حسن الخراط) أن ظهر في أمة لا تقدر أبطالها، ولا تنصف رجالها؟.

حسن الخراط حارس ليبي، خفي من خفراء البلد، كان عمله أن يجرس بيوتها من اللصوص، فلما رأى لصوصاً أخطروا، وشروهم أكبر، قد سرقوا البلد كله نهض مع من نهض من الشوار بجمي الذمار ومحمو العار.

(١) الزهراء لمح الدين الخطيب وكانت تصدر في مصر وتعد المحلة الأدبية الأولى.

(٢) (الناقد) لأديب الصندي وكانت تصدر في دمشق.

وقف مع إخوانه الذين باعوا نفوسهم لله، لما أعلن أنه اشتراها من المؤمنين، وقف في وجه فرنسا يوم كانت فرنسا تملك أقوى جيش بري في العالم، يوم خرجت من الحرب ظافرة على هامتها غار النصر، يوم اقتسمت هي وزميلتها انكلترا، عفواً بل بريطانيا العظمى التي لم تكن تغيب عن أملاكها الشمس، في القارات الخمس، فانكسرت ونضأت ورجعت إلى حقيقتها وانزوت في ركن من جزيرتها، فلم تعد تطلع عليها الشمس، إلا بضعة أيام على طوال العام.

اقتسمنا بلاد الله، على كره أهلها، فأخذت فرنسا حايين من جوانب البحر الذي كان يقال له يوماً بحر العرب، وكان العرب بل كان المسلمون يملكون جوانبه كلها إلا الأقل منها

أخذت المغرب، والجزائر، ونونس، والشام (ولبنان من الشام)، وأخذ الانكليز جنوبي الشام، أي فلسطين (وفلسطين من الشام)، ولم يبق في ديار المسلمين بقعة لم يصل إليها الاستعمار إلا هذه الجزيرة، فقد حام حولها ولم يلجها، ومد أصابعه إليها، ولم يرفع علمه عليها

وكذلك الدنيا، الناس فيها كُفِرَ منسلفي اجبال. يصعدون حتى يبلغوا الذروة التي لا مصعد بعدها، فيهبطون حتى يبلغوا القارة التي لا مهبط بعدها، فيصعدون.

يولد الإنسان ضعيفاً، لا ينطق، ولا يمشي، فإذا كبر قوتي حتى يغدو الخطيب الذي يسوق الجموع بكلمة من فمه، أو الشاعر الذي يغوص في أعماق النفس، أو بطير في سماء الخيال يرصف الكلم درراً وحواهر، وأين الجواهر والدرر من عبقرى المقال؟

ويمشي على الأرض بخيول من مركبات الحديد، تسابق الريح في مهبط فتصل قبلها، ثم يعلو في الجواء على نسور من المعدن فيجاري الأصوات، ويكون أسرع منها فيسبقها، ويصل إلى القمر فيفجع الشعراء والعشاق بحلم عاشوا عليه دهرًا، ويحول القمر الذي طالما تغنوا بجماله وسحره، إلى حجارة وتراب يطؤونها بأقدامهم!

وبعد أن كان لا يفرق بين الجمرة والتمرة، ولا يدري كيف يشرب الماء من الكوب، قوي حتى كشف بعقله خفايا الوجود، مما كان يظنه الأقدمون غيباً وما هو بالغيب، إن ما جعله الله غيباً يستحيل أن يطلع عليه بشر، وما يطلع عليه البشر لا يكون من الغيب.

﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ﴾ حتى إذا بلغ أشده، واستوى على قمة القوة، بدأ الضعف ﴿ الله الذي خلقكم من ضعف، ثم جعل من بعد ضعف قوة، ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة ﴾.

وكذلك الدول. كنا نحن أعزّ وأكرم، وكنا الأعلم، فوقفنا وساروا فصاروا لما ساروا أقوى منا، وغدوا هم العلماء من دوننا.

هبطنا من يقاعاء وأضعنا ملكنا، وغنا وطال نومنا، فطمع الطامعون فينا.

كنا كالأسد في غايه لما ساد الغاب، وتوارت منه الذئاب، ولم يصمد له منها ظفر ولا ناب. الطراد وسكن، واسترخى فأدركه النعاس وغلبه الوسن، فلما استغرقه المنام، استبقت الذئاب، وطمعت فيه الثعالب، ولكن الأسد يبقى أسداً ولو نام، والجوهر لا يصير زجاجاً ولو رميته في الوحل، والزجاج لا يغدو الماء<sup>(١)</sup> ولو وصعته في صادين الحديد. يرسب الذهب إذا أُلقي في الماء، ويسزل إلى قعر الاناء، ويطفو التبن والعبر، ولكن هذا لا يُغلي التبن ولا يرخص التبر.

وإذ نكس الأيام فينا تسدلت  
نعمى ونؤسى والحوادث تفعل  
فما لُيئت ما قنائة صليبة  
ولا ذللتنا للتي ليس تجمل

\*\*\*

لقد أهد الأسد يستيقظ. إنه يمد يديه ثم يسترخي فيعاود المنام، لقد بدأت حركات الضال، فمن انتفاضة سنة ١٩١٩ في مصر وما كان فيها من أحداث، إلى أحداث الرميثة في العراق، إلى ثورة الربيع المغربي التي قادها

(١) الفرد الماس، لا ماس. اللام فيه أصلية وليست لام التعريف

الأمير محمد عبد الكريم الخطابي فحارب فرنسا وإسبانيا معاً.

ولقد لقيته في مصر سنة ١٩٤٧ بعد عودته من المنفى فوجدت فيه عالماً تقياً عابداً في ثوب قائد، رحمه الله فلقد كان مجاهداً مؤمناً<sup>(١)</sup>.

ثم كانت الثورة السورية، وامتدت ثمانية عشر شهراً، كانت تمتلئ بأخبارها البرقيات، وأعمدة الصحف وتتصدر أكبر جريدتين يومئذ: التأسيس والطان (أي الزمان) التي خلفتها لوموند (أي العالم).

لقد قهروا جيش فرنسا وأنا أقول الحق لا أنظم فساد النخري، ولا أسجل أحلام البيضة ولا المنام.

كانت تخرج الحملة (والكلمة من تعبيرات الثورة) فيها الديابات والمصفحات يقودها جنرال أو كولونيل، وفيها الألوف من الجنود فيردها عشرات (وإن كثروا فمئات) من الثوار، سلاحهم الساق والسيوف، وسلاح آخر أقوى من السيوف والبنادق، هو الإيمان. لا يسحر أحد من هذا الكلام، فإن البندقية مع الإيمان أقوى من المدفع بيد غير المؤمن، والحجارة في أيدي شباب فلسطين اليوم وأطفالها، تقل الحديد وتغلب البارود في أيدي كلاب... لا بل خنازير يهود، ما يبلغون أن يدعوا كلاباً فللكلاب وفاء، ويهود الغدر من طبائعهم والمراء.

الإيمان ولو كان بالحب والطاغوت قوة لا تكاد تغلب، والمثل فينتام أما أتعبت بل أعجزت فينتام أقوى دول الأرض، وهي لا تؤمن بالله ولا باليوم الآخر، ولا يرجو قتلها جنة، ولا يرقب ثواباً؟.

هذا هو المثل الواطي القريب، أما المثل الأعلى لما يصنع الإيمان من عجائب فهو المسلمون الأولون، الذين مشوا لإعلاء كلمة الله شرقاً إلى تركستان وأطراف الصين، ومشوا غرباً حتى اقتحم (عُقبة) بفرسه ماء البحر بحر الظلمات (الأطانتطي) وقال: اللهم لولا هذا البحر لمضيت مجاهداً في سبيلك حتى أفتح الأرض لنور الحق أو أموت.

(١) في كتابي (هتاف المجد) فصل عنه.

المسلمون الذين فتحوا بالإسلام وللإسلام ما بين قلب فرنسا وقلب الهند، ولولا أننا خالفنا عن أمر ربنا فجعلنا لـ (شارل مارنل) <sup>(١)</sup> سبيلاً إلى كسب المعركة في (بواتيه)، لوصلنا القسطنطينية وطوّقنا عنق أوروبا بأغلى عقد تزدان به الأعناق.

إنك إن استنيت معركة حنين مع هوازن، وعشرراً آخر من عشرة الآلاف من المعارك التي خضناها لم تجد المسلمين إلّا أقل من عدوهم عدداً، وأضعف عدداً، وأقل عتاداً ومدداً.

فبِمَ انتصروا؟ لقد كان قواد الروم والفرس ممن درس فنون الحرب، وتاريخ المعارك، وسير الأبطال، ففي أي كلية عسكرية درس ذلك خالد بطل اليرموك، وسعد بطل القادسية، وابن العاص، وعقبة، وموسى، وطارق، والمهلب؟.

لقد فتح قتيبة من الأرض أوسع مما فتح نابليون، ولكن ما فتحه نابليون عاد إلى أهله. وما فتحه قواد الإسلام بالإسلام وللإسلام بقي للإسلام.

أين الذين غلبوا في معارك الفتوح في الشام، ومصر، والعراق، وفارس، والهند، وإفريقية، نير هم؟ إمامهم هم الذين يسكنون اليوم هذه البلاد، لكن ليس منهم مغلوب. وليس بينهم غالب، الإسلام جعلهم إخوة، إخوة لا إخوان ولا أصدقاء، بل إن رابطة الإسلام أقوى من رابطة الأخوة بين الأشقاء الذين ولدتهم أم واحدة، من أب واحد.

لو كنتم معي أيام الثورة، لقرأته كل يوم اسم (جسر تورا) في البرقيات يبعثها المراسلون، وفي أعمدة الصحف، ولم أذكر الإذاعات لأنها لم تكن يومئذ إذاعات، فهل يعرف أحد منكم ما (جسر تورا)؟.

(تورا) أحد أناء سردى، نهر (أو ترعة بالإصلاح المصري) عرضه لا يبلغ خمسة أمتار، عليه جسر صغير. كانت تمر عليه الحملة فلا تكاد تجوزه حتى ترد عنه.

(١) هو حد شارلمان

من يردّها؟ جيش نظامي كجيش المارشال (جوفر) عند (المارن)<sup>(١)</sup> في الحرب الأولى؟ أم قوة مثل قوة الروس في (ستالينغراد)<sup>(٢)</sup> في الحرب الثانية؟ لا، بل أفراد من الثوار، ما لهم خنادق كالتي يعرفها الجنود، ولا حصون كحصونهم، ولا سلاح كسلاحهم. ما معهم إلا البنادق وقليل من العتاد، وما يحميهم إلا (الدوك)، و(الدك) جدار البستان وهو تراب يدك دكاً، ويكس كساً، فإذا جف صار كالحجر

وكانت تخرج الطيارات فيرميها الثوار برصاص البنادق، وقد يستقلونها. ما كانت كطائرات هذه الأيام. بل كانت صغيرة ما فيها إلا جنديان اثنان ظاهران، لها جناحان قصيران أحدهما فوق الآخر، ومروحة صغيرة من أمامها، لقد رأيتموها في فلم (عمر المختار) وقفت فرنسا بجيشها وجنالاتها وجيروتها أمام جسر تور، لم تقدر أن تنخطأه. إلا سرات معدودات.

ثم كان ما هو أعجب، لقد استطاع الحارس لمبي حرس الخراط أن يدخل دمشق، دخلها على رغم هذه القوى كلها، واحتلها الثوار ثلاثة أيام، لم يكن فيها في البلد فرنسي واحد.

وكان الفرنسيون، أصحاب الثورة الكبرى التي يدّعون أنها قامت لنشر العدالة والمساواة والحرية، الفرنسيون قوم روسو وهوغو وإلمارتين. الذين صنعوا تمثال الحرية، وأهدوه إلى أميركا. فأقامته عند بابها الشرقي. يطل على فرنسا شاكرًا، من وراء البحر الأطلنطي.

فرنسا أم الحرية ذبحت الحرية في الشام، أقامت القلاع على جبل قاسيون في دمشق، وعلى جبال المزة، لا لرد العدو عنها، بل لرد أهلها عن

---

(١) كانت المعركة في ابلول (سبتمبر) ١٩١٤ وهي التي ردت الألمان عن باريس.

(٢) مدينة البلغار التي يذكرها الرحالة المسلمون، هي ستالينغراد أو هي بجوارها، فمن كان عنده علم عقق فليكتبه، وهي غير حكومة البلغار المعروفة، بلغاريا هذه في البلقان، ومدينة البلغار في روسيا، وأول رحالة كتب عن روسيا هو ابن فضلان، وطبع رحلته بجمع دمشق.

استرداد حريتهم ممن عدا عليها. والذي عدا عليها أمها. أم الحرية  
فرنسا!!.

ولما عجزت عن مواجهة الحارس الدمشقي في ميدان القتال حاربت  
البيوت فهدمت الجدران، ودكت الأركان، وأزالت العمران، أعادت قصة  
دون كيشوت مع الطواحين؟.

لقد أساءت فرنسا يومئذ إلى تاريخها، ولطخت الصفحات البيض من  
أدب أدبائها بالطين.

أين آداب الفروسية؟ إن الفارس الشريف يكف عن المبارزة إذا سقط  
السيف من يده حصمه فتحي بلا سلاح، لأن المسلح الذي ينزل أعزل لا يكون  
فارساً شريفاً، فكيف صرحت فرنسا يومئذ دمشق بمدافعها؟ كيف خربت  
وأحرقت أحمل أحيائها، ما بين سوق الحميدية وسوق مدحت باشا، حيث  
كانت أبي وأغلى بيوت دمشق؟ إقرأوا كتابي (هتاف المجد)، إن أردتم  
تفصيل هذا الإجاب، وكتابي (دمشق).

لقد بقي هد الحي أطلالاً سنين وسنين، ولما أعادوا بناءه أخيراً، بقي  
اسمه إلى اليوم حي احريقه

واحرقة طرفاً من (الميدان) حي الأشاوس من كرام أهل الشام.

\* \* \*

واسترد العيسيون قلب البلد (دمشق)، وبقيت أطرافها بأيدي الثوار أكثر  
من ستة كم يري (الاستحكامات) أي أكياس الرمل، وراءها الرشاشات، في  
الحل لا يضر. وفي مجمع الطرق إلى احتباء السمع، إلى المهاجر والصالحية  
وحي الأكراد (رد الدين)، وكلها خارج حدود البلد، وفي باب الجابية،  
والميدان كله، وباب سرنجة، وقصر حجاج خارج حدود البلد، وداخل الباب  
الشرقي قرب مكتب عسر وما بعده خارج حدود البلد، وفي وسط العقبية أمام  
جامع التوبة وما بعده خارج حدود البلد، والغوطة كلها خارج حدود البلد،  
أبى في أبدي الثوار.

ومن أطرف ما كان، ما ذكرته في خطبتي في حفلة الجزائر، في أواخر  
الخمسينيات: كان في الاستحكام في العقيدة، حيث كنت أسكن أيام الثورة،  
ضابط باريزي أشقر ناعم، كان رجولته خطأ مطبعي في سجل الحياة، أو كأنه  
أنثى متخفية في ثوب رجل.

أحب أن يرى صورة حسن الخراط، فجاءه أحد ظرفاء الحي بصورة  
عتر التي تعلق في المقاهي، فلما نظر إليها ورأى سوادا كالليل، وعيين تقدران  
كعيني الصقر، وشاربين كساريتي مركب. انخرط بطنه، وأصابه الزحار  
(الدوسانطريا) فحمل من فوره إلى المستشفى.

بقينا على هذا سنة وبعض السنة، الفرنسيون في داخل البلد، والثوار في  
أطرافها، وفي الغوطة، من حولها.

ننام على انطلاق الرصاص، ويصحو على تفجير القنابل. نبدأ ساعات  
من الليل، قد تطول وقد تقصر، ثم تفجّر<sup>(١)</sup> لهزات والرجات حتى صرنا  
نميز طلقات بنادق الثوار، من رشاشات الجند، تلك تقول. و ن ن ن. وهذه  
تقول: طق طق طق. وطلقات مدافع الدبابة. دج دج

يهجم الثوار، فيرد الجند من (الاستحكامات)، ثم نخرج الحملة، ثم  
تراجع مكسورة.

ما أضعف الثورة إلا الذين خدعوا، من أبناء الشرئس الذين تطوعوا  
للقنال، وجنود السنغال الذين أجبروا عليه.

ويوم القيامة يبعثون على نياتهم، ويؤاخذونهم وغيرهم بأعمالهم، وفي  
رحمة الله متسع لكل من مات على الإيمان، اللهم رحمتك لنا وللمسلمين.

\*\*\*

كتب عن الثورة الكثير، لكنها لم تؤرخ كما ينبغي، ولم أكن فيها لأكتب  
عنها من داخلها، لذلك وصفت ما يراه مثلي من الظاهر.

---

(١) هكذا تكتب الهمزة هنا لأن الضم أقوى من الفتح.



ما كنت ممن خاض غمارها، كنت شاباً تقصر سني عن خوضها، وإن  
كان كثير من أقراني قد شاركوا فيها، وأبلوا حسن البلاء.

لما أحرقت دمشق كنت أرى النار من بعيد، أرى لسانها ممتداً يلحس  
الدور والقصور، فيمحو الحياة منها، كما يمحي لوح التلميذ إذ يلحسه بلسانه.  
فأحس قلبي يحترق أسىً مثلما تحترق دمشق.

وعندما كانت تخرج الحملات، معها الدبابات والمصفحات، فتواجهها  
البنادق القديمة، فتردها مكسورة، كنت أسمع الأنباء من بعيد. فأشعر  
بالفخر، وأجد الرضا. فأحمد الله، أن نصر المجاهدين، وآمل أن تعود  
الحرية. ويرجع الخير إلى دمشق ويعم بلاد المسلمين.

## كيف انطلقت الثورة

كان عهد ما بين الحربين عهد نضال للاستقلال، وكانت قمة هذا النضال، وكانت ذروة أجماده، ورأس مفاخره، الثورة السورية.

ولئن ظهر الله الحرية العربية من أضرار الاستعمار المباشر، فلقد منّ على الشام أن كانت أول قطر عربي حظي بالاستقلال التام، والجلاء الكامل لجيوش الوغليين عليه، المستلطين على شعبه.

وشدّ ذلك في أم الإسلام، والمدينة الظفر التي أرضعته طفلاً، دمشق الخاصة في حصنه صيباً.

وما قوى الإسلام بها وتكبر في قويت به، وما احتاج إليها، ولا شرف بها، ولا يعيرها، بل هو الذي سرقنا وشرف غبرها.

ولئن كانت الخزيرة دار العروة، فالشام البستان الذي يطيب بالدار، والدار الذي لا يبنى لأهل الدار.

ولئن كانت لمدينة عاصمة الدولة الإسلامية الأولى، فدمشق عاصمة الدولة الثانية، على أن الإسلام دولة واحدة، ولو تعددت العواصم، واحتلف الحكام، دولة واحدة بها واحد، وسبها واحد، ودستورها واحد، وكل أنانها إجماع في الإتيان، نص على هذا الدستور الخالد الذي هو القرآن.

\* \* \*

إن الثورة لم تخرج من (جبل الدروز) كما شاع في الناس حتى أخذوه حبيفة مسلّمة. وما هو بالحقيقة المسلّمة، بل خرجت الثورة من غوطة دمشق.

ولقد كان المهد لها المظاهرات التي بعثتها زيارة (كراين) الذي جاء صديقاً... و(بلفور) الذي كان أول المسؤولين عن سرقة فلسطين.

أما السبب المباشر فهو جولة الشيخ بدر الدين في مدن سورية، أي أنها متصلة بـ (نهضة المشايخ) التي لم تلق من المؤرخين، ولا من الباشاين الاجتماعيين العناية التي تستحقها.

ولقد كانت بحسناتها وبعيومتها (حادثاً) ينبغي أن يدبس، ومن يدرسه فسيرى أنه لم يكن أثراً (أو رد فعل كما يقولون) لدخول الفرنسيين الشام، بمقدار ما كان أثراً ونتيجة للمواجهة الكاملة بيننا وبين هذه الحضارة الحديدية<sup>(١)</sup> التي كانت قبل الحرب ترانا ونراها من شق الباب، ومن طاقة الجدار، ودخلت علينا هذه المرة الدار، كما يدخل الزوار.

لقد أدخلت لما دخلت بموازينا، وبذلت مقاييسنا، وغيّرت أساليب تفكيرنا ومعيشتنا، فكنا معها أصنافاً ثلاثة:

قليل من شبابنا قبلوها بكل ما جاءت به حتى المفاصد والشرور، وكثير من مشايخنا رفضوها بكل ما جاءت حتى الحقائق العلمية، كدوران الأرض حول الشمس، والجمهور منا ما أحسّ بها، وبقي يعيش بعد دحولها كما كان يعيش قبله، ولكن الجمهور عندنا كان يسير دائماً وراء المشايخ حيثما ساروا، يأتمر بأمرهم، ويسمع منهم.

الشبان حجتهم أن أصحاب هذه الحضارة أقوى منا وأرفع، فكل ما عندهم إذن خير مما عندنا، والمشايخ حجتهم أنهم كفرة، لا يدينون دين الحق، والكفر شر فكل ما يأتي من عندهم إذن شر.

وكلا القولين خطأ وما لأحد منهما حجة فيما احتج به، فما يقاس الحسن والقبح بمصدره الذي صدر عنه، ولا يعرف الخير من الشر بمبعده الذي جاء منه، بل يعرف حسنه وقبحه، وخيره وشره، من ذاته ومن صفاته، فقد نرث عن آبائنا رأياً أو عادة ويكون فيها الضرر، وقد نستورد رأياً أو عادة من عند غيرنا ويكون فيها النفع.

(١) لي محاضرة طويلة عن موقفنا من هذه الحضارة ألقيت في الرياض في ندوة الشباب العالمية ١٣٩٣ هجرية.

فكيف إذن نميز الحسن من القبح، والخير من الشر؟

الجواب: نميز بما أودعه الله فينا من عقول، فإن أخطأت العقول الطريق نفش عن النور الذي يدلها عليه، ويسيرها فيه، ويكفل لها بلوغ الغاية فلا نضل عنها. وهذا النور هو الشرع. فالميزان هو العقل المهتدي بهدى الشرع.

\*\*\*

الشيخ بدر الدين الحسيني كان شيخ العلماء، وكان يدعى المحدث الأكبر، كتبت عنه في (الرسالة) حين وفاته<sup>(١)</sup>، وكتبت عنه بعد ذلك<sup>(٢)</sup>، فلن أفيض الآن في الكلام عنه، لكن أقول: إن دنياه كلها كانت داره، والجامع الأموي، ودار الحديث التي انتهت إليه مشيختها، وما كان من أصحاب الحركة والتجوال، فلما قام الشيخ علي الدقر، والشيخ هاشم الخطيب، بما دعي بنهضة المشايخ، ورأى إقبال الناس عليهما، وانتفاعهم بهما، لا سيما أهل حوران والبلقاء (في شرقي الأردن) سره ذلك منهما، وشجعهما، فسألاه أن يجول معهما في مدن سورية يعظون الناس، يدلون على الله، يأمرون بالمعروف، ينهون عن المنكر، فمشى معهم، وكانوا إذا شارفوا البلد خرج الناس لاستقبالهم، وساروا وراءهم، فيملؤون بالمسجد، فيعظون ويعلمون، ويحثون على الجهاد، يبينون أحكامه وحالات وجوبه.

وكانت هذه الجولة هي الشرارة التي أشعلت الثورة، لا أقول هذا من عندي. ولا نقلا عن الثقات العارفين من مشايخي وصحبي، كلهم يعرف هذا، ويعرفه كل من أدرك تلك الأيام. ولكن أنقله عن تقرير رسمي لمدوب المفوض السامي الفرنسي، نشرته جريدة (الأحرار) في بيروت العدد ٦٧٨ الصادر في الثاني من شعبان ١٣٥٤ هجرية.

\*\*\*

بدأت الثورة عقب عودة الشيخ من حلب.  
وهذه المذكرات التي بين يدي كتبها بطلب مني الشيخ محمد اسماعيل

(١) ١٣٥٤ هـ (١٩٣٥ م)

(٢) في محله واسطة العالم الإسلامي ١٣٨٥ هـ (١٩٦٥ م)

الخطيب، وكان مع نفر من إخوانه أول من خرج إلى الغوطة، وكان عزمي على تنقيحها لأنها مكتوبة بلغة عامية لا يكاد يفهمها إلا الشامي، ثم نشرها، وأحببت أن أتحقق منها قبل النشر، فاتصلت بأكثر من استطعت الاتصال بهم، عن ذكر اسمه فيها، وسألته عما جاء من خبره في هذه المذكرات، فما اختلف قول واحد منهم، فوثقت من صدقها، ولكنني لم أنشرها، سبب لغتها أولاً، فقد قلت إنه لا يفهمها إلا الشامي، لا بل، إن الشامي اليوم لا يكاد يفهمها، لأنها بعامية الشام قبل خمسين سنة، ثم إنها مملئة بأسماء رجال لا يعرفهم اليوم أحد، منهم من ذم فعالة، فإذا أعلنت الدم آذيت ذريته وآله.

لذلك أخلص منها، ما يناسب المقام، مترجماً إلى لغتي، مكتوباً بأسلوب.

\* \* \*

يذكر (رحمه الله) زيارة (كرايس) الأميركي، الذي حضر للوقوف على رغبات السوريين أو لتقصي الحقائق على المعبر الحديد، وكان الحزب الوحيد هو حزب الشعب فاجتمع برجاله، وبغيرهم من الزعماء، اجتمع بالدكتور عبد الرحمن شهنذر، والأستاذ حسن الحكيم - الذي لا يزال حياً وقد فارب المئة، قواه الله وجنبه الأمراض<sup>(١)</sup> -، وزكي الخطيب، وسعيد حيدر. وهؤلاء الأربعة من أنظف الوطنيين بدءاً، وأقومهم سبيلاً، وحدثت أحداث كانت عاقبتها أن نفى الفرنسيون هؤلاء جميعاً وكثيراً من غيرهم إلى جزيرة أرواد، مقابل الساحل السوري فحبسوه فيها.

وكان ذلك في السنة الأولى لدخول الفرنسيين، والمظاهرات التي قامت نتيجة ذلك هي أول المظاهرات في عهد الانتداب، وقد كنت نسيها لما تكلمت عن تظاهرة الناس يوم زيارة بلفور.

ويقول (رحمه الله): أن نفهم كان يوم الأربعاء، وكانت الأحداث كلها والتظاهرات تبدأ من الجامع الأموي، بعد صلاة الجمعة، فلما كانت الجمعة، وقضيت الصلاة، قام الدكتور خالد الخطيب فخطب مطالباً بالاستقلال، وإطلاق

(١) توفي رحمه الله سنة ١٤٠٤ هـ عن مئة وأربع سنين وسيأتي الكلام عنه.

المعتقلين، وخطب غيره، وخرج المصلون متظاهرين، فقابلهم رجال الشرطة، ثم جاء الدرك، ثم جاءت (السباهية) من جنود المغاربة والجزائريين الذين ساقوهم إلى نزالنا مرغمين، وتصبوا مضخات الحرائق على كتف بردى، وواجهوا الناس بالماء من خراطيمها، فأقدموا فقطعوا خراطيم الماء، وألقوا بالمضخات ومن معها في النهر، عندئذ أطلق الجند الرصاص، فأردوا خمسة من الشباب، وكان هؤلاء أول فوج من الشهداء، بعد ميسلون.

\* \* \*

قال الشيخ محمد في مذكراته، وقد وضعت كلامه كما كتبه بين قوسين: (....) وصار تشكيل جماعات لاجل أن تقوم البلاد بمساعدة بعضها البعض على الفرنسيين، وأنا العبد الفقير، كانت وظيفتي أن أحمل مصحف وخنجر، وتحلف الناس، والله حلفت مقدار أربعة آلاف من صنف الزكرية والرجال المشهورة، مثل ديب الشيخ، وأبو شاكرا القلعجي من العمارة، ومن الشاغور حسن الخراط، وأبو حامد الفحل، وأبو عنتر، وأبو محمد سلوم، وأبو فارس الحرش إلخ. ومن لبيدات أبو كمال عرار وأبو سليمان المهاني إلخ. .... وصادق الرجال، وأولاد سكر، وأولاد رحون إلخ. ....

ومن سوق ساروجة (صاروحا) عبد الوهاب الرحلة والأغواني إلخ. .... ومن حارة الأكراد أبو داود الشيخاني. وأبو عمر ديبو إلخ. ....)

وهؤلاء الذين سماهم وأمثالهم هم فتوات الأحياء كما يقال في مصر، أو لقصايات، ودعوهم نحن (الزكرية)، والأولون منهم كانت لهم مزايا الفرنسيين، يجردون الضعيف، ويمنعون الظلم، ويحمون أعراض النساء، ثم حلف من بعدهم حلف لبسوا مثلهم. ولا أحب الآن الكلام عنهم.

\* \* \*

عاد الشيخ وصاحبه من رحلة الشمال، وكان قد اقترب يوم المولد، وكان أهل الشام، كغيرهم في أكثر البلاد، يجتمعون لقراءة قصة المولد، وتوزيع قراطيس السكر الملبس، ولا أعرض للمسألة التي شغلوا بها الآن الأذهان، وجعلوها قضية الإسلام الأولى، وهي حكم الاحتفال بالمولد، فانا أدون ها هنا

تاريخاً، لا أصدر فتاوى، وإن كنت قلت وكتبت من أيام شبابي. معها إلى أن  
هذه الموالد التي بقرونها، أكثرها فيه ما لا تصح بسببه إلى رسول الله. عليه  
صلاة الله.

فجد جديد تلك السنة، هو أن الاحتمال بالمولد تحول من احتفال على  
قراءة قصة المولد، وإشاد الأناشيد، وأكل السكاكر، إلى مهرجان وطني شعبي،  
إلى مبارزة بين أحياء دمشق في نصب أقواس النصر، ومظلماته برفوح شعر  
الغوفة، وتزيينها بالورد والبحر، وصوتهم وأب ريد ملهى طاب القمص  
الشعبية، رفع الأعلام عليها، واللحان الداعية إلى النصر. في تحد  
الاستقلال، وتكر الاحتلال، ما كانوا يرددون العلم الرسمي من العلم العربي  
المربع الألوان، وكانت مسابقة إلى إقامة حفلات الوطنية، كل يوم من أيامه،  
لحي من الأحياء، يفيم أهل الحي العراصة، ويخرجون بالأهازيج من تحت  
موكب الوطنيين. فيخطب الدكتور عبد الرحمن شهيد، وهو من أقارب من  
سمعت من الخطباء، وزكي الخطيب، وحامد الخطيب. وبعد الحماسة وربما  
مشوا بمظاهرة، فاصطدموا بقوة الحكومة. وكاتب حكومة حثيثة. المحلية  
وأعضاؤها كدمى مسرح العرائس، لا يتحركون حتى شتمهم بدلاً لآراءها،  
والحكومة المنتدبة، أي الفرنسيين.

هنا خرج كاتب المذكرات وصحبه إلى الغرطة

قال: (وفي منتصف الليل خرجنا من عند بسطة عيسى، وخطبنا عنده  
- أي وضعنا - لفاتنا - أي عمائمنا - وقنا بزنا، ولبستنا لباس الثورة وخرجنا مع  
إخواننا عبد الرحمن الرهوان، وحريص المرجة، وأبورشيد الحجاز، ومولاه من قرية  
عربين، ومن دمشق العبد لله محمد إسماعيل الخطيب، وعبد الوهاب الرجلة،  
وشفيق السكري، وعبد الوهاب الدوجي، ونديم شهاب، وحين وصلنا جسر تورا  
اعترضنا اثنان من الفرنسيين فقتلنا الواحد وشللنا الثاني، وقعدنا في الزور عند  
جسر الغيضة) والزور موضع من الغوفة كالغابة كثيف الشجر، متقارب  
الأغصان وهي قرب سقبا<sup>(١)</sup> وجسرين وكفر بطننا.

(١) وكنت معلم مدرستها سنة ١٩٣١

قال: (بقينا أربعة أيام، وما كان أحد يطلع من الشام من حلفائهم، فصرنا في حيرة و...).

ففكروا بخطة عجيبة، كتبوا كتاباً للفرنسيين، بأن الذي قتل الجندي عند جسر توراهم فلان وفلان، ممن حلفهم اليمين وما خرجوا للجهاد، وسنهم ممن لم أسم أبو شكري الطباع، وأبو شكري فيصل<sup>(١)</sup>، وسعود اللحام، وأبو صلاح العرجا إلخ....

وأرسلوا إليهم صورة منه مع نديم شهاب، ليخبرهم أن الكتاب أرسل بالبريد إلى الفرنسيين، فإما أن يخرجوا إلى ميدان الجهاد، وإما أن يسلموا رؤوسهم إلى يد الحلال<sup>(٢)</sup>.

فخرج أكثرهم وابتدأت الثورة.

\*\*\*

أما أحداث الجبل التي ابتدأت قبل ذلك بقليل، فكانت حدثاً فردياً: جاء لبناني اسمه آدم حنجر، محكوم عليه بالإعدام، يستجير بسلطان الأطرش، فلم يجده فلجأ إلى داره.

وحق اجوار، باق عتدا من أيام العرب الأولى، يحمي السيد جاره، ولو مات في سبيله، وما كانت حرب السوس إلا بسبب الجوار.

وفانون الجوار، وسجية الكرم، اضطهرهم إليها أنهم يعيشون في صحراء ليس فيها حكومة تحمي الضعيف، ولا فندق يؤوي الغريب.

وعلم الفرنسيون بمجيئه فقبضوا عليه، فلما قدم سلطان غلى في رأسه الدم، وجمع بعض بني عمه من الطرشان، وكان بعض منهم مع الحكومة، وهجم على المخفر، وبدأ القصاد. وخرجت الحملات.

\*\*\*

(١) أبو صديقا الدكتور شكري فيصل، وكان هو واخوه من زعماء حينا (العقبة)

(٢) والعجب أن مدير الشرطة يومئذ هو حدي الجلال



فلما وصل الخبر إلى دمشق، عقد اجتماع عاجل لحزب الشعب، وبعثوا  
زكي الدروبي، أوصله إليهم وحماه في طريقه سعيود اللحام من الشام، ونحوه  
حركة الجبل إلى ثورة رسمية، أعلن عنها، ويصب سلطان الأطرش قائدا عاما  
لها، وانضوى الثوار تحت لوائها، وإن كانت هذه القيادة إسمية رسمية، وكان  
كل رئيس جماعة يعمل وحده.

والحديث طويل، وديوله كثيرة. ولا أستطيع إلا فنحه أن سلفه

فحسبي ما ذكرت، والعمر إن أحلت أو أهمت أو قصرت

## شعر الثورة في مكتب عنبر

تحدثت عنمن أثروا في فكري وفي سلوكي من أساتذة (مكتب عنبر)، ومن معلمي المدارس الابتدائية قبلهم، وعن بعض المشايخ الذين قرأت عليهم أو صحبتهم خارج المدرسة، وبقي بعض سيأتي (إن شاء الله) الكلام عنهم.

وقلت لكم في أساتذة (مكتب عنبر) كان أكثرهم من الضباط والقادة في الجيش العثماني. اسهرت الدولة، واحل الجيش، فجاءوا يعلمون

وكان منهم صنف صغير، هو بالنسبة إليهم شاب: ملازم اسمه (عزة الرفاعي) جمعوه له في لطلاب، وكان المراقب الأول (عاصم البخاري) وهو أحد صحتي بك البخاري الذي ولي وزارة المعارف غير مرة، وأبوها العالم السلفي الذي جمعوه رئيس العلماء الشيخ سليم البخاري، والعرب أن الطلاب كان يسلمهم عاصم بك، يشره فدي!

\*

الاستاذ شرة ارفاعي لم يدخل حلب مدرسا، ولم يلق يوماً عليا درسا، ولكنه من أهالي من تركوا في نفسي عندهم الآثار وأبقاها

كان مرافقا للطلاب، بصفتهم، بدخلهم، ويخرجهم. ثم جعلوه مدرس بصة، فأتى فيها اسسا، وخرج الله به أبطالا، ولهذا حدث آخر، والكلام عند اليوم في أمر يتصل بي، ويتصل بالثورة التي كان الكلام في الحلقتين السابقتين عنها.

\* \* \*

أمضيت ست سنين في (مكتب عنبر) منفرداً، لا أخالط الطلاب ولا أشاركهم في جد ولا لعب، فما الذي جعل الأستاذ الرفاعي يدعوني يوماً، وكانت الثورة في عنفوانها، وفي يده مجلة مصرية فيها (قصيدة شوقي)، فيسألني: هل أنا مستعد لإلقائها على الطلاب؟.

من قال له إنني أحسن إلقاء الشعر؟ من عرفه به وأنا ما كنت أعرف ذلك من نفسي معرفة يقين؟.

وقلت: نعم. قال: حذوها فاحفظوها وعداً تلقيتها

وكان الغد فجمع الطلاب وجاء بعض الأساندة، ووقفت أتلوها:

سلام من صبا بردي أرق ودمع لا يكفكف يا دمشق

ومضيت فيها، وأخذتني الحماسة فسيت أن المدرسة حكومية، وأن فيها مدرسين فرنسيين، وأن الثورة قائمة، وأنا سمع أصوات الرصاص والرشاشات ونحن في الفصول. وجهرت بها. وأطلقت صرختي كله، وكنت (وأظن أنني لا أزال) أسمع الجامع الأموي كله يلا مكبر.

وحضر المدير وهو أستاذنا جودة بك الهاشمي، وكانت له في نفوسنا هبة تبلغ حد الرهبة، فأحسن كآني ترددت لما أبصرته فأشار إليّ أن أكمل، فأكملت القصيدة.

وكان الطلاب، بل كان المدرسون أيضاً، يصفقون عند كل بيت ويستعيدونه، ويهتفون، صفقوا حتى احمرت الأكف، وهتفوا حتى بُحت الحناجر. لا إعجاباً باللقائي بل بشعر شوقي، بل إعجاباً بالموضوع العظيم الذي نظم فيه شوقي قصيدته، وهو (الثورة السورية).

ثم وصلت بعد أسبوع قصيدة خير الدين الزركلي، فأمرني بإلقائها وتكرر الاجتماع والحماسة مني، والتصفيق والهتاف منهم.

وأنا لا أزال إلى اليوم، بعد خمس وخمسين سنة، أحفظ أكثر أبيات القصيدتين. لقد كان شوقي (لسان العرب) الذي يعرب عن آلامها وآمالها،

ويصور أفراحها وأتراحها فما مرّ بالعرب، بل بالمسلمين حدث إلا كانت  
لشوقي قصيدة فيه، لذلك كان شعره ديوان العرب في هذا العصر.

\*\*\*

هذه القصيدة ليست من أجود ما نظم شوقي، وقافيتها من أصعب  
القوافي، وأنا أعرف ظروف نظمها، فقد نظمها على عجل، ولكن شاعريته  
محت آثار عجلته، فجاءت فيها أبيات سارت في الناس مسير الأمثال، وخلدت  
خلود أبيات المتنبي، وصارت مدداً لكل خطيب بخطب، أو زعيم يقود. حوت  
معاني تبقى جديدة ولو مرت عليها السنون:

فتوق الملك تحدث ثم تمضي ولا يمضي لمختلفين فتوق  
فإن كنا متفقين رتقنا كل فتوق، وسددنا كل ثغر، أما إذا اختلفنا وتنازعنا  
فإنها تذهب رجماً ويكبر فشلنا.

ولا تقولوا ما له ينصحنا وما هو من أهل دارنا، فإن هموم الشرق  
تجمعنا:

نصحت ويحس مختلفون داراً ولكن كلنا في الهم شرق  
ويجمعنا إذا اختلفت بلاد بيان غير مختلف ونطق  
على أن البيان لا يجمع ما ! يكن معه الإيمان، فقد كان العرب قبل  
الإسلام أهل فصاحة وبيان، وكان يجمعهم النسب واللسان، وما جعلهم أمة  
واحدة، حتى نزل القرآن. ومن أبياتها السائرة:

وقفتم بين موت أو حياة	فإن رمت نعيم الدهر فاشقوا
ولالأوطان في دم كل حر	يد سلفت وذئب مستحق
ومن يسقى ويشرب بالمتايا	إذا الأحرار لم يسقوا ويسقوا؟
ولا يبني المسالك كالضحايا	ولا يُبدى الحقوق ولا يحق
ففي القتل لأجيال حياة	وفي الأسرى فدى لهمو وعق

ثم جاء البيت الذي صار (على ضعف تأليفه) بيت القصيد، في هذه  
الأبيات التي تصلح أن تكون نشيد النضال:

وللحربة الحمراء باب لكل يد مضرجة يداق

\* \* \*

وقديماً قالوا إن (براعة الاستهلال) من محسنات المقال

وقد حيا شوقي في مطلع القصيدة دمشق، ووصف رقعة نسيمها  
وصباها، ودمعه على ما حلَّ بحماها

ولكن له مطالع أحسن. كمطلع قصيدته في (الأزهر) الذي أطلق فيه  
أكبر ناطق وهو الدنيا، وأسمع أعظم سمع وهو الزمان:

قم في قم الدنيا وحي الأزهر      وانتِ على سمع الرماد الحوهر  
ومطلع الشامية الأخرى:

قم ناج جُلِّقْ وانتِ رسم من بابوا      منبت عن الرسم أحداث ورماد  
ولقد أحسن بهذا فقال:

ومعذرة البراعة والقوافي      جلال البر- عن وحي يدق  
وما قصر مع ذلك في الوصف فلقد وصف نكبة دمشق التي لم يصدق  
خبرها لهول ما سمع عنها:

رباع الخلد ويحك ما دهاها      أحقُّ أنها درس حق؟  
وأين دمي المقاصر من حجال      مهتكة وأسار نشق

ثم يصف الحور التي كانت مقصورات في الحجال، حين هدمت عليهن  
الدار، وهتك الأستار، فخرجن ومن حولهن النار، التي أضرمتها حضارة  
المتحضرين الذين انتدبوهن ليدلّوا على طريق المدينة... وأولادهن تحوطهم  
الأخطار، ولا يدرين أي طريق يسلكن للفرار.

يرزن وفي نواحي الأيك نار      وخلف الأيك أفراخ تزق  
إذا رُمن السلامة من طريق      أنت من دونه للموت طرق  
يليل للقذائف والمنايا      وراء سمائه خطف وصعق

إذا عصفت الحديد أحمَرُ أفق  
على جنباته واسود أفق  
سلي من راع غيدك بعد وَهْنٍ<sup>(١)</sup>  
أبين فؤاده والصخر فرق

ثم جاء بيت فيه حقيقة نساها دائماً، وكان علينا أن نتذكرها دائماً:  
وللمستعمرين وإن ألانوا  
قلوب كالحجارة لا ترق

رحمك الله يا شوقي، لهم والله قلوب كالحجارة، ولكنهم يلبسون الحجارة  
ثوباً من ناعم الحرير فتخدعنا نعومة ظاهرها عن قسوة ما فيها.

\* \* \*

أما صديقنا بل أستاذنا خير الدين الزركلي، فليس من رجال شوقي ولا  
من طبقته، ولا أسلوبه من أسلوبه، فشوقي، وإن آذاني بهذه القافية التي كلما  
نلوت القصيدة أحس كأنها مطارق تنزل على رأسي: دَقُوا، دَقُوا، دَقُوا.

رحمه الله ما الذي جعله يختار حرف القاف من بين سائر الحروف؟

على أنه (أحمد) شوقي شاعر العرب الذي لم يأت بعد (أحمد) المتنبّي  
شاعر أشعر منه، ولا (أحمد) شيخ المعرفة صاحب اللزوميات.

ولكنني أفضل هنا قصيدة الزركلي على قصيدته، لا أفضل الزركلي ولا  
غيره عليه هو الزركلي ابن النمام، وسهما كان البعيد فإنه لا يشعر بمأساة البلد  
شعور ابن البلد، وأسلوب الزركلي هنا أسلس وألين، وإن كان أسلوب شوقي  
أقوى وأمتن، وقافية شوقي كأنها الطريق الوعر، فيه الحجارة والصخر. وقافية  
الزركلي كالسلسال الجاري، والجدادة المعبدة السهلة، والزركلي كان حيناً أشعر  
شعراء دمشق الأربعة، وإن كان قد انقطع عن الشعر من نصف قرن،  
وانصرف إلى التأليف، فترك كتاباً من أعظم ما ألف في هذا العصر وهو  
(الأعلام).

مطلع قصيدة الزركلي:  
الأهل أهلي والديار دبّاري  
وسعار وادي النيربين شعاري<sup>(٢)</sup>

(١) أي بعد منتصف الليل  
(٢) النيرب كانت فيل (البرية) في موضع (الدواسة)، وقد أكلت الشوارع الحديثة والساحات هذا  
كله

ما كان من ألم بجلق نازل      وأرى الزناد فزنده بي واري  
 إن الدم المهرق في جنباتها      لدمي وإن سفارها لشقاري  
 دمعي لما منيت به جار هنا      ودمي هناك على ثراها جاري

كان الشاعر في مصر، فرّ إليها وأقام بها، لما حكم عليه الفرنسيون بعد  
 ميسلون، كما فرّ إليها الدكتور شهيندر، والأستاذ محب الدين الخطيب، وفرّ إلى  
 فلسطين الشيخ كامل القصاب.

والمدرسون يعلمون الطلاب أن الأسلوب العلمي يعتمد على الأفكار،  
 والأسلوب الأدبي على الصور. وأن الفكرة توصف بأنها صحيحة أو غير  
 صحيحة، أما الصورة فتوصف بأنها جميلة أو غير جميلة، وقصيدة الزركلي  
 مملوءة بالصور ولكنها ليست كالصورة في القصيدة العاطفية المدار فيها على  
 الجمال وحده، بل على الجمال والحقيقة، لأن هذه القصيدة وأمثالها تاريخ فني،  
 أو فن تاريخي، أريد أن أقول إنها لا تكمل إلّا إن جمعت بين الصدق وبين  
 الجمال.

الصدق لأنها تاريخ ليست خيالاً، والجمال لأنها أدب ليست مجرد  
 وثيقة. وقد جمع الزركلي فيها الحسنين: خبر موثوق، في أسلوب جميل:

با وامض البرق<sup>(١)</sup> اطمئن وناجني      إن كنت مطلعاً على الأسرار  
 ماذا هناك؟ فإن صوتاً راعني      والصوت فيه جفوة الأذعار

وجاءه الجواب يبين ماذا هناك:

النار محدقة بجلق بعدما      تركت (حماة) على شفير هاري  
 الطفل في يد أمه غرض الأذى      يرمى وليس بخاتن لخمّار  
 والشيخ متكئاً على عكازه      يرمى وما للشيخ من أوزار  
 لهفي على المتخلفين برحبها      كيف القرار ولات حين فرار

كيف يقرّون وهم يرون الظالمين يرصدونهم، يعدّون لهم كأس الموت  
 وعدّة الهلاك أنهم:

(١) البرق هنا أي الأخبار البرقية، ولم تكن إذاعات.

يتربقون الموت في غدواتهم وإذا نجوا فالموت في الأسفار  
والظلم منطلق اليدين محكم يا ليت كل الخطب خطب النار  
ثم انطلق يرثي دمشق وحماه، وكل ما دمر الأثمن، وما قتلوا وما  
شردوا، يسائل الديار عن أهلها، والقصور عن سكانها، والرياض عن  
قطاتها:

أم القصور نواعماً رباتها ما للقصور دوائر الآثار؟  
أم الجنان الكاسيات رياضها حلل السنا ما للرياض عواري؟  
أم الحياة وللحياة نعيمها هل في ديارك بعد من ديار؟  
زهو الحضارة أنت مطلع شمسه أفتفتدين وأنت دار بوار؟

أكل هذا يرتك باسم الحضارة؟  
ويح الحضارة تمت يمتن اسمها متكالبون على الضعاف ضواري  
ولكن الصيم لا يدوم، وربما ثار المظلوم، والإخراج بسبب الإخراج،  
واللوم يومئذ على الظالمين.

هم أخرجوك فأخرجوك مهيجة فصرخت فيهم صرخة الجبار  
وإذا الطلام عند تلج فحره ظلم الحوادث مطلع الأنوار

ولا تيأسي إن دمرت، فإن ما هدم يبني، وما ذهب يعوض:  
ما دمروك هم ولكن دمروا ما كان فيك لهم من استعمار

\* \* \*

لقد رأيت في هذا القرن الذي نشت ثلاثة أرباعه، مواقف كانت  
سواقاً للشعر، وميادين سباق للبلغاء. لا يبقى شاعر لا ينظم فيها قصيدة  
فتكون معارص للبيان، يوم مات سعد متلاً، ويوم بويج شوقي بإمارة الشعر،  
ويوم مات شاعرا العربية، شوقي وحافظ.

ومن هذه المواسم الأدبية الثورة السورية.

لقد عرضت هذه المختارات من قصيدي شوقي والزركلي لأنني ألقينهما  
وحفظتهما، وعندي (في ذهني، وتحت يدي) قصائد آخر مما قيل في الثورة،



أكثرها ضاع ولم يبق ممن يحفظه إلا القليل، فهل ترون أن أجعل حلقة أخرى من هذه الذكريات للإشارة إليها، وإيراد مختارات منها؟.

إنها ليست من صلب موضوع الذكريات، ولكنها تأتي على هامشه، ولعل فيها متعة لكم ومنفعة، أكثر مما في هذه الذكريات، فهل تحبون أن أتكلّم عنها؟.

إن قلتم نعم فموعدنا. الحلقة القادمة إن شاء الله وإن قلتم: لا فالأمر لكم

## من شعر الثورة

الجهاد جهاد بالنفس، وجهاد بالمال، وجهاد باللسان، ولئن خاض  
ميدان القتال (أيام الثورة السورية) رجال أبطال بسلاحهم وبأيديهم، فلقد  
خاضه الشعراء بأسلحتهم وبقصائدهم، والله يجزي الناس بنياتهم، وبإخلاص  
عملهم لربهم. ولكن البشر يزنون الناس بأعمالهم، وقد ذهب ما صنع  
المقاتلون في المعارك، وسيناه وأحصاه الله وبقي ما قال الشعراء.

أفأريتم نقاء الأدب في الدنيا، ومصارعته النسيان؟.

الذي لدي من ذلك (أحفظه في ذاكرتي أو أجده مدوناً عندي على  
خلاف عادي، كثير، فيه تاريخ الثورة، فإن لم تهتموا بهذا التاريخ، فإنكم  
واحدون فيه صوراً من حياة الناس في تلك الأيام، وأغماطاً من أساليب  
الشعراء المتعده في الموضوع الواحد هدا، يوم كان الشعر شعراً، وكان الأدب  
أدباً، يوم لم يكن قد ظهر هؤلاء الذين عحروا عن الشعر، لم يستطيعوا أن  
يصعدوا إليه، فحاولوا إزاله إلبهم ولم يقدروا أن يحملوا أنفسهم على ما  
يسلزمه من بلاغة لمنطق وموسيقية التعبير واتساق أبيات القصيدة في وزنها وفي  
قافيتها. فحملوا النعر ركاكتهم وعاميتهم، ونشاز موسيقاهم، فكانوا كمن  
يشارك في جوفة نغمي من مقام، انسجم معه السامعون، وألفته آذانهم، فغنى  
من مقام آخر. فشك الأذان وأذهب الطرب.

ولكن المصيبة أن الكلام لا ينفع معهم، لأنهم مثل الصم، وأنت تقوم

بينهم تعرفهم مزايا الأنعام، والفوارق بين المقامات، فهل يدركه القسم (أن الطرشان) دقائق النغمات؟



وكان من كبار شعراء الشام شفيق جبري وإذا مدحته اليوم فإطالما اضطرتني ظروف الحياة إلى الهجوم عليه ونقله، كان رئيس دبران المعارف، وذلك كوكيل الوزارة اليوم والذي يولى سبلاً إدارياً له حمله فدية بالناس، يكثر خصومه، وكنت شاباً مندفعاً منهاجته مرات، ولما فتحت مدرسة الأدب العليا وكان مديرها سنة ١٩٣٠ أو ١٩٣١ يسباني حديثها وعريف الأدب بأنه ألبية شريفة رددت عليه برسالة مطبوعة عداها (الأدب القومي)، ولكن لما نجي عن منصبه وجاؤوا بدكتور اسمه كامل أشرافية هاجمت الدكتور ومدحت جبري، ووضعت في رأس المقالة كلمة ابن هيرة ما رأيت كالمزدد في محابي أميراً، ومدحني معرولاً.

وأشهد الآن وقد مضى للقاء ربه أنه كان شاعراً، ونعله أشعر أهل الشام، حاشا السنوات التي سبقت دخول الفرنسيين والتي حارب بعدها، وانقذت فيها شاعرية خير الدين الزركلي وجاء بتلك الروائع

نشرت قصيدة جبري أيام الثورة - ولم يصرح فيها اسمه - أسليه فيها وفي غيرها الأسلوب الأنيق، النظيف، وإن لم يكن بالأسلوب المتدفق الذي نحس بأنه ينطلق مندفعاً من طبع شعري غزير السبع. في شعره روح من نفس البحري، وإن كان البحري أجمل أسلوباً، وأكثر طبعاً. مطلع القصيدة:

مجد العروبة أقفرت عرصاته	والضيم حلّ، فأين أين أباته
جرح بسيف البغي ألم وقعه	كبد الحياة فأين عنه أساته
وإذا الهوان دهى الحياة فموت من	أنف المقام على الهوان حياته

ثم يشكو علة كانت فينا، ولا تزال فينا، هي أن منا من يعين عدونا علينا، ويكون معه من دوننا:

هل يبلغ الوطن المفدى حقه      وإلى بنيه من البنين شكاته  
أيساد معهد عزه وزمامه      بيد العدو وهادموه بناته

ثم يذكر الجيوش التي حشدوها العدو فوقفت لها وظفرت بها جماعات

الثوار:

وفياتي حشد العدو خميسها      في مأزق غصت به لهواته  
طلعت عليه كتيبة عربية      فجرت على أسيافها مهجاته

فإذا رأيت الأسد سجيناً في قفص، فلا تظن أنك تمكنت منه، فإنه إذا  
كان الصدام رجع أسداً كما كان:

لا تزدد للث الحبيس فرجا      عادت (وقد شهد الوغى) وثباته  
وأعاد لصيرة أبي ذكرها شوقي      حين ذكر الأيك والنار التي شبت من  
ورائه فقار

ليست يعرف فيه لم تحيه      في موقف عجت به فتياته  
برزت معي بدموح لم تر مغرعا      تحنو على أطفالها أثلاته  
أتيت نهب العاديات حديدها      ويضمها الوادي ومنعطفاته  
لا أعد الصحر أدمه وقد وعى      تنحباها ألا تلين صفاته

والدموح والابك السانين التي التجأت إليها اللواتي هدمت دورهن،  
يشردن هن وندهن

وثالث شعراء دمشق الأربعة الكبار يرمز له هو خليل مردم بك له قصيدة  
يقول في مطلعها: دمع غاشق - عمر يساعده على ذرف العبرات

أمدد الدمع حتى غاض حائده      عمر سادمع عينيه يرافده  
وهو معنى قديم مطروق عبثته من كثرة ما مضت فيه أقدام الشعراء:  
نصح المكاء دموع عينيك فاستعر      عيناً لغيرك دمعها مدرار  
من ذا بعيرك عينه تبكي بها      أرايت عيناً للدموع نعار

ثم يصف ضرب دمشق بالدفاع، وإشعال النار في بيوتها الكبار.

أمسي الذي كان في جناحتها فرحاً      تبارج من سمير النار واقده  
النار من فوقه والنار دائرة      به فإن خمر أردته رواصده  
في كل زاوية رام ومن نفروا      شيئاً وحوراً وأطفالاً طرائده  
ورب مكتونة كالدّر صن به      على العيون فصانته نواصده

وانظر هذه الصورة التي لم تكن بنت الخيال بل كانت ست الواقع، صورة  
الأم التي قتلوا بعلها، وهربت فحمل طفلها، فأصابته سطة سبت منه،  
فضمت إلى صدرها جسداً جريحاً يترق دماً.

تخطت النار ليلاً وهي حاملة      طفلاً قضى برصاص القدم والده  
فما تناءت به حتى أتيج له      شظية بان منها عنه ساعده  
ضمت إلى صدرها شلواً يسيل دماً      كالطير هاض جناحاً منه صانده

لقد تمنى لهول ما رأى أن يكون أعمى حتى لا يرى.

يا هول ذلك من مرأى شهدت وقد      وددت لو كنت أعمى لا أشاهده

\*\*\*

أما محمد البزم رابع الشعراء، فهو جزل الألفاظ، صريح التراكيب،  
وإن كنت كتبت عنه وأنا طالب، لما هجا أستاذنا الجندي في محلة الميران. عند  
أحمد شاعر الكرمي فقلت: إن شعره جدار من الحجارة لكنها مركومة كماً ما بينها  
ملاط. وكان ذلك في أواسط العشرينيات.

قصيدة البزم طويلة، على عادته في أكثر قصائده، سبعة وتسعون بيتاً  
من بحر واحد وقافية واحدة، وهي قافية تصلح للحماسة، كما تصلح للغزل  
والرثاء، فهي من ألين القوافي وأطوعها، ومن أرقها إن شئت ومن أقواها.  
مطلعها:

غادر دمشق ويم دار سلطانا      على السويداء لا تحفل بمن مانا  
فتى العروبة، دفاع الكتيبة قد      ضمت أشاويس وضائين غرانا

فيها مقطوع عن حسن الخراط مطلعه :

من مبلّغ من بياني كل شاردة      فتي العلى حسناً خُمداً وشكرانا  
وفيها نداء للجزيرة وأهلها :

بني الجزيرة والأنساب جامعة      والحازم الشهم يلقي الدهر يقظانا

يقول لهم، أما سمعتم وأنتم إخوتنا في الدين، وفي العروبة، بما  
نقاسيه؟ فكيف تقعدون عن نصرتنا؟ كيف تنامون على سرر النعيم، ونحن  
نقلب على حجر الغضى؟ كيف تقرّون أسماعكم أصوات بلابل المغنين وعنادل  
المغنيات، ونحن لا نسمع إلا أصوات البارود يتفجر، والدور تهدم، والأيامي  
بصرخن ولا من يحيب، واليتامى يكون ولا من سامع؟

أبن الحمية، بل أبن العروبة، هل      غاض الوفاء وآض الود هجرانا

وينادي بني التميم  
قومي بني التمام هل نُصغ فأسمعه      قولاً يوجب في الأحشاء نيرانا

ويقول للتيسير-

أناء (علية)<sup>١١</sup> لا تآ- انتدابكم  
لا ترهقوا العرب فالعرب الكرام هم  
وبني (البيد) يصح لا مراء به  
دعوا الشام واخلوا القاضين بها

\*\*\*

وأصدقنا بل استاذنا عز الدين (عزم الدين) التنوخي قصيدة مطلعها  
قف في المارل نادياً أطلالها      ماذا يفيدك أن تطيل سؤاها  
فاه حريق عسدا دسوق فلم تعد      تصف الحميلة للورى وجاها  
لا وصلها داك اليرسال وأهنها      في الغوطتين ولا الدلال دلالها  
الار غمظرها العشية وابلاً      والعليج ويل العليج جاس خلأها

(١١) بلاد العراق وسيا

ليبت ثلاثاً<sup>(١)</sup> والمدافع قذف  
ثلثا دمشق يهدمان تمدنا  
الرعد يقصف ما حكي حلجها  
ومن الدماء ترى به أسياها  
يشكو الحضارة والوحوش رجالها  
إن الدخان إلى السما متصاعداً

والقصيدة في ثمانية وأربعين بيتاً كلها من هذا النفس: شعر مطبوع، وبحر طبع، وفافية لعلها أوسع القوافي وأسهلها، وأصلحها لكل فن من فنون الشعر، ووصف المشهد الذي تكرر في قصائد الشعراء، مشهد المخدرات قد روعن فخرج مذعورات، والرجال الذين قتلوا، والأطفال الذين شردوا، في ليت واحداً من طلاب الأدب، يأخذ هذه الصورة، وما قال فيها كل شاعر، فيدرس في ذلك مذاهب الشعراء، وأساليب القول:

يا رب آمنة هناك بسرهما  
أمت وما غير الساء لحافها  
تغدو لتصلح دارها وعباها  
ظلمًا ولا غير الطريق حيّ لها  
برزت تصبح وشعرها متفرق  
وهناك نائحة تنوح لبعليها الثاوي  
الله للأطفال كيف غدت لقي  
صرعى القنابل بعثرت أوصالها  
ووصف ما لقيت (حماة) فقال:

أعلمت أن حماة لم يدعوا بها  
عرج على الوادي فليس به سوى  
حجراً على حجر يريك طلالها  
وسوى النواعير التي ينواحها  
(العاصي) يريق من الدموع سجالاتها  
تبكي حماة نساءها ورجالها

ولمحمد الشريفي قصيدة يقول فيها:

أريت جلق والنيران تأكلها  
أمضها الرزء حتى أفقها رجم  
ومارد الغدر يغشاها فتضطرم  
وهاجها الحزن حتى دمعها ضرم

(١) هي الأيام الثلاثة التي احتل فيها الثوار دمشق من ١٨ - ٢٠ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٢٥ م ربيع الأول ١٣٤٤ هـ.

رسل التمدن والإجرام مثلبة  
الصخر أكثر عطفاً من قيادتكم  
رسل التمدن إن كانت شريعتكم  
لا تحسبوا أن هذا الشعب يرهبكم

ومن قصيدة وجدتها عندي لشاعر اسمه علي منصور، لا أعرفه، من  
الشعر السهل الطري الذي يذكر بشعر أبي العتاهية. مطلعها:

ضعي لظلمك حداً فقد تزايد جدا  
وغادري الشام تسكن وأرض حوران تها  
ولا يفرنك جند فالحق أكثر جندا

وعندي لتاعربا الكبير خير الدين قصيدة قالها في رثاء فؤاد بك سليم  
من فؤاد الثورة الدرزي من هذا الطراز، وإن كانت أحسن سبكاً، وأجل  
أسلوباً، كان فيما من روح (البهاء زهير) حين يقول:

إن تس عهدي فلني والله لم أنس عهدك  
يقول فيها:

صدقت بالله عهدك لا حلف دمعي بعهدك  
أنت ميتة حر وميت تحمل بنهدك  
فضب حق العوالي وأنت تقتاد جسدك  
نمت للمحد حتى أدركت بالموت مجهدك

وللصديق الشيخ محمد سعيد العامري، قصيدة يعارض فيها قصيدة  
من هار، الآدلسي مطلعها:

القيود قويمك والسود بسوك والطاعون إلى العلى أهلوك  
يقول فيها:

الملك مالك بني أمية ناطق عن أمسك الزاهي وعن ماضيك  
والسؤدد العربي والتاريخ قد شهدا المحاسن في رب واديك  
والشرفية قد روت وتحدثت عن عزة قفساء تكمن فيك



ادمشق يا بلد الكرام ومعتقل الد  
يا موطن الأحرار والأخيار من  
إن هب في أرض الجزيرة معشر  
أو ثار من بين الأعارب ثائر

ومن قصيدة الصديق الأستاذ نيسير ظيان يحاطب القائد الفرنسي

ما جئت نلقي سلاماً في مواطننا  
لتسلب الشعب حقاً كنت نكره  
أبالفذائف والنيران نرهه  
إن السيوف التي كانت نزعكم  
فاحمل متاعك وارحل عن مازلما

ومن قصيدة للأستاذ أديب التقي :

تلك العقائل من أدمى أناملها؟  
من فض يرقعها؟ من حل مئزرها؟  
مـر رـعـمـي الخـدسـ المـداحـي؟  
مـن ساقبـا حـسـنـت بـن أفـرح؟

\*\*\*

هذه غمادج نما قيل في (الثورة السورية) سنة ١٩٢٥ . فيها موصيغ  
دراسة للأديب، وذكرى للمذكر، وعبرة لعافل يريد أن يعنه

## النجاح في البكالوريا والسفر إلى مصر

مرت بمكتب عنبر قبلنا أفواج وأفواج، لكر لم يلق واحد منها ما لقيناه  
من عقبات عند دحولنا إليه، وخروجنا منه.

كان من قبلنا بدحلول إلى من الباب المفتوح، فما هي إلا أن يبرزوا  
الشهادة حتى يدعوا إلى الدحول، فوضعوا أمامنا نحن سداً لم نستطع أن نتخطاه  
بشهادتنا وحدها بل بمسابقة أجروها بيننا، فلم يدخله إلا السابقون منا.

وكان من قبلنا عنحن في المدرسة، بما تعلم فيها، فيمنح إجازتها، ويخرج  
منها، فلما عدت إلى مدرسة بعد امتعادي عنها، واشتغالي بالمحاسبة وبالتجارة،  
كان ذلك في سنة ١٩٢٧. وثابت عودتي إلى شعبة الأدب، ووفق الله وكنت  
الأول بير رفاقي.

في آخر تلك السنة حين لم يبقَ منها إلا شهران، فوجئنا بإحداث نظام  
البكالوريا، وبقرار الفرنسيين أن تطرح علينا المناهج التي تطبق على طلاب  
فرنسا، وأن يقرر لنا الكتب التي كانت متوفرة لهم.

وامتعد لما من كان أمامنا الاستعداد الذي قدروا عليه، في المدة القصيرة  
التي كانت قد نصبت بينهم وبينها، وكانت سبب النجاح صعبة، بل كانت مرعبة  
إذ كان الناحيون (فيها أذكر) لا يزيدون على ثلث الطلاب.

وكان منهم (أو كان فيمن يخطر على بالي الآن منهم) جميل سلطان، وزكي  
الحاسني، و(أبو سلمى) عبد الكريم الكرعي، وبشير العظيمة، ومنير شوري،  
وعبد الباسط العلمي، ومن حلب أسعد الكوراني.

وكنّا نحن بعدهم، فنهيناه من أول السنة لامتحان البكالوريا، ومن  
العجائب أنّ تركت شعبة الأدب ودخلت السكالوريا في شعبة العلوم  
ومرت السنة وساقونا إلى الامتحان، في البناء الذي كنت حدثتكم فيه،  
لما انتقلت إليه مدرستنا (السلطانية الثانية) سنة ١٩١٩.

هذا البناء القائم بين التكية الكبرى (تكية السلطان سليمان القانوني).  
والتكية الصغرى (تكية السلطان سليم) على نهر ريدي، معاً التي تسمى قصر  
صغيراً من قصور أوروبا في القرون الوسطى.

جمعوا فيه لهذا الامتحان الرقيب ثلاث الثانوية الرسميه (مكتب عرس)  
والمدارس الأهلية الإسلامية، والمدارس الحسنية، العارارية، والاعلامية، والإلياذ  
وغيرها، وطالبت هذه المدارس كلها.

وجاء اليوم الذي لا أنساه، يوم وقفنا بساحة (عليه) سوربة المستشار  
المسيو (راحيه) يقرأ أسماء الناجحين وكان قلبي كما قال الشاعر

كأن قطاة ركبت جناحها على كبدتي من شدة حنّان

ويظهر أن الشاعر من كثرة اضطرابه خلط بين الكبد وبين القلب<sup>(١)</sup>  
وكانت كل خلية في جسدي أذنأ مرهفة تستمع أنصير الرسوب فانظر أين  
أهرب حتى لا يراي الناس، وإلى أين أهرب حتى لا يعيروني مرسوب، ترعلي  
الحواطر كأنها شريط سينما، قد أفلت فهو يكر بسرعة حتى ما يستطيع الناظر  
إليه أن يتبين مشاهدته، لا أنظر إلى أحد ولا ينظر إليّ أحد، قد شغل كل  
بنفسه. وفجأة سمعت المستشار ينادي: بوش - غا - كود - سي آلي - تان - ناوي  
(أي بشرى قدسي علي طنطاوي).

لما سمعت اسمي لم أعد أبالي بشيء، وصار همي أن أجد طريقاً لأهل  
فرحتي، وأخرج بها لثلاث تسقط مني وسط الزحام. لقد كانت إحدى الفرحات

---

(١) والعرب تسمى القلب كبدًا.

القليلة، التي أحسست بها في حياتي. فهل يكتب لي أن أسمع اسمي مع الناجحين مرة ثانية، في الامتحان الأخير الذي لبس له دورة ثانية، ولا لمن خسر فيه سبيل إلى إعادته؟ والله مالي عمل أقدمه لأستحق به النجاح في ذلك اليوم ما أتكلم إلا على كرمك. يا كريم، يا أكرم من كل كريم، يا رب.

ثم كانت مفاجأة أخرى  
جاء كتاب من خالي محب الدين يُخطب أختي لشريكه عبد الفتاح قتلان  
ووافقت هي ووافقنا، ودعاني أن أذهب بها إلى مصر.

إنكم لا تدرون ماذا أثارت هذه الدعوة في نفسي من مشاعر، وفي ذهني من خواطر.

كانت مصر في حيال يومئذ دنيا مسحورة، فيها العجائب، وكل مرغوب فيه يأتينا منها. المحلات والتسحيف، الحركات الفكرية والوطنية تنبثق منها، الرجال الذين غرّهم، والشعراء الذين سحفت شعرهم منها، وكان تخيل ذهابي إليها، كمر من آية يمر وصفه من شق القلم، والتعبير عنه مهما كان بليغاً، لا يبلغ حقيقته.

وكنْتُ أسمع أن الأحرار من أرباب الأقلام، ومن عشاق الحرية يؤمنون بمصر: أستاذنا محمد كرد علي، ومن قبله شيخ مشايخنا السيد رشيد رضا، ومن بعده حاملي وأستاذي محب الدين، يأتون من كل مكان من المغرب من الجزائر من تونس من ليبيا.

فلما طلب إلي أن أسافر إلى مصر، تراءى لي هذا الحلم دانياً كأنني أُلهمه ولكن كيف أتكلم أمي وما عشت يوماً بعداً عنها، وقد صرت أنا رجل البيت (كما يقولون) بعد موت أبي؟ وكيف أفارق دمشق، وأنا لا أخرج منها إلا إلى ضواحيها وقراها، حتى بيروت أقرب المدن إليها، وأمسها صلة بنا ما زرتها ولا عرفتُها؟.

وإذا كنت أعجز عن السفر، وحدي، فكيف أتولى أمر أختي وحمايتها وحمل أمانة صيانتها وإيصالها؟.

وأعدّ جواز السفر، ولا يزال عندي (في دمشق) بأختمه، وسمائه وتأثيراته، كنت على عتبة العشرين، وكانت أختي أصغر مني بما لا يزيد إلا قليلاً عن أربع سنين، ولكني مع ذلك أذكر يوم ولادتها، أراه واصحاً من وراء سبعين سنة، فكيف أذكره وقد كنت ابن أربع سنين؟

كنت مع عمي في دار الشيخ عبد الوهاب، وهو خال أبي ولكني ادعى عمي، وكانت لنا جارة من فسطح حبيبا لنا وصلتها بنا، «أنا، أختي وأولتي من حبيبا» لا أقول مثل الذي أولتي أمي - ولكن قريباً منه. لقد كنت ولا أفتيها إلا قرية لي، جاءت تخبرنا أن أمي في المحاضر، وهي تريد أن تأخذنا إليها، وتأخذ القابلة في طريقها.

وكانت بين الأحياء بوابات تعلق بعد العشاء، ويقوم الحارس من ورائها فلا يفتح إلا لمن عرفه، واطمان إليه، فنادينا من وراء البوابة قصبة ولادة، نريد أن نأتي بالقابلة ففتح لنا.



وكنْتُ أسمع من صغري أن لي عمًا في اسطنبول يلاحق دعوى قضائية على وقف بيننا وبين آل الصلاحي، بقيت في المحاكم ما بين دمشق واسطنبول... تدرّون كم؟ قد لا تصدقون إن قلت لكم (وما أقوله الحق) ثلاثاً وثمانين سنة!! مات من أقام الدعوى، ومات من أقيمت عليه، ومات أولادهم، وجثنا نحن فما أدري والله هل كان الحق مع أمي أم علينا، ولكن أهل (باب المصلّى) في دمشق يسمون البستان المتنازع عليه (حديقة الطنطاوي)، والله أعلم. فما قيمة حق يصل إليه صاحبه بعدما يموت هو، ويموت ولده؟ أدعو ضيفاً إلى عشاء، فتؤخره حتى يموت من الجوع، ثم تنصديق به على قبره؟ وكنْتُ أسمع أن لي خالاً في مصر، يكتب في الصحف في المؤيد والأهرام، وله مطبعة وله مجلة، ثم قدم أيام الاستقلال ثم حكم عليه بعد ميسلون، ففر إلى مصر.

السفر من محطة الحجاز

وجاء يوم السفر، وكان اليوم الثامن والعشرين من أيلول (سبتمبر)

١٩٢٨ وجئت محطة الحجاز، هذه العمارة التي كانت (وأظنها لا تزال) تحفة في فن البناء، ومثلها وإن كانت دونها في جمالها، محطة العنبرية في المدينة، وقد سمعت أنهم يفكرون في هدمها. فإذا قبلتم مني، فدعوها، دعوها فإنكم إن تهدموها تقتلوا رجلاً في ذهنه تاريخ، وفي جعبته تحف، ومعه قطعة من بلادكم فلا تبتروا قطعة عزيزة من جسد بلادكم.

وكانت المحطة مائجة بأهلها كما يموج البحر بمياهه، فمن مسافر عجل ومن مودع بالك، ومن بائع ينادي، ومن أت وذاهب، وطالع ونازل. وكنت منزوياً في ركن من أركان القطار المسافر إلى حيفا، وإلى جانبي أختي الصغيرة، انظر إلى بعيد، فأرى هناك، في أخريات الناس امرأة تمسك بيدها طفلين، متلفة بملاءة لا تدي منها شيئاً، ولكن وراء هذا القناع الأسود عينين تفيضان بالدمع، عالقتين تمسكاً في القطار، وخلال تلك الضلوع قلباً يخفق شوقاً، ويسيل حباً، ووراء هذه الوقفة الساكنة الهادئة نارا تضطرم في الجوف، وزلزلاً يدك بمسها دكاً. يديها صبرت على هذه كما صبرت على غيرها، فأجزل اللهم لها الأجر على هذا الصبر.

وصفرت القطار خلسة إلى مصر فازداد القلب خفقاناً واضطراباً، ثم نفت دخانه كأتم هو حي تمسكه موقف الوداع فزفر زفرة الحزن الدفين، والألم الحيسر. ثم هدر وسار وراحب السحطة يتعدعنا، وعيني عالقة بيد تلك المرأة التي تلوح لي تمديد أبيض. حتى غاب عني كل شيء:

وتلفت عيني فمسك خفيت عني السلول تلفت القلب هنالك أيتى وحيداً، ورأيت القطار يجتلي لي عن أهلي وبلدي<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

كان لقطار بسم من دمشق إلى حيفا النهار بطوله، فإذا وصل حيفا مساء، مات المسافر فيها، حتى يصبح فيركب قطار فلسطين الذي يخرج في الثامنة صباحاً، فيمشي إلى حدود القناة، وهناك ينزل منه المسافرون فيركبون

(١) مادة مطبوع من مقالة لي في (الرسالة) سنة ١٩٣٧.

(معدية) تنقلهم إلى الضفة الأخرى منها، ويجدون قطار مصر، الذي يمثل  
القاهرة الساعة العاشرة والنصف ليلاً

\*\*\*

خلفت ورائي عالمي الذي أعرفه كله، وأقبلت على عالم، كله جديد.  
وكنت موزع اللب بين حزن المراق، وحماية الأخت. والتطلع إلى ما أمان مثل  
عليه.

وأنا لا أحب السفر إلا في القطار. فإنك تستطيع أن تنعم فيه وتقع  
وإذا نسيت قدرت أن تنام، وإذا حمت وكان معك مال قصدت المطعم  
وأنظف المطاعم عادة وأغلاها، مطاعم القطارات، تأكل والديا تمر بك،  
تمشي أمامك مشي الجند أمام القائد الذي وقف يعرضها (أي يستعرضها)،  
تبدأ غداءك أو عشاءك في بلد وتنتهي منه في بلد، وإذا وقف القطار في محطة  
استطعت أن تخرج فتمشي فيها. . .

لا كراكب الطائرة الذي يسافر كأنه محبوس مصفد بالألعار. علمه الذي  
يستطيع أن يتحرك فيه ما بين مقعده، والحمام أو موضع الدخول، وإن كان  
سفره طويلاً، وكان جارك مزعجاً، أو كانت أماً معها أهلاً. لا يسكنون ولا  
يسكنون، كانت السفرة تعذيباً وعملاً شاقاً.

ولقد ضايق الأولاد المضيفة مرة، يعدون بين رجلينها. يكادون يسقطون  
طباقها وكؤوسها فقالت لهم: يا أولاد اقعدوا أو اطلعوا إلعبوا (بها)!

وكنت أنا وأختي من ركاب الدرجة الثالثة اخترناها لأن القطار لم يكن  
فيه درجة رابعة، وما أكلنا في المطعم ولا عرفنا أن في القطار مطعماً يأكل فيه  
الناس، وما أدري فلعل قطارات تلك الأيام لم تكن فيها مطاعم.

كنت مقدماً على عالم مجهول، فلا أخطو خطوة إلا بعد التفكير في  
عواقبها. ووصلنا حيفاً، ورأيت البحر أول مرة في عمري، ما رأيته قبلها،  
وكنت خائفاً ولكنني أتجلد وأنظاها بالجرأة والمعرفة، هل أطلع أختي على تهيبي  
وخوفي؟.

ومشينا وأنا أوهمها أني أدري إلى أين أسير، وما كنت أدري شيئاً حتى رأيت لوحة فندق فدخلته، وكان أول فندق أدخله في حياتي...

قلت لكم: أني لم أخرج من دمشق من قبل إلا إلى ضواحيها وقراها، فمن أين لي معرفة الفنادق، وما الذي يدعوني إلى دخولها؟

أخذنا غرفة وضعنا فيها حقائبنا، وخرجنا فوجدت مطعمًا، أعني مكاناً يبيع الحصى والفول، وكان فارغاً فقعنا وأكلنا، وهي لا تعرف كيف تأكل والناس ينظرون إليها، أتكشف وجهها أم تأكل والخمار مسدل عليها؟ ومر الأمر بسلام، فلم يكن هناك أحد. وخرجنا نرى البلد، فمن جهلي دخلت المرفأ المظلم بدلاً من أن أقصد الشوارع المضيئة، ثم خفت أن يظن الناس بنا شرًا، إذ يرون سائرين منفردين في المرفأ الخالي فخرجنا، ولم أهتدِ إلى طريق البلد، فأطهرت في برد النوم، حتى نفخض مبكرين لنلحق القطار، مع أن محطة القطار إلى حسم. ما فارقتها ولا ابتعدنا عنها.

\*\*\*

كانت جنات أصعنا

وأصبحنا نركب قطار فلسطين، ومرّ على تلك البلاد والبساتين التي كانت حبات أحمرها، - كما الراغلين يدخلون علينا، وبعناهم أرضنا، واختلفت بتأديع حتى تحلوا حلسا، وأعانهم ناس ليسوا من دينهم، ولكن عداوتهم. وبغضهم لنا وحدهم علينا

وبنا قطعنا الترع، وصرنا في قطار مصر أميت، وسكت نفسي لقد عرفت أني مائتي من يستقبلي ويألفني، وساطرح ثقل الأمانة عن عاتقي.

وبعنا بالقد في بلدان، فصرت انطلع إليها مطمئناً، وأتأملها، وأستمع سحرة المائتة، وأهمل إلى ما كنت أعتده من المجهول، حتى إذا قيل: هذه مصر، وريت شعلة باب الحديد، رأيت شيئاً عظيماً، كان فوق ما كنت أتخيل.



## اليوم الأول في مصر

كانت سمرقي إلى مصر سنة ١٩٢٨ أكبر حادث حدث لي في شبابي، ترك أعمق الآثار في نفسي وفي فكري وفي سلوكي، ولكن الخسارة التي لا تعوض أني لم أدومها في حينها.

كنت كالذي رعموا أنه وصل إلى (الكنز المرصود) فوجد ركاباً من الذهب والخلي. وأكوساً من الجواهر والألماس، فلم يحمل ما يقدر على حمله منها، بل دفعه الطمع إلى أن يبحث عن غيرها، علّه يجد أعلى منها، فلما تركها وابتعد عنها، ضل طريق العودة إليها، فلم يبلغها ولم يرجع بشيء منها. فحدوها نسيحة مني، نسيحة من مجرب يريد أن يجنبكم عواقب السيء من تجاربه: دؤبوا كل ما يمر على أذهانكم من أفكار، وما يعتلج في نفوسكم من مشاعر. اكثروا في حينه، فإنكم إذ أجلتموه فتشتم عنه فلم تجدوه. فيا ليتني كتبت ما أحسسته وما فكرت فيه ساعة وصولي إلى مصر، تقولون اكتبه الآن.

الاد؟ هبهات! فلا أنا الآن (أنا) في ذلك اليوم، ولا مصر مصر، ولا أهلها أهلها، لا أقول إنهم كانوا أحسن، أو إنهم كانوا أسوأ، بل أقول إنهم تغيروا، ومنذا الذي يا عزَّ لا يتغير؟<sup>(١)</sup>

(١) الذي احتاره العلماء، أن نكتب (مندا) موصولة الحروف كالكلمة الواحدة. والنداء المرحم كقوله (يا عز) يجوز بفتح الزاي أو بضمها، وهذه فائدة على الهامش.

وهب أن مصر ما تبدلت، أفما تبدلت أنا؟.

نحن نرى الدنيا من خلال نفوسنا، كالذي يبصر وعلى عينيه النظارات: إن كانت النظارة دخانية رأى الدنيا معتمة، وإن كانت زهراء رآها مشرقة، وإلا فلماذا يصف الشاعر الفرح الدنيا ضاحكة، ويصفها الحزين باكية، والدنيا هي الدنيا ما ضحكت ولا بكت، ولو كانا مصورين لمأ الأول لوحته بالألوان القاتمة، وجعلها الثاني زاهية الألوان، والمشهد واحد أمامهما، ألا يمكن أن تكون فلسفة التشاؤم عند بعض الفلاسفة، آتية من صداع ملازم، أو عسر هضم، سوأ عيشه وسود الدنيا أمامه؟ فما قيمة فلسفة كان يهدمها دواء مُسكن، أو عقار<sup>(١)</sup> هاضم ثمه نصف ريال!.

لقد كانت صورة رائعة لمصر تلك التي انطبعت في نفسي ساعة وصلت إليها ولكني لم أستخرجها وأحتفظ بها، بل صورت المشهد بعدها من غير أن أدور (الفلم)، فجاءت عشرات من الصور. بعضها فوق بعض، فتداخلت خطوطها واختلطت معالمها، ولم أعد أستبين واحدة منها.

وهل يعود الشباب؟!

فهل أسجلها الآن بعدما مر عليها أربع وخمسون سنة؟ بعدما فقدتها؟ لقد سقطت مني في مسالك الحياة، وفي مسارب العمر. إن الذي يسقط منه شيء يعود أدراجه يفتش عنه في الطريق الذي جاء منه، فمن لي بأن أعود لأسلك كُرَّةً أخرى طريقي في الحياة؟.

أعود إلى الشباب؟ إلى سنة ١٩٢٨ وما بعدها؟.

لقد انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها حلم وكأنهم أحلام. في الحلم يغفل العقل، أي يغيب الرقيب، فتنتلق الأمانى المحبوسة، وتتكشف وتنجسد أمامك حتى تحس بها: تراها، تلمسها، تكلمها، تعيش فيها، كل ما كنت تتمناه تراه قد جاءك من غير أن تمد إليه يداً أو تخطو إليه بقدم. إن كنت فقيراً تمنى الغنى تدفق عليك المال، وإن كنت عاشقاً بلغت الوصال، تشعر أنك نظير

(١) واحد العقاقير عقار بالشديد.

على ظهر الرياح، بلا طيارة ولا جناح.

ثم يصحو النائم ويتصرم الحلم، فإذا العالم الذي كنت تعيش فيه، ليس إلا صورة في فلم، أو مشهداً في لوحة راء<sup>(١)</sup> انقطع عنه التيار، فإذا اللوحة بيضاء!

إن الذي فات مات، كما تقول المسرحيات، ويستحيل أن ترجع في الدنيا الأموات.



تركتكم في الحلقة الماضية في محطة باب الحديد، بلغتها بعدما ظننت أني لن أبلغها، فقد كانت تلك السفرة أمتع وأقوى ما مر بي، كنت كالغريق فلما رأيت خالي ومن جاء معه لاستقبالي أحسست كأن يداً تمتد إليّ تمسكني ثم تنقذي، وخرحت معهم. وهم يسألونني عن سفري، وأنا أجيب بنصف ذهني، ونصفه مشغول بتأمل ما أرى، كنت في مثل نشوة الحلم، فأنا معهم بجسدي، وأنا بعيد عنهم نفسي. كنت أعلم أن الحلم يمحي إن نيقظ الحلم، فما لهذا الحلم العجيب يفتي معي، أحيا فيه ولست نائماً؟.

ألا يتام أهل مصر!!

لا تعجبوا فإن السباح الذين يجوبون أقطار الأرض، والذين جزعوا مشرقها ومغربها، يجدون في مصر إذا حاووها ما يرغبهم فيها، ويشدّهم إليها، فكيف بشاب على أبواب العشرين، لم ير في عمره بلداً غير بلده دمشق، ودمشق على حالها وبهايتها لم يكن فيها يومئذ مثل ما في مصر من الميادين والشوارع والحدائق والمناحف ولا كان ذلك في شيء من مدن الشام والعراق.

وأول ما أدهسي أننا خرجنا من المحطة وقد انتصف الليل أو كاد، في

(١) كنت قد سميت الراديو من قديم الراد (اسم فاعل) لأنه يرد علينا الصوت الذي يخرج من الإذاعة. فلما جاءنا التلفزيون أيام الوحدة كلفوني وضع اسم له، فوجدت أن المعنى الحرفي للتلفزيون هو الرؤية من بعد، كما أن معنى تليفون الصوت من بعد، والتلفراف التخطيط من بعد (وكلمها من اليونانية) فسبته (الرائي). بمعنى المرئي كقوله تعالى ﴿ في عيشة راضية ﴾ أي مرسية، على طريقة المجاز العقلي

الساعة التي تغلق فيها الحوانيت في الشام، وتغلق الطرقات، وتنام المدينة. فإذا  
الشوارع هنا مزدحمة بالناس وحافلات الترام ممتلئة، والدكاكين مفتوحة، أفلا  
ينام أهل مصر لا في الليل ولا في النهار؟

ووصلنا الدار في موهن من الليل<sup>(١)</sup> فزاد دهشتي أبي وجدتهم بعدون  
العشاء، ورأيت بعد أن هذه عادتهم كل يوم: يبقى خالي في المطبعة إلى أن  
يمضي ثلث الليل والشغل دائر، والمطبعة شغالة، ثم يخرج إلى ميدان باب الخلق  
حيث عربات بيع الفواكه، التي تدفع باليد، وعلى كل عربة مصباح مر  
مصباح الغاز التي تدعى في مكة (الأتاريك)<sup>(٢)</sup>، فيشتري بعض ما يجد: بلحاً  
أو عنباً أو تلك التي كرهت ريحها من أول يوم فما أكلتها، الجوافة، ويأخذ البياض  
ورقة يلفها على هيئة القمع الكبير، يضعها فيها، ونصعد بها إلى الدار، وكانت  
الدار فوق المطبعة، فنجد العشاء.

وأورنا إلى مضاجعنا عشية وصولي مصر وقد شاح الليل، ودنت ساعة  
السحر، ولكني لم أنم. إن الذي تبدل وسادته أو تعمر عرفته لا نأمن، فكيف بمن  
ودع حياة ألفها وعرفها في بلده، وجاء يبدأ حياة في بلد آخر لم يألفها ولم يعرف  
عنها إلا أقل من القليل؟

وجعلت أقلب على الفراش، حتى سمعت أو خيل إلي أبي سمعت أذان  
الفجر، فقممت لأتوضأ وتحقق من دخول الوقت، فصليت وعدت أحاول  
النوم، وما قام للصلاة أحد من كان في الدار، وكان ذلك ثاني ما أدهشتني.

وبلغ مني النعاس.. بعد مشقة السفر، وطول السهر، ولكني لم أنم إلا  
لماً. إن من يصل ليلاً إلى البلد الجديد، بيت متطلعاً يرقب ضياء النهار ليرى  
ما الذي كانت تحفيه ظلمة الليل، وإن كان ليل القاهرة ما فيه ظلام..

إن شعوره كسعود من تأتبه الهدية يعرف نفاستها ولكن يجهل نوعها فهو  
يفك شريطها، أو يفتح صندوقها، تتجاذبه فرحتان: انتظار الشيء النفيس،

(١) أي في نصف الليل.  
(٢) ولعلها محرفة عن (الكربك).

وكشف المجهول الجميل، أو كمن يشتري القصة البارة، حين يفتح أول صفحة منها.

\* \* \*

ونضت (كما نهضوا) ضحى، فأكلنا الفول، وفول مصر صغير لذيد، وفول الشام كبير، ولهم في إعداده طريقة غير طريقة أهل الشام، أما ثمنه فيكفي أن أقول لكم: إن خالي كان يسلم زوجته كل صباح ريالاً، تشتري منه الغداء والعشاء ولا بدّ فيهما، من - طبخ ورز ولحم - والفاكهة والأنقال، لثمانية أشخاص وقد تبقى من الريال بقية...

ونزلت إلى المطبعة في شارع الاستئناف، فخرجت منه إلى ميدان باب الخلق، وكان أكبر من (المرجة) الميدان الوحيد في دمشق، أبصرت فيه النياحة والمحافظة من هنا، ودار الكتب، والمتحف الإسلامي من هناك.

وكانت مصر (أعني القاهرة) كبيرة في تلك الأيام، وليست مدينة ولكنها في حقيقتها مدد في مدينة

مدد مثلت من حيث مشى التاريخ، أولها أول التاريخ الإسلامي في مصر (الفسطاط) التي بناها الصحابي فاتح عمرو بن العاص وهي مصر القديمة، ثم امتد التاريخ وامتدت القاهرة فحاء أحمد بن طولون فبنى مدينة القطائع، وهي حي السيدة، ثم حاء جوهر فائد المعز العبيدي فبنى القاهرة، ثم كانت أيام حملة الفرنسيه فسكوا عند العتبة والأزيكة.

ثم تواصلت هذه المدن، وتداخلت وكانت مصر الجديد في سنة ١٩٢٨ منصلة من انناهيه، وشبرا كانت مثلها.

ولو ترك الأمر إلى خالي لما رأيت من مصر شيئاً، لأنه ما كان يخرج من طمعت إلا إلى جمعة الشبان المسلمين التي سبأني قريباً حديثها، ولكن شريكه صهري الحديد، وزوج أختي هو الذي أراني ملامح القاهرة.

أخذني إلى النيل، ففهمتم لماذا يدعوه المصريون بحر النيل، ما رأيت قبله

مثله، وهل رأيت قبله إلا بردى؟ وكان بردى وأولاده جميعاً (يريدون) والقنوت وباناس والقناة والديواني)، كانت كلها أصغر من ترعة واحساء من نرع النيل ولكن لا أحب أن أظلم بردى، إنه فقير ولكنه جواد كريم، إنه يخرج من أرضنا نبعا، ثم يدخل في أرضنا ليعود فيخرج زرعاً، لا نضيع فطره منه، وإن قرأتم في كتب الجغرافية أنه يصب في بحيرة (العنية) فاعلموا أنه يصل إليها في كل خمسين سنة، إنه يصب في الأرض الطيبة ليخرج الله به الثمر الطيب، على حين يحمل النيل العظيم، ماء الكثير، ليرمي في البحر.

### الأوبرا والعنة الخضراء

ذهبنا إلى العنة الخضراء: وكانت قلب البلد، وإلى حسنها مبداء الأوبرا، ورأينا (وكانت هنا الدهشة الثالثة) رأينا الأصنام والتماثيل. وسط المبادئ والساحات، ورأينا متاجر ما عرفنا في دمشق مثلها، عمارات كاملة فيها كل شيء مما يؤكل أو يلبس أو يفرش أو يكون زينة وحلية وتحفاً: أيردي باك، عمر أفندي، وصيدناوي، وشيكوريل، وما فيهم مسلم ولا عريبي ولا مصري أصيل، وما سمعت من العجب أن أوزدي باك اشترى اسم عمر أفندي، وكانت تلك أول مرة أسمع فيها أن اسماً يباع.

ثم درنا من حول (درازين) حديقة الأزيكية، حيث تباع الكتب القديمة كما تباع على نهر السين في باريس، وكانت الأزيكية نظيفة مخدمه. وسلطنا شارع فؤاد ورأينا على جانبيه كل بضاعة يحتاج إليها أو يرغب فيها، العروسة عرضاً يغري المستغني عنها بطلبها.

إلى أن وصلنا إلى الجسر (ويسمونه هناك باسم التركي: الكوبري) وهو من الحديد مسقوف بعمد الحديد، فجزناه من فوق النيل الكبير إلى الزمالك، حيث تقوم بقصورها غير بعيدة عن بولاق بأكوأخها، إلى النيل الصغير، على جسر كانوا يسمونه (كوبري بديعة) نسبة إلى رقاصة من شتورا في سهل البقاع، بين لبنان الشرقي والغربي، جاءت مصر فأعطتهم مرقصاً أقامته، كان مفسدة للشبان لما يستباح فيه من المحرمات، وكان مدرسة من مدارس إبليس لتخريب الرافصات، وأخذت منهم مالاً كثيراً، واسماً جعلوه مشهوراً.

وعدنا بمشي بنا (الترام) إلى جنب النيل الصغير، وهو عن شمالنا وما على إيماننا (كما أذكر) بناء ولا عمران، إنما هي حدائق أو بسائط من الأرض، حتى بلغنا أجل وأعجب مكان في مصر يومئذ وأحبه إلى السائحين والزائرين: حديقة الحيوان، لما كانت في عزها، وكانت رابعة حدائق الحيوان في العالم في سعتها وبهائها، وكثرة ما فيها من الحيوانات، وكان يمضي المرء يومه كله فيها فلا يحيط بها ولا يملها. ثم وصلنا الحيزة، وما بعدها شيء إلا (تراماً) بمشي في خلاء من الأرض إلى الحرم، ما دون الهرم مساكن ولا سكان، وقد سمعت أنه صار الآن شارعاً معسوراً لا عمران العلم والفضيلة والإيمان، بل الفن واللهو والخسران، والله أعلم بصحة ما سمعت.

\* \* \*

ولما كان مساء اليوم الأول من أيامي في مصر، أخذوني في جولة أخرى ثم دخلنا حديقة الأوكية إلى زاوية منها كانت مقهى ومسرحاً، فلما وصلت إليها أحسبت تكاني دخل ماحوراً، أو كأني العذراء تلج دار الفواحش، وفرت مدعوزة

قائلاً: "ماله؟ فلب؟ قهوة؟ أنا أقعد في قهوة؟"

كانت القهوة عذبة في مطلقه المصوغات، أفترقون هذا صواباً؟ لقد عرفت بعد حين أنه كان بعيد عن الصواب.

إن الصغيرة في تخطي الحدود. فإذا بدلنا مكانها، وأدخلنا المكروهات في دائرة المحرمات، سهل على مرتكب المكروه اقتراف الحرام، وطال جدالنا، وتجمع الناس من حولنا، ثم غلبت عري مري ودخلت ولم تمض إلا ربع ساعة حتى أضطقت لأبصارنا، وبدأ عرض فلم من أفلام السينما.

والعريب لم يذكر السينما مثلما أنكرت المقهى، لأنهم أرونا فلماً عن حرب (شناق قلعة)، خلال الحرب الأولى، فتعودت رؤية الأفلام، والعادة هنا نشأت من مرة واحدة!

وكانت سبباً صامتة، لم نكن قد نطقنا بعد، وأظن ظناً لا أحقق تحقيقاً،

أن السينما نطقت بعد ذلك بقليل، وأنها حين نطقت ظهر (الفلم العربي) في مصر.

\* \* \*

في تلك الأيام كانت الدعوة الإسلامية تتمخض في مصر، لتأتي بمولود جديد، وكان ظهور كتاب (الشعر الجاهلي)، ومن قبله كتاب (الإسلام وأصول الحكم)، مثل أجراس الإنذار، وصيحات التحذير، فنبهت النائمين من العلماء والمصلحين، وكان إنشاء مجلة الفتح، ثم ولد المولود الجديد: جمعية الشبان المسلمين.

وكانت بداية الدعوة الإسلامية النظامية، وفي الحلقة القادمة القليل الذي أعرفه عنها.



## ظهور الدعوة الإسلامية في مصر

لا أزال في الكلام عن سفرى الأولى إلى مصر سنة ١٩٢٨، وقد تعجبون إذ أؤرخ نارة بالتاريخ الميلادي ونارة بالهجري، إني أكتب التاريخ كما هو عالى بذاكرتي، وكان حراً كما سمعنا، وأولى بنا أن نقتصر على التاريخ الهجري، وإن اخرجنا إلى توضيح وضعنا ليلادي بين قوسين.

شهدت في تلك السيرة بداية الدعوة الإسلامية (المنظمة)، لا أقول إنها لم تكن دعوة ملما، بل كانت دعوة فكل من عرفت من مشايخي، وكثير من أساندي، كان من أمر ما يهتمون به ويقبلون عليه، دلالة الناس على الله، وإرشادهم إلى صراط مستقيم. كانت الغاية واحدة ولكن تعددت الطرق إليها، بتعدد احتياجات أصحابها وهم يفتضت الدعوة أبداً، ولكننا كنا في (عصر انتقال) كالدن مر به مسلمون في صدر الدولة العباسية، ومر به الرومان لما اختلطوا بابيونان، فقد كتب هذه الظاهرة<sup>(١)</sup> موضوع أول محاضرة ألقيتها سنة ١٣٤٥هـ وأنا يومئذ طالب، ولا نزال (الظاهرة) موجودة لذلك أعود إلى الكلام فيها، كلما عادت دواعي حدث عنها، وصيرت في تلك المحاضرة مثلاً لها، لا أزال أعود إليه لأنني لم أجد في الآن مثلاً أصداق من بردى حين يلتقي بنبع الفيحة، فيمشي مع حبه لا يخلطان، مثلاً كأسك من بردى من البين ماءً طيفاً بك فيه سبتا من العكر، وتغلوها من النسيم من الفيحة ماءً عذباً زلالاً ليس في الدنيا أعذب منه ولا أصفى ولا أبرد<sup>(٢)</sup>. ثم يمتزجان فيكون منهما نهر

(١) الظاهرة بالمعنى الاصطلاحي لا المعنوي.

(٢) يذهر الناس من بسطع ان بقي يده فيه خمس دقائق إله ماء، متلج أو تلج نموه

جديد ليس فيه صفاء الفيحة ولا في اغبرار بردى.

هذا مثال الأمم في مراحل الانتقال حين تلغى حصارثان، وتنسج شعبان، أو تجتمع عقليتان وثقافتان.

وكل شعب من الشعوب العربية جاز هذه المرحلة، بعضهم حلص منها، أو نأى عنها، وبعضهم لا يزال فيها.

كان في مصر مثلاً (أيام سفري إليها) مشايخ وأئمة، أهره وجامعة، محاكم شرعية ومحاكم مدنية، يختلفان في الزي وفي التفكير وفي تقويم (لا نقيم) (١) الحياة، يمشيان كالخطين المتوازيين، بتجاوران ولا بتلاقيان، يتكلمان بلسانين، ويفكران بعقلين، فلا يكاد الشب يفهم ما يقول الشيخ ولا يرتضي تفكيره، ولا كان الشيخ يعرف الطريق إلى إيهام الشاب وإثارة اهتمامه بما يفكر هو فيه.

وكانت هذه هي العلة الكبرى. ولقد ظهر أفراد جمعوا طي في الخيط، ولكنهم كانوا قلائل، حاولوا أن يقربوا العلوم الجديدة، أو الفكر المعاصر، من الإسلام، منهم من صنع ذلك باعتدال كالشيخ محمد عبده في مصر، وصاحبه السيد رشيد رضا، ومنهم من أوغل فيه حتى جانب الحق، وحالف أو كاد يخالف الإسلام كالسيد أحمد خان في الهند، وأفراد بلغوا الغاية في تحصيل العلوم (الجديدة) والأستاذية فيها، وكانوا على إلمام تام أو أطلاع كاف على العلوم الإسلامية، من أظهرهم محمد أحمد الغمراوي في مصر، وأحمد حمدي الخياط في دمشق، وكلاهما كان من أساتذة الجامعة.

\*\*\*

لذلك كانت الحاجة إلى أسلوب جديد في الدعوة غير أسلوب الكثير من المشايخ، على ما كان لهم من علم وفضل وتقوى، ونبه الناس إلى هذه الحاجة (الفتنة الكمالية) في تركيا، وبروز جماعة كأنهم تأثروا بها، وأرادوا (ولو لم يشعروا) التمهيد لثقلها، وظهر ذلك في كتب شبلي شميل، وسلامة موسى، وفي

(١) نقيم غلط ولو حاولوا تبريره!

كتاب (في الشعر الجاهلي)، وكتاب (الإسلام وأصول الحكم)، وكانت الصرخة قوية حتى سمعها الذين كانوا مستغرقين في النوم فهبّ ناس منهم، وأدركوا الخطر... فكتبت الردود: أستاذنا الشيخ محمد الخضر حسين ألف (نقض كتاب الشعر الجاهلي)، ولطفي جمعة، وآخرون لا أذكرهم الآن بأسمائهم، ولكن الله بذكرهم ويشكر لهم ويجزل ثوابهم، والدكتور الغمراوي بكتابه (النقد التحليلي) الذي خاطب فيه طه حسين بلسانه، ونقض عليه بنيانه بمعوله، ورجع بالحق إلى ينباع التي استقى منها بالباطل، وقدم للكتاب أمير البيان الذي كان سفيراً دائماً في أوروبا، سفيراً للعرب والمسلمين بينهم، ويدافع عنهم، ينفق من جيبه لا من خزانة دولة ولا من صندوق جمعية، يعيش عيش الكفاف، يقرأ ويكتب، والذي كتبه الأمير شكيب أرسلان بقلمه وبخطه يعدل ما كتبه عشرة من أكبر كتاب العصر، وله فوق ذلك شعر جيد.

والذي جمع هذه الأقلام، وكان لها بمثابة مركز القيادة، أو مكان الأركان «أركان الحرب» - مجلة «الفتح».

مجلة «الفتح» كان لها عمل عظيم عظيم في تنبيه المسلمين، وإيقاظهم وإرشادهم، والتشجيع هذه الصحوة الإسلامية التي نراها ونحمد الله عليها اليوم. والتي نسألها دوامها. وتصحيح مسارها، ودرء الأذى عنها، ولعل الله يلهم واحداً من طلاب الدراسات الإسلامية في جامعاتنا إعداد رسالة أو أطروحة عنها.

ولقد كانت لها «المنار»، وللسنار أثر لا ينكر في العقيدة وفي العلم وفي (نوعية) المسلمين. وفي مجموعتها لمن استطاع الحصول عليها كنز تستخرج منه عشرات من الكتب، كما فعل الصديق العامل الدائب على التأليف الدكتور صلاح الدين المحمد حين استخرج فتاوى السيد رشيد وأفردها بالطبع.

أنشأ محب الدين «الفتح» في آخر سنة ١٣٤٤ (١٩٢٦) وكان من أثر الازدواجية (بين المشايخ والأفندية) أنه جاء بشيخ أزهرى هو الشيخ عبد الباقي سرور نعيم (كما أذكر) فجعله رئيس تحريرها.

كانت «الفتح» أوعى مجلة إسلامية، توجه حتى في عناوين الأخبار العامة التي تنقلها عن وكالات الأخبار، فتحول بالعنوان مغزى الخبر عما تريده الوثائق إلى ما يوافق خطة «الفتح» ويريده الإسلام.

ومن المجلات الواعية التي عرفتھا، أقول (منها) ولا أسميھا كلها، «البصائر» مجلة جمعية علماء الجزائر التي كان يشرف عليها، ويكتب بقلمه المبلغ افتتاحياتھا الصديق الشيخ البشير الإبراهيمي. و«الصبا» للأستاذ مسعود الندوي في الهند، و«المحتج» التي تصدر اليوم في الكويت. و«الرائد» التي تصدر في الهند، فيما تصدر المؤسسة للإسلامية الحليّة: «مدوّنة العلماء».

لما وصلت مصر كان قد مر على تنهيد «الفتح» ستان، ولكنها استطاعت أن تكون بتوفيق الله مجلة العالم الإسلامي، وكان لها مراقف عشيرة في الرد على «الشعر الجاهلي» الكتاب الذي جاء بالكفر لصريح. والذي سفل مصر عن قضيتها الكبرى، ولعل هذا من جملة مقاصد من تنهيد، ومن سرفه كانه مه وهو (مارجليوث) ومن دفع إليه أولاً، ودافع عنه سيبا، وكتاب الإسلام وأصول الحكم» وهو كتاب أسوأ من الأول، لأن الأول فيه الكفر المسيح يراه المسلم فيعرفه، وهذا فيه الكفر المغطى، لا ينتبه إليه إلا السبه. سيبا مه وهو لا يشعر، وقد ثبت أن هذا أيضاً مسروق.

وكان لـ «الفتح» موقف عظيم في التنبيه إلى خطر «الفتنة البربري». والظهير باصطلاح المغاربة كالمرسوم الملكي عندنا، أصدره الفرنسيون يريدون به إماتة أحكام الإسلام، وإحياء أعراق البربر الذين أرادوا فصلهم عن المسلمين، كما أريد ذلك في الجزائر من ثلاث سنين. فأبى الله ذلك والمسلمون، لأن البربر من يوم أن شرفهم الله (كما شرفنا) بالإسلام، صاروا هم أهلهم، وهم حاتم، لا فرق بين عربي وبربري، بل لا فرق بين عربي وعجمي ولا بين أبيض وأسود هذا هو حكم الإسلام.

بداية الدعوة المنظمة

كانت بداية الدعوة (المنظمة) بإنشاء جمعية الشبان المسلمين، وكان الذي فكر بإنشائها، صاحب «الفتح» محب الدين الخطيب، وقد سمعت ذلك منه، وخلاصته:

إنه في سنة ١٣٤٦هـ (١٩٢٧م) قبل وصولي إلى مصر بسنة أو نحوها، كان أصحاب دور النشر، ومنهم صاحب المطبعة السلفية، وهو محب الدين يجمعون لتكوين رابطة بينهم، أو نقابة لهم، في دار الشبان المسيحية، وهي إحدى المؤسسات التبشيرية (أي التنصيرية التكفيرية) فلما رآها فكر أن يكون للشبان المسلمين جمعية مثلاً. فعرض الفكرة على صديقيه الأستاذين الجليلين: السيد محمد الخضر حسين، والوجيه العالم أحمد تيمور باشا، وعلى مجموعة من الشبان (الشبان يومئذ وهم جميعاً في مثل سني) منهم الأستاذة عبد السلام هارون، وعبد المنعم خلاف، ومحمود شاكر، وكل هؤلاء من أصدقائي، ولثلاثيته إليها أعداء الإسلام، وما كان أكثرهم يومئذ وأكثرهم في هذه الأيام، تواصلوا أن يكون نشر الفكرة حكمة، والدعوة إليها بلا إعلان، وكان كل من سميت من الشبان يدعو أصدقاءه فيقبلون بها ويقبلون على الانضمام إلى أهلها. وكان اجتماعهم وكان لقائهم بالشيوخ الثلاثة الخضر، وتيمور، ومحب الدين، في المطبعة السلفية في شارع الاستشاف وهو شارع صغير، يتصل بميدان باب الخلق، حتى إذا قويت الفكرة. وانتشرت وكثر أتباعها ولم بعد يخشى عليها، عقد أول اجتماع عام لإقرار قانون الجمعية وانتخاب مجلسها الإداري في دار سينما كوزمو، ودفع حرة الدار شوقي أمير الشعراء من ماله، وأعلن عن الجمعية وانتخب لرياسته عبد الحميد سعيد الذي أثناه الله بسطة في الجسم، وسعة من المال، ووجاهة في الناس. وكان عضواً دائماً في مجلس النواب، والسيد محب الدين الخطيب أمير عاسا، وأحمد تيمور باشا أميناً للصندوق واستؤجرت للجمعية دار كبيرة في شارع قصر العيني، بجانب مجلس النواب، لما وصلت مصر كانت فيها

ثم أنت السيد الخضر الحسين (جمعية الهداية الإسلامية)

\* \* \*

جمعية الشبان المسلمين لم تكن تجديداً في فهم الإسلام، ولم يكن لها عمل جدي في الدعوة إليه، ولا كانت تصحيحاً لمعتقدات العوام، ولا محاربة لبدع كانوا يتوهمون أنها من الإسلام، وإنما كانت (وأنا هنا لبيان الحق لا للسجاملات) كانت تنظيماً ظاهرياً فقط، ولعل اشتغال أعضائها بالرياضة وإقامة الحفلات لها،

أكثر من اشتغالهم بالعلم والدعوة، وجمعية الهداية كانت تنظيماً ظاهرياً لعمل  
المشايع في الدعوة إلى الله، تلقى فيها محاضرات لا تكاد نحس أن فيها شيئاً

أما الدعوة «المنظمة» الحقيقية فقد بدأت على يد شاب اسمه  
حسن البنا، كان ممن يتردد على خالي محب الدين في المطعمه  
السلفية، عرفته من يومئذ هادئ الطبع، رضي الخلق، صادق الإيمان، تلقى  
اللسان، آتاه الله قدرة عجيبة على الاقتناع، وطاقة بادرة على توضيح العماضات.  
وحل المعقدات، والتوفيق بين المختلفين. لم يكن ثرائاً بل نادى بحس الإسماء،  
كما يحسن الكلام، وضع الله له المحبة في قلوب الناس، تخرج من دار العلوم في  
السنة التي دخلت فيها الدار<sup>(١)</sup>، لم ألقه فيها إنما لقيت سيد قطب وكنت معه في  
فصل واحد على ما أذكر وكلاهما أسس في ثلاث سنوات

\* \* \*

وأنا على طريقي التي لزمتهما عمري كله، لم أدر يوماً حرياً. ولم انتسب  
إلى جماعة، ولا ربطت فكري بفكر غيري إلا أن يكون الله ألزمني باتباع رأيه  
وإطاعة أمره، من مبلغ حكم الله، أو حاكم مسلم لا يسر بما يخالف شرع الله،  
أو أب، أو أستاذ يأمر بخير يحبه الله، بل إن المسلم يسبح كلمة الحق من كل من  
ينطقه الله بها، صغيراً كان أم كبيراً. أنا أسير في الخط الذي أربت أنه الطريق  
الصحيح، فمن وجدته يمشي معي فيه أيدته وناصريته. ما راد حاد عنه ضالاً  
هديته، وإن كان متعمداً نصحته أو زجرته، لذلك أدت بقلبي ولساني  
الإخوان المسلمين في مواقف ونفدتهم في مواقف، وما رجوت شكراً على تأييد  
ولا وجدته، ولا خفت لوماً على نقد ولا باليته، وذلك كله على صغفي الذي أفر  
به ولا أنكره وعلى إثاري دائماً العزلة والانفراد.

\* \* \*

أقمت تلك المرة في مصر أقل من شهرين، ولكنني استفدت منها فوائد لا  
تنال في سنتين. . . عرفت في السلفية جلة من رجال العلم والأدب. أحمد نيمور  
باشا الذي كان في سمو خلقه وفي سهولة طبعه، وفي تواضعه على رفعة قدره،  
مثلاً للناس، يزور المطبعة كل يوم فإن كان خالي مشغولاً لم يعطله بل قرأ شيئاً  
(١) لأنه دخلها قبل صدور النظام الجديد الذي يمنع من دخولها من لم يكمل دراسته الثانوية.

بما يجد، وإن كان فيها زوّار، تحدث إليهم، وكان طويل الصمت، بعيداً عن الادعاء. كان في المطبعة يوماً جماعة من أهل الفضل يتناظرون في أمر (الطربوش) ما أصله؟ ومن أين جاء؟ والباشا ساكت كأنه لا يعلم عن الموضوع شيئاً، وكانت المطبعة تدور في الداخل، تطبع رسالة له عن الطربوش، نقصى فيها خبره، وجمع تاريخه.

وشبهه في هذا السيد الخضر، الأخ الأكبر لشيخنا الشيخ زين العابدين التونسي، وأستاذ شيخنا الشيخ محمد بهجة البيطار. ومن لقيت في (السلفية) الأستاذ مصطفى صادق الرافعي، وكان من يكلمه يكتب له الجملة فيقرأها لأنه لا يسمع أبداً، ولقيت عنده الشيخ كامل الفصاف وكنت أعرفه من بعيد، وهو رجل حياته تاريخ له في السياسة أثر، وفي التعليم آثار، وسأكتب (إن شاء الله) عنه وعن لقيت في السلفية.

وبما استفدت في مصر أن قوي فيها قلمي، وانتقلت من الأسلوب الحماسي المحصور بالمعاني والجمال التي لها دوي كدوي صوت الطبل، وهي فارغة مثله، إلى أسلوب هو أقرب إلى الرصانة وتحلي ذلك في باب التعريف بالكتب في مجلة «الزهراء». ومن رأى آخر عدد صدر من «الزهراء» والذي قبله وحد أكثره بقلمي.

وبما استفدت به تبادل طريقتي في الخطابة، من الحماسة والصراخ وكثرة لإشارات، وذلك الذي نشأنا عليه في الحديث الهادي.

يكل ذلك أعود إن شاء الله إلى تفصيل القول فيه.

وكان أكثر ما اهتمت به لما عدت إلى دمشق وسعيت إلى الدلالة عليه، ووقفت والحمد لله في مثله من حيز القول إلى حيز العمل، هو إنشاء الجمعيات الإسلامية. واتحادات الطلاب وكلاهما لم يكن معروفاً في الشام

\*\*\*

عدت وكانت السنة الدراسية في بدايتها، وكنت (كما أسلفت) أهل شهادة البكالوريا في شعبة العلوم، وكانت البكالوريا على قسمين: الأول في نهاية السنة الحادية عشرة من سني الدراسة، والثاني في نهاية الثانية عشرة.

وكان فيه شعبتان. شعبة للرياضيات، وشعبة للفلسفة، فانتسبت إلى الفلسفة بلا تردد، وأقر الآن بعد تخرجي فيها ثلاث وخمسين أنها حددت فكري، ووسعت أفقي، وتركت في نفسي أثراً عميقاً لا يمحو، ولكنها كانت حطيرة جداً لولا أن الله سلمني منها، وأنه بفضلله جعل عندي من سالف دراستي ذخيرة وفيرة من علوم الدين، وأساساً راسخاً (أسأل الله بقاءه) من الإيمان، لأصلني

كما أقر أن سفري إلى مصر، على رغم أنها بلد الأوهام، وبشابة العلماء، وأن إقامتي فيها كانت قصيرة، وكانت في وسط إسلامي، أنها على هذا كله كادت تفتني، ونزل سلوكي. فليت الله الذين بيعتوا بأولادهم، إلى بلاد لا يسمع فيها أذان، ولا يتلى قرآن، وفي نفسهم طمأنينة قاتلة، وحيوة أنواع الباردة (المسموم) من حلو الشراب.

إذا كنت أنا الناشئ في بيت العلم والدرس، كدلت أفسد في مقبر وأداس عشرين، فمادام تكون حال من يذهب في مثل تلك أسس إلى أوروبا أو أميركا أو روسيا؟



## العودة إلى دمشق وإنشاء جمعية الهداية الإسلامية

لقد عدت من مصر ومعى شيء جديد، في نفسي وفي تفكيري، وفي تجارب حياتي

أولها: بل عود المأبر، والتمكّن من أسباب الخطابة، ولقد كنت أخطب من قبل سدي إلى مصر، بل لقد ألفت مسرحيات للطلاب وكنت أساعد على إخراجها. وكانت تمثل ليالي متتابعات، يقبل الناس عليها لا يملونها، بل لقد احترعت ما حريدا في إلقاء الشعر، أعلم الطلاب إلقاء كل قصيدة كأنى ألحها لهم العبد. من يد الصوت، وهنا يشد، وهنا يعلو وهنا ينخفض، وفست الإلقاء إلى إلقاء تعبيرى، وإلقاء حماسى، وإلقاء عاطفى، وإلقاء تشبى، وربما جاء بفصل هذا الاحمال فيها يأتي من المقال.

وثانيها: انى دقت لذة العمل في الصحافة، لا كاتباً فيها أو (مراسلاً) لها من خارجها. من عملا فيها من داخلها، وبدأت من فوق، من مجلة الزهراء التي كانت يرشد المجلة الأدبية الأولى

والثالثة: انى شهدت مولد الجمعيات الإسلامية فحملت خبرها إلى دمشق. وكاد في دمشق جماعة من كرام النحر وبعض طلبة العلم يتلاقون على عادة الشاميين في (تدريس) بينهم والدور أن يجتمعوا أياماً معدودات عند واحد منهم، اجتماعاً فيه تسلية وليس فيه معصية، فإذا كان اليوم الأخير في دور الرجل، تمنع لهم صنيعاً صدر كنافه، أو صينية فوزي، أو الصفيحة والشعبيات وهي أكالات لا يغني سماع وصفها، عن ذوق طعمها، ولا يعرف مذاقها إلا من ذاقها.

والذي عرفني بهم، واخذني إليهم رجل كان أحد الذين أثروا في حياتي، وأفضلوا علي، رجل عاش عمره كله من غلة ضيعة له في (حرسنا) قرب (دوما)، فلم يكن يعمل ليكسب مالا بل ليكسب أجراً: لا يقع منكر إلا كان أول من يسرع إلى إنكاره، ولا يسمع بمحتاج إلا كان أول من يجمع له ما يسد حاجته، لا يبالي في سبيل ما يراه الحق بعرف مجتمع، ولا بمدارة إنسان، لا يفرق عندما ينطق بالحق إن كان الذي أمامه بواب المدرسة، أو وزير المعارف. كان الشيخ تاج الدين الحسيني قريبه (ابن عمته) فكان ينصحه وقد يغلط له القول، وإن رأى منه انحرافاً رده إلى الصواب، وكان موقفه من كل رئيس ووزير يلقاه، كموقفه من الشيخ تاج رئيس الدولة. ثم تبس الجمهورية، ذلك لأنه كان مؤمناً معتمداً على الله، ولأنه كان مسعياً بصيغته عن مال الحكام - أعني مال الله الذي جعله تحت أيدي الحكام - والعالم لا يذل إلا إذا مد يده بطلب، أو تشوف قلبه إليه، فلما أن يكون العالم غنياً بما له، وإما أن يكون غنياً بالقناعة بما قسم الله له من رزق، والعزة بما أكرمه الله به من إيمان.

وكان عالي الصوت، شديداً في الجدل، حطته المحن أدا حتى في الدفاع، ولكنه كان رجاءاً إذا بدا له الحق، يقرأ به، ويدع غصه إليه.

كان من أصفى الناس قلباً، ينسى إساءة الناس إليه، كما ينسى إحسانه إليهم، وهذه لعمري ذروة النبيل. صحبتته خمسين سنة كما صحبت شيخنا الشيخ بهجة البيطار، فكنت أحس معها كأني أمام والد أحبه حب الولد لأبيه، وأنطلق معه على سجيتي. كنا نجيئه متى شئنا، فنجد بابَه ونجد قلبه مفتوحاً لنا، إن جعنا أكلنا، وإن نعسنا غمنا، وإن شغلنا أو مللنا انصرفنا، وكذلك كانت الحال مع الشيخ بهجة والشيخ نصيف. فرحم الله هذا الرجل ورحمهما، ورحم أمثال أولئك الناس. لم نجد والله بعدهم مثلهم، ولم يسد أحد مسدهم، فاللهم ارحمهم وأحسن جزاءهم.

أما هذا الرجل فهو الشيخ عبد القادر العاني الذي توفي في دمشق من أقل من سنتين عن أكثر من تسعين عاماً.

\* \* \*

أخذني إليهم، وما سني من سنهم، ولا تفكيري من تفكيرهم، فأنا شاب وهم كهول، وأكثرهم من التجار، وأنا كما عرفت من سالف حديثي، أجهل خلق الله بالتجارة، وأبعدهم عنها، ولكني لما عرفتهم ألفتهم، وأنست بهم.

كانوا مخلصين وكانوا ظرافاً، وأنا إنما يصعب علي دخول المجلس، هنا العقبة الكؤود، فإذا تخطيطتها وصرت في المجلس وجدت عندي من طرائف الأخبار، ونوادير السُر، ومن النكات والمضحكات، ما أمسك به أطراف الحديث فأشدها وأرخيها كما أشاء.

حدثتهم فيها حدثت به عن إنشاء الجمعيات في مصر، وأوجزت لهم قانون الشبان المسلمين، ه هداية الإسلامية، وقلت: لماذا لا تحوّلون هذا (الدور) إلى جمعية، تنفعوا بها أساس وترصّون الله، ويكون لكم حظ من ميراث النبوة وهو الدعوة إلى الله

واختار قديم جمعية هداية الإسلامية واسمها، وأعدوا الأوراق لأخذ الرخصة الرسمية، وه سكر جتاح إصدار مجلة غير سياسية. أو تأليف جمعية غير سياسية إلا أني حياي بحيت حياي) يقدم إلى وزارة الداخلية.

مير عريف هديلا الإحوان. بمصراحيهم أننا كنا نفكر فيمن يكونون أعضاء في جمعية فنلب واحد منهم. ما رأيك بفلان، وكان حاضراً معنا، هل نراه يتسلح نفسه؟ فـ هو (عضو) عزيز علينا، لا نستغني عنه، لكن يجب سيرة

ه أنت، جمعية، معلماً عنها في رثته المجمع العلمي العربي (في المدرسة هادلية الأثرية) سمح لما بذلك رئيس المجمع استاذنا محمد كرد علي، وكنت أنا الذي تشرف بالإعلان عنها في محاضرة دُعي الناس إليها. وأعلنت (أيضاً) عنها، بدت قصه إسمائها. وخلاصة قانونها في مقالة (عندي نسخة منها) نشرت في (النفس) عند صديقنا الأستاذ نجيب الربيع عدد ١١/٢٩/١٩٣٠.

أرادوا الاحتفاء بالمولد

وجاءت ذكرى المولد، وأرادوا الاحتفاء به على عادة المسلمين الآن، في جميع البلدان، بقراءة قصة المولد، وكان الخاصة من الرجال يقيّمون مولد (البرزنجي)، والنساء (مولد العروس).

والعجيب أن سير الرجال تبدأ من الولادة، والناس إذا وصلوا في (المولد) إلى خبر ولادته ﷺ وقفوا وصلوا عليه الصلاة الإبراهيمية، وأكلوا السكر (الملبس) وتفرقوا.

وفي المولد كلها ما ليس صحيح، بل ما هو مخالف للفكر والمصحيح من الحديث، وأنا أكتب في إنكاره من مطلع شبلي، منها: أن جده عرف يوم مولده أنه هو النبي المنتظر، وأمه عرفت وبأدائها مد لما حملت به بحبرها بأنه السي المنتظر، وبأمرها أن تسميه محمداً، وأن بحيرا وعير، من التنصاري عرفوا أنه هو النبي، واليهود عرفوه، بل إن (مولد) البرزنجي يؤكد أن (وحوش المشارق والمغرب) عرفت خبره وتباشرت به، وأنها غاصت بحيرة ساوة، وفاض وادي سماوه، وتهاوت الشرفات من إيوان كسرى..

ثم أقلب الصفحة فأجد مقابل هذا كله. الحديث الصحيح بأن محمداً ﷺ، جاءه الوحي وقال له: (اقرأ) وهو لم يعرف تماماً أنه النبي المنتظر، وأنه ذهب إلى خديجة مرعوباً، فأخذته إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، أي أنه صار نبياً فعلاً، وهو لم يعلم بذلك تماماً، والله يقول له: ما كنت تدري ما الكتاب فكيف عرف أولئك كلهم؟ حتى الوحوش عرفت أنه هو نفسه النبي؟

والأناشيد التي تصحب المولد، والتي أنكرتها من مطلع شبلي، أكثرها غزل بجمال الرسول، أو كلام عنه، لا يصلح لأن يكون مدحاً له.

\*\*\*

قلت لهم: بدلاً من تلاوة هذه القصة، والمشاركة في الكذب على رسول الله، وإساءة الأدب معه، أَعِدُّ أنا محاضرة، ألقها، وتطبعها الجمعية، ونوزعها بدلاً من (الملبس).

قالوا: فكيف بالقيام عند ذكر الولادة؟ قلت: سبحان الله، ومن قال إن هذا القيام من فرائض الإسلام، إنه بدعة لا أصل لها؟

قالوا: كيف يكون مولد بلا قيام؟!

قلت: أنا أقيمهم لكم إن شئتم! قالوا: كيف؟

قلت: إن الخطيب المتمكن، بحرك السامعين كما يريد، يقودهم بلسانه، وبحركات يده، ولو كان فيهم من هو أعلم منه وأجل وأكبر، هذا سحر المنبر.

وألقيت المحاضرة في ربيع الأول سنة ١٣٥٠، وكانت أول احتفاء بالمولد ليس فيه كذب، ولا عناء ولا طرب، كانت نوعاً جديداً من الموالد، وإن كانت الموالد كلها جديدة، أي مبتدعة لم تعرفها القرون الأولى التي كانت أفضل القرون.

لقد مرّ على هذه المحاضرة اثنتان وخمسون سنة<sup>(١)</sup>، وألقيت بعدها محاضرات الله أعلم بعددها، ولكن الناس نسوا ونسيت أنا، ما قلت فيها، وهذه طمعت فتمس، فيا ليتني طمعت كل محاضراتي. وهل تنفع شيئاً (ليت)؟.

هل تصدقون أني قد قرأتها كنت أحسن كأني أقرأ شيئاً كنهه غيري. قلت لكم في مطلع هذه الذكريات. إن الإنسان في تبدل دائم: خلايا جسده، ميول نفسه، كثيراً من أفكاره ومما يتبدل في الكاتب أسلوبه، وإن كان في كل ما يكتب أمارة تدل عليه، شيء في المقالة نحوه ولا تلمسه بخبرك أن كاتبها فلان وإن لم يكن في ذيلها اسم فلان، وهذا الشيء هو الأسلوب. لقد حاول النقاد تعريف الأساليب عربياً منطقياً، بعد أن عرفوه معرفة حسية فلم بقدروا له على تعريف، فكدن أسلوب الرجل في حصانته هو الرجل نفسه، كما قال بوفون Buffon. إنك تسمع، بدا عن عمرو، من شكله من صوته من مشبهه، لكنك لا تستطيع أن تعرف، كيف ديونه.

ونعرف أن أبليل جميلة، وأن المتنبي عبقري، ولكنك تعجز عن تحديد سر الجمال في أبليل، هل هو في عينيها أم في شهديها أم في بسمه شفتيها؟ وعن حصر

عبقريّة المتنبّي في تركيب الفاظه، أو في اختراع معانيه، أو في حكمه وأمثاله التي سارت كل مساراً؟.

\*\*\*

فرحت بهذه المحاضرة إذ وجدتّها مطبوعة، وأحسست كأنّها صورة النفّط لي في مرحلة من عمري ليس عندي نسخة منها، وقد مضى زمانها وتبدلت أنا حتى كأنّي غير صاحبها، صورة لي في المراحل الأولى من سفرتي الطويلة على طريق الأدب. إنّها ليست كصورتي اليوم عند قراء (المسلمون)، ولا كصورتي في (المدينة)، و(رابطة العالم الإسلامي)، ولا كصورتي في (الرسالة)، و(الثقافة)، وصورتي قبل ذلك في (الأيام)، و(الصف)، و(فتى العرب)، و(الف باء) الصحف الشامية التي ماتت كلّها.

وأنا أقرأ كتاباتي الأولى فلا أرتضيها الآن، ولكن ما قيمة حكم الإنسان على عمله، ومدى صحة تقويمه<sup>(١)</sup> إياه؟ إن محمد عبد الوهاب يظن أن أغانيه الأولى (يا جارة الوادي) وأخوانها دون ما جاء به بعد وبتحجّ به الآن، مع أن كثيراً من الناس - وأنا منهم - يرون أن أجمل ما غناه أغانيه الأولى من أخوات جارة الوادي.

هذه المحاضرة بما لا أرتضيه الآن، ولكنني أنقل فقرات منها بما ليري القراء كيف كنت أكتب في تلك الأيام، ولأن هذه المحاضرة لم تدخل في كتاب من كتبي المطبوعة، بل طبعتها (جمعية الهداية الإسلامية) في ورامات، ووزعتها على من حضر المحاضرة لما ألقيت من اثنتين وخمسين سنة، فكم من القراء كان موجوداً لما وزعت؟ وكم ممن كان موجوداً قد احتفظ بها؟.

ما قلته في المحاضرة..

وصفت في المحاضرة حال العالم قبل مولد الرسول ﷺ، وكيف انقطع وحي السماء، وشاخت دول الأرض، وانزاحت الحضارة العادلة عن أكثر بقاعها، واقتسم العالم الدولتان الكبيرتان: فارس والروم، كما يقسمه اليوم

---

(١) ولا تقل نقيمه، فإن التقييم غلط، وأصلها قام (أي قوم).

الروس والأميركان، وقلت: إنه كان يعرض لكسرى الفرس، أو قيصر الروم،  
خاطر من الطمع، أو يحس من نفسه فضلاً في القوة، فينهض ليقاتل الآخر.  
بسطرغ الملكان، ويفرق الألوف من الناس في دمائهم، وتزهق أرواحهم. في  
سبيل من؟ في سبيل الشيطان، لا في سبيل الحق، ولا في سبيل الرحمن. فسدت  
الأخلاق في روما حتى اجتمع على العري الكامل الرجال والنساء في الحمامات،  
حتى تزوجت ابنة شيشرون أبي الوطن، بأربعة رجال في وقت معاً.  
عَمَّ الجهل والظلام، وسادت الدعارة والفسوق...

إلى أن قلت: (لم يعد في بلاد الحضارة أمل بيزوغ الفجر المرتقب، فهل  
يرى من وراء اليباب، من بوادي الجزيرة؟) ووصفت حال العرب، وكيف كانوا  
(منشقين على أنفسهم، متباينين في قبائلهم، لا راية تجمعهم، ولا حكومة  
تضعهم، حكمهم في سيوفهم. آهنتهم شتى، وأربابهم أصنام يخشون كسرى،  
ويرجون قيصر. معرو في أدينتهم، وقنعوا بجزيرتهم).

إلى أن قلت: (تم كاد أمر، وكانت عشية أو ضحاها، فإذا الافتراق اتحاد،  
وإذا الضعف قوة. وقد هذا الشعب الجاهل يحمل مشعل العلم، وهذه الجزيرة  
الفاحلة تعبرها من حب الأهرار، ويتهاجر أمام أهلها عرش كل ظالم جبار  
ما حدث من الذي في هذه الصحراء الجذباء؟ من نفخ في هذا  
شعب العاص. فأخرج منها. به عالمة قوية كانت المثل الكامل للأمة  
القصية، من الذي أزعج الله به الظلام عن الكون، وأطلع به شمس الهداية  
واحد عن أبيه)

فقال: (فأما الذي شكر الله الذي أرسله راحة للعالمين)  
(بوت قلعه) (بشارة بالبد المسدودة إلى القيام فنهضوا جميعاً ولما قلت:  
اصلوا عليه) (سليم تسليماً) قراوا الصلاة الإبراهيمية، على عاداتهم في الموالد،  
(لا على أمها واجدها، أو أمه لا بد من قراءتها).

(وكاد لنا قلت: (إننا قد اجتمعنا هنا في ذكرى مولده ﷺ لنفيض على العالم  
من أول سيرة السامية، وتاريخه الجليل، إننا قد اجتمعنا هنا لنثبت للدنيا كلها

أن الإسلام دين الله، وأن القرآن كتابه، الذي جعله المنهاج لنا، فلا يقبل منهاجاً غيره منا..

إننا قد اجتمعنا هنا لنطمئن إخواننا المسلمين فوق كل أرض، وتحت كل نجم، بأن دين الله لن يغلب، ولن يزول، وأن العاقبة لأهلته، ولو مسهم القرح، ونالهم الأذى. إننا قد اجتمعنا هنا لنصية الفصيلة، مشير العدل، وإبصال الخير الذي بعث به محمد إلى الدنيا كلها. كأنه ميلاده عمة، وسلوة قدوة، ومبعثه هدى ورحمة. ودبه شمساً ساطعة، اهتدى أسس وديها وسادوا على ضوءها، فبارك الله، وبورك الرسول بعث الذكرى

ولد والعالم في ظلام، والناس في ساء، والحصارة في تنهقر. معم النور واهتدى الناس، وازدهرت الحضارة..

كان الباطل ظافراً، والجهل فاشياً، والظلم محكما، فلما ولد صهر الحق، وساد العلم، وظفر العدل فكان مولده رحمة للعالمين، وهدى للناس أجمعين. إلى آخر المحاضرة فهي طويلة. وكانت خاتمتها: (ألا ملحد في هذا اليوم إيماننا، ولتعاهد على الرجوع إلى ديننا، لتتصافح ولتتصالح ولكل يد في حق واحدة، على الله بمن علينا بنصر من عنده، وما النصر إلا من عند الله

لتيقظ لتلك الفئة التي تزعم أنها منا، وتؤثر على دينا، بكتاب رنا، ضلالات الملحدين وبدع المبتدعين، ومن في تلك الفئة؟ ان فيها أساءنا وإخواننا، أفسدتهم علينا هذه المدارس وهذه المجتمعات، احدهم من مؤمنين وردتهم إلينا كافرين بدينهم، مزدريين لفضائلهم، أعداء لآبائهم وعترتهم. ونحن؟ نحن غافلون نائمون، لا نواجه عدواً، ولا ندرا خطراً، ولا ننكر منكراً..

إننا راجعون إلى ربنا، وسبألنا عن دين أضعفناه، ومجد أضعفناه، فيماذا نجيب؟ لقد نزلت فينا المصائب، وتوالت النكبات، حتى صرنا إذا أصابنا السهام، تكسرت النصال على النصال، فلم نعد نشعر بالآلها.

لقد طفق الكيل، وتكاثف الظلام. فإلى النور، إلى الحياة. قوموا اليوم بين



يدي ربكم، وأقبلوا عليه بقلوب مخلصه وحدها الدين، ثم اسألوه أن يفرج عن المسلمين، وأن يمدكم بنصره ومعونته.

ادعوا فقد دعا الرسول ﷺ يوم بدر وألح في الدعاء ولكن بعد أن أعد الجيش وصف الجنده، واتخذ الأسباب كلها التي يقدر عليها، ثم سأل الله ما لا يقدر عليه إلا الله، وهو تحقيق النصر).

(فاعملوا وتوكلوا، أعدوا وادعوا، إسعوا وسلوا، وإذن يجيب الله دعاءكم، ويعطيكم سؤالكم).

هذا ما قلته في ربيع الأول سنة ١٣٥٠ هـ في يوم إعلان تأليف أول جمعية إسلامية في سورية.

## تقلّبات على الطريق

الذي يريد أن يشتري بيتاً أو يستأجره، يقلّب بيوتاً كثيرة، يصبر مزاياها وعيوبها، ثم يختار ما هو أصح له منها، ولقد كانت سنة ١٩٢٩ والتي بعدها إلى سنة ١٩٣١ كانت لي مرحلة اختبار واختيار، ما كانت بصنعي بل بصنع الله لي: خالطت المشايخ، حتى صار لي في ميدان الدعوة صوت مسموع، وإن لم يكن أعلى الأصوات، وصرت من قادة الطلاب وإن لم أكن أكبر القواد، وصرت من فرسان المنابر، ومن حملة الأقلام، وإن لم أكن سابق الفرسان، ولا من أكبر الكتاب، وأصبحت معلماً ولكن في مدارس أهلية. واشتغلت بالمسرح تالياً ومعاونة في الإخراج، ومعلماً للتمثيل. وملت الشهادة وكتبت تحت اسمي (بكالوريوس آداب وفلسفة)...

. . . وكانت كلها بدايات: في الربيع تخضر الأرض، وتنشق عن نبات صغيرة، منها زهور سريّة أو حشائش خلقت لتعيش شهور الصيف فقط، ومنها ما يعيش سنين، ومنها خوط شجرة زيتون ربما بلغ عمرها القرون.

كانت كلها بدايات منها ما وقف وانقضى عهده فصار من الذكريات، ومنها ما استمر إلى الآن. استمر - والحمد لله - عملي في الدعوة، وفي التعليم، وفي الكتابة، وفي الخطابة، وانتهى عهد المسرح وقبادة الجماهير، كما انتهى من قبله عهدي بالتجارة، والحمد لله أيضاً، فما ندمت على ما انصرفت عنه، ولا غل ما بقيت فيه.

عودة إلى مصر  
ولما انتهت السنة الدراسية عدت إلى مصر، ناوياً الإقامة فيها، وقدمت

أوراقتي للجامعة، وقابلت الدكتور طه حسين عميد كلية الآداب، والدكتور عبد الوهاب عزام، فكان اللقاء الوحيد مع الأول، وكان اللقاء مع الثاني بداية مودة وصداقة ومحبة استمرت حتى توفاه الله: في قصر وفي دمشق وفي كراتشي، وسيأتي إن شاء الله الكلام عنه.

إخترت الجامعة ولكن الله ما احتارها لي، فقد كان حالي غيب الدب على رأس من يرد على طه حسين كتابه (في التسع الحاعلي) نائب المظلمة السلفية) مركز الحملة عليه، ودفع ما جاء به. ودخولي الجامعة بعد ما بيبي وبينه، وأنا إنما حثت مصر لأكوّن معه لا عليه، فدخلت دار العلوم اعلياً وليس عندي شيء مكتوب يذكرني بأبائها، وما كنت في داكرتي ذهبت به الأيام والليالي فلست أذكر إلا أنني كنت أركب (الترام) من باب الخلق إلى (المسيبة). تيمني به في شارع ضيق ملئ هو شارع الخليج، الذي لا بعد اليوم صيفاً ولا شتوياً، وكان على جانبيه أبنية عتيقة تكاد تكون حربة مص على جانبه اليوم عسارات ضخمة عالية.

ولا أذكر من أساتذتها إلا الشيخ أحمد الاسكندر، مؤلف (الوسيط) الذي كنا نقرأ فيه تاريخ الأدب العربي، ووكيل المدرسة الشيخ حسن منصور، وكان بارعاً في التفسير، وكان مهيباً يخشاه الطلاب، وأنا كنا نغدى الظاهر في المدرسة، ثم نخرج.

وما أذكره أنهم أرادوا أن يؤلفوا فرقة للتمثيل، فجاوزوا باب ما اسم غريب لا أزال أحفظه هو (فتوح نشاطي)، أعدت عبارات جعل يخسر بها الطلاب، ليرى من يحسن منهم الإلقاء، ومن يصلح منهم للتمثيل، فلما وصل الدور إلي، دهش ودهش الطلاب جميعاً، والتفتوا إلي بعد أن كانوا لا يحسون بوجودي، وصرت المقدم عنده وعندهم، وصار هذا (الجدع الشامي)<sup>(١)</sup> مضرب المثل في إجادة الإلقاء، والمقدرة على التمثيل، ولم يعلموا أنني كنت (أستاذاً) في دمشق لهذا الفن، قبل أن أكون (طالباً) مبتدئاً فيه في مصر.

---

(١) وأصل الكلمة جدع، وهي فصيحة (يا ليتني فيها جدع أحب فيها واضع).

ما أعجب الإنسان  
ما أعجب حياة الإنسان!

لقد سألتني عشرين مرة في درس الإنشاء: ماذا تريد أن تكون في المستقبل؟ فكتبت أريد أن أكون طبيباً، وأن أكون محامياً، وأن أكون... وأن أكون، فما كان شيء مما أردت أن أكونه، ولكن كان ما أراد الله أن أكون.

لا، لا أقول مقالة الجاهلين (أن الإنسان مسير)، إنه ليس مسيراً بل هو مخير، لم يجبر الله كافراً على الكفر، ولا عاصياً على العصيان، بل أعطاه العقل الذي يفكر، والإرادة التي تقرر، والأعضاء التي تنفذ، وفتح أمامه الطريقين، وقال: هذا طريق الحق، وهذا طريق النار.

من خرج من بيته، وكان سليم الرجلين، يستطيع أن يمشي إلى المسجد، ويستطيع أن يمشي إلى الحمامة، فأين الإكراه؟.

يقول حبيب سمير: أنا محير وأنا أريد أن أرفع يدي، فمن يراهنني على أني لا أستطيع فعلها؟ إن قدرت على رفعها، أقدر أن أرفعها لأنقذ غريباً، أو لأغرق بريثاً، فهل عدلاً - سواء؟ لا ليس الإنسان مسيراً، بل هو مختار، يضع ما يشاء، ويحكم في حدود لطافة البشرية، السيارة تمشي، ليست كالصخرة ثابتة، ولكنها تمشي في الطريق المعبود، وبالسريعة المحددة. لا تصعد درج العسكاري، ولا تنزل (سويج) واه مخير ولكن لا أقدر أن أجعل أنفي أجمل، ولا أقدر أن أجعل أصبي - ولا أن أجعل أمسي بعيداً<sup>(١)</sup>

الإنسان مثل - ورق في البحر. يسير راكبه، يحدد وجهته، ويعبر غابته، ويكره أن يمزجه عذلية، أو يريح غابته، فتوجهه جهة لا يريدتها، إلى غابة لا يقصدها.

في يدي الالة ورقة مصفرة من القدم، مكتوب فيها:

(١) ارجع كتابي (تعريف عام بين الإسلام)

المملكة المصرية، دار العلوم العليا، نادي التمثيل والموسيقى، غرة  
مسلسلة (٧٠). وصل من حضرة العضو محمد علي طنطاوي مبلغ ١٠ فقط  
قروش صاغ قيمة اشتراكه عن شهر أكتوبر سنة ١٩٢٩ تحريراً في ١٥ أكتوبر  
سنة ١٩٢٩. الخاتم الرسمي، أمين الصندوق. محمد علي الضبع.

علي الطنطاوي ممثل أو موسيقي! وتصورت ماذا تكون خاتمة هذه القصة  
التي بدأت بهذا الوصل لو هي اكتملت قصولاً. إلى أين كاد يصل بي هذا  
الطريق الذي وضعت رجلي في أوله يوم صريت عضواً في نادي التمثيل  
والموسيقى لو أتي تابعت السير فيه؟

كنت أبدأ فأمثل في المدرسة، ثم أشارك في رواية على المسرح، ثم أدخلت  
فرقة من الفرق، ثم يسجل اسمي في القائمة التي تبدأ بجورج أبيض لنتهي  
بإسماعيل ياسين، فيكون علي الطنطاوي اليوم مثلاً عجوزاً متقاعدًا، يعاشر  
النساء، ويشهد الرقص، ويسهر الليل ويسام النهار، ويعود بلا صحة ولا مال  
ولا دنيا ولا آخرة. ولم يكن يحول بيني وبين هذه النهاية شيء. فالاستعداد له في  
نفسي كبير، والرغبة فيه قوية، ولكن الله صرفني عنه.

أصبحت يوماً فإذا خاطر قوي لم أملك له دفعاً يدفعني لترك دار العلوم،  
ونادي التمثيل فيها، والعودة إلى دمشق وكان هذا الخاطر هو الموحية التي حولت  
زورقي، إلى ما هو خير لي، فاللهم لك الحمد.

\* \* \*

عدت إلى دمشق فإذا موعد القبول في الجامعة قد مضى، وكان في نفسي  
طاقة هائلة إذا لم تصادف عملاً تذهب فيه، تذهب بي أنا، وكنت مكلماً بنفسي  
وبأمي واخوتي، فإذا لم أجد كسباً حلالاً، ضعت وأضعتهن.

فلا بد لي إذن من عمل أوجه إليه طاقتي، ومورد أنفق منه على أهلي.  
ومن أين المورد؟ هل أعود إلى التجارة التي جربتها فما أطقتها، ولا صدقت أي  
نجوت منها؟ هل أقبل (وظيفة)<sup>(١)</sup> وأنا أنكر على من يكون موظفاً في حكومة  
يوجهها المستعمرون كما يشاؤون؟ لم يبق أمامي إلا التعليم.

(١) الوظيفة في اللغة الراتب.

حياتي كلها موجات يبعثها الله، فتوجه زورقي إلى حيث يريد، منعطفات ما كان شيء منها بتدبيري واختياري بل باختيار الله لي، وأعود فأكرر أني لست مسيراً، وأن من يزعم أن الإنسان مسير يقر على نفسه بأنه أحمق. الإنسان مخير، ولكن دائرة اختياره ضيقة، ومدى حريته في الانطلاق قصير، لذلك كان علينا التفكير، وعلينا أن نستشير، ثم نستخير، فنسأل الله أن يبلغنا من الخير ما نعجز عن بلوغه إلا بمعونه.

من ذلك أنه كان في دمشق مدرسة أهلية أثرية، اسمها المدرسة الأمينية، قرية من الأموي. كانت أقدم مدرسة للشافعية في دمشق، عمرها قريب من عمر الأزهر، مديرتها اس خالتي الشيخ شريف الخطيب، وكان يُعَلَّم فيها أخوه الشيخ طه، فجئت زوره يوماً فيها فعلمت رجلي بالفخ. وكانت هذه الزيارة (معطفاً) كبير في صبو حياتي، إذ دخلت على التلاميذ فألقيت عليهم درساً، فأحست التدريس، فاستلعت به. ثم أقام (الحفلة) السنوية، وكان بدعو إليها وحوه الشاميين من علماء وموظفين وتجار، وكلفني أن أكون خطيبها، وكنت أكتب خطبي، فأعددت حطمة قال من سمعها، - ما قال لي، ولكن قال عني بلغني - بأنها كانت شديدة حديدًا. ما ألف الناس يومئذ مثله ولا عرفوه، في موضع غيب ومكرم. وفي سماعها وإنشائها، وفي طريقة إلقاءها، وكان ذلك سنة ١٣٤٥ هـ حرية وأماناً في هره الشباب حسن الوقفة، جهير الصوت، صحيح حفظ. وبدلاً لحياة لملت أي (جميل الصورة) أيضاً!!

كانت تلك مدينتي في التعليم، وفي الخطابة، وفي هذه المدرسة (ثم في غيرها) كانت - به انصالي بعالم المباح والتمثيل، وفيها اخترعت فن الإلقاء. تدفني في غمر يسوع من نشاط وس الابتكار، جئت بالمحركات القوي، - - - - - جيد - - - - - المصالح. ولكي أعملت محراثي، ونشرت بذاري، في - - - لا تصلح للزراعة، فحصلت المشاق، وكثرة الانفاق ولم أخرج بظائل.

لم يكن هذا الجهد في الجامعة، أو في مدرسة ثانوية، عند من يقدره قدره، ومنهم من، لجأ بأطيب الثمر وأكثره، ولم يذهب هدرًا، مع تلاميذ صغار لا قدره في حينه. ولا حفظوه بعده، بل إن أكثرهم لم يكمل دراسته، بل

انصرف إلى اعمال الدنيا، فلم تعد تربطه رابطة بالعلم والأدب.

\*\*\*

فلما اضطرت الآن إلى العمل، رجعت إلى (الأمينية) أعلم فيها بالأجر، وما الأجر؟ أربعة قروش إلا ربعاً على الساعة، والقرش هللة (هلاله) هنا، أو (مليم) في مصر، هذا هو الأجر!

وهذا شيء لا يشتري حبراً، ولا بشيع أسرة، فعملت في مدارس أخرى في الجوهريّة، عند الشيخ عبد السفرحلاقي - أساذي في الحقيقة الدينية من حكم ذكره - وكان من تلاميذي فيها واحد بلغ حتى صار من شيوخ التعليم، ومن العلماء، وأمضى شطراً من عمره موحهاً للمدرسين، مشرفاً على وضع المناهج، وتأليف الكتب في العلوم الدينية لأنه كان معشاً التربية الدينية في وزارة المعارف، وهو أحد تسعة كانوا أقوى من مربّي من الطلاب، وقد مربّي آلاف وآلاف وآلاف من سنة ١٣٤٥ إلى الآن، هو الاساذ عبد الرحمن الباني

وفي المدرسة التجارية، التي عملت فيها من سنة - تم تركتها لما قدموا عليّ الشيخ أحمد الدقر فأعطوه الدرس. وفي الكاملية - المدرسة التي كانت يوماً من أعظم مدارس دمشق، فصارت مدرسة ابتدائية، أنشأها الشيخ كامل القصاب العالم المعلم الوطني المصلح، وكان يعلم فيها المرحّ حال دمشق كالدكتور عبد الرحمن الشهبندر، وتخرج فيها جلة من الأساتذة كالدكتور أحمد حمدي الخياط أستاذ أطباء دمشق، والدكتور أسعد الحكيم.

كان يديرها لما جئت أدرس فيها الصديق الخطيب الأستاذ حودة المارديني، وكان أول شيخ يلبس الحلة الافرنجية (البطال والجاكيت). ويعقد العقدة (الكرافات)، ويخلق لحيته، فكنا ونحن صغار نعجب منه، وقليل منا يعجب به، ثم جاء مديراً لها ابن الشيخ كامل.

ولهذه المدارس، وأيامي فيها أخبار طوال، إذا جرت المناسبة إليها، ذكرتها. وكان من المدارس الأهلية، الكلية العلمية الوطنية - التي كانت للمربي الشيخ أبي الخير الطباع -، ثم للدكتور متيف العائدي الأستاذ في كلية الطب، وكانت تتبع مناهج وزارة المعارف، وتُعَدُّ الطلاب لامتحان البكالوريا، وكان

يدرس الأدب العربي فيها الأديب الشاعر العالم الأستاذ خليل مردم بك، فسمحت الجامعة للطلاب غير السوريين بدخولها بالشهادة الثانوية، وأعفتهم من نيل البكالوريا، فانشأت الكلية صفّاً (فصلاً) سمّته (صف الجامعة)، يدرس فيه كل ما يدرس في (صف البكالوريا) وطلبت من الأستاذ مردم بك أن يعلم فيه فاعتذر، ورشحني لتدريس الأدب في هذا الصف، فدعوني وجعلوا لي أجراً عشر الليرة الذهبية (أي ٥٥ قرشاً) على الساعة، وكان أجراً كبيراً بحساب تلك الأيام وجمعت محاضراتي عن بشار بن برد، أخذتها من دفتر أحد الطلاب وطبعتها في كتاب، صدر على عجل سنة ١٩٣٠، ولم أعد طبعه ولا أنوي إعادته، لأنني لا أرتضيه.

### مرحلة بدايات

كانت مرحلة بدايات، ومن هذه البدايات احترافي الصحافة. وكنت قد اتصلت بها من قبل لما نشرت أول مقالة لي في (المقتبس) عند الأستاذ أحمد كردعي أبي بسام وعبد الرزاق، وشقيق أستاذنا الكبير منشيء المقتبس محمد كرد علي.

وفي كتابي (من حديث النفس) تفصيل الكلام فيه فلن أعود إليه ولكن أقول: (إني كنت لثقة وحرّاف على رقيق عمري أنور العطار رحمه الله، وكان يومئذ يجرب قلوب الشعراء، فمشار عليّ إذ أنشرها فاستكبرت ذلك، فما زال يزيّن لي حتى انت له. واعدت على إداوة المقتبس وكانت في شارع السنجقदार (القديم) قبل أن يخرج المستودع. وقبل أن يعيد الناس بناءه، وكانت في صف المسجد من حبة المرحمة، ولا أدري كيف وجدت الجرأة على أن أصعد السلم، وأن أسلم على الاسود ودمع إليه المقال).

ولم يخف من إحسانا من يعرف طريق صحيفة، أو يقدم على طلب النشر فيها، وكنا يومئذ مصابين تمرّص الخجل الذي شفي منه أكثر شباب اليوم، بل حازوه إلى الجهة الأخرى... التي تقابل الخجل.

فأحد المقالة فظفر فيها، فرأى كلاماً مكتهاً ناصحاً، ورأى أمامه فتى صغيراً فظيراً، وكان ذلك في أوائل سنة ١٩٢٦، فعجب أن يكون هذا من



هذا، وكأنه قد شك فأحب أن يتحقق فاحتال علي حتى امتحنتني بشيء أكتبه له  
زعم أن المطبعة تحتاج إليه، وليس عنده من يكتبه، ولا يحسن تأجيله. ففهمت  
وأنشأته له إنشاء من يسابق قلمه فكره، فازداد عجبه مني، ووعدني بنشر المقالة  
غداً الغد.

خرجت من إدارة الجريدة وأنا أتلمس جانبي أنظر هل نبتت لي أجنحة  
أطير بها لفرط ما استخفني من السرور، ولو أفي بويعت بالإمارة أو أعطيت  
البشارة، ما فرحت أكثر من فرحي بهذا الوعد

وسرت كأني راكب حوامة، ولم تكن قد احترعت الحوامات، فأنا أمشي  
على الأرض ولكن لا تمس أقدامي الأرض، وما أحسبني نمت تلك الليلة ساعة،  
ولو غمتها لحلمت فيها بما ينالني من المجد حين ينشر المقال فيقرؤه الناس،  
فيدعون أعمالهم، ويتركون ما بأيديهم، ليشيروا إلي فيقولوا: هذا هو كاتب  
المقالة. وجعلت أتربق الصباح ترقب عاشق هيسان، ينتظر وصلاً بعد طول  
هجران، حتى إذا انبثق الصباح، نزلت فأخذت الجريدة، فإذا فيها المقالة وبين  
يديها كلمة ثناء لو قيلت للجاحظ لراها كبيرة عليه.

رحمك الله يا أبا يسام، ورحم تلك الأيام.

لقد نشرت بعدها أكثر من أربعة آلاف مقالة، فما عرمت مثل تلك  
الفرحة. إن الفرحات الأولى لا تعاد، ترى الكعبة ألف مرة فلا تحس أمامها مثل  
الذي أحسسته في المرة الأولى، وتقرأ القصة مرات فلا تشعر بالمتعة التي شعرت  
بها عند القراءة الأولى، وتعاشر زوجتك سنوات وسنوات فلا تجد فيها كلها ليلة  
كالليلة الأولى.

\* \* \*

وعدت إلى احتراف الصحافة سنة ١٩٣٠ وحديث هذه العودة في (العدد)  
القادم، إن أحياني الله إلى العدد القادم.

# الفهرس

٥	..... المقدمة
	الحلقة (١)
٩	..... ذكريات لا سذكّرات
	الحلقة (٢)
١٧	..... من ذكرياتي عن دمشق
	الحلقة (٣)
٢٥	..... من الكتاب إلى المدرسة التجارية
	الحلقة (٤)
٣٣	..... من ذكريات الطفولة - ذكرياتي عن الحرب العالمية الأولى
	الحلقة (٥)
٤١	..... من ذكريات الطفولة أيضاً
	الحلقة (٦)
	من المدرسة التجارية إلى المدرسة السلطانية، ومن العهد التركي
٤٩	..... إلى العهد العربي
	الحلقة (٧)
٥٧	..... في المدرسة السلطانية
	الحلقة (٨)
٦٥	..... منعطف خطير في تاريخ سوريا

- الحلقة (٩) .....  
٧٣ عهد جديد في حياتي، وذكرياتي عن الجامع الأموي .....
- الحلقة (١٠) .....  
٨١ من جوار الأموي إلى سفح جبل قاسيون .....
- الحلقة (١١) .....  
٨٧ فصل جديد في تاريخ الشام .....
- الحلقة (١٢) .....  
٩٥ في امتحان الشهادة الابتدائية، خطبي الأولى وتهجمي على  
الفرنسيين
- الحلقة (١٣) .....  
١٠٣ في ثانوية «مكتب عنبر»، ومرحلة خصبة وهامة في حياتي .....
- الحلقة (١٤) .....  
١٠٩ في مكتب عنبر .....
- الحلقة (١٥) .....  
١١٥ أساتذتي في مكتب عنبر .....
- الحلقة (١٦) .....  
١٢٣ أساتذتي في مكتب عنبر أيضاً .....
- الحلقة (١٧) .....  
١٣١ من مصر إلى الشام .....
- الحلقة (١٨) .....  
١٤١ جدي الشيخ أحمد الطنطاوي .....
- الحلقة (١٩) .....  
١٤٩ عود للحديث عن مكتب عنبر .....
- الحلقة (٢٠) .....  
١٥٩ شغلي الدائم المطالعة .....

١٦٧	.....	ثورة في المدرسة	الحلقة (٢١)
١٧٥	.....	صفحة جديدة في سبفر حياتي	الحلقة (٢٢)
١٨٣	.....	لما صرت تاجراً	الحلقة (٢٣)
١٩١	.....	مشايخي خارج المدرسة	الحلقة (٢٤)
١٩٩	.....	أسرة الخطيب ريعض أسر دمشق العلمية	الحلقة (٢٥)
٢٠٧	.....	الثورة على الفرنسيين	الحلقة (٢٦)
٢١٧	.....	كيف انطلقت الثورة	الحلقة (٢٧)
٢٢٥	.....	شعر الثورة في مكتب عمر	الحلقة (٢٨)
٢٣٣	.....	من شعر الثورة	الحلقة (٢٩)
٢٤١	.....	النجاح في الكالوريا والسر إلى مصر	الحلقة (٣٠)
٢٤٩	.....	اليوم الاول في مصر	الحلقة (٣١)
٢٥٧	.....	ظهور الدعوة الإسلامية في مصر	الحلقة (٣٢)

الحلقة (٣٣)

العودة إلى دمشق وإنشاء جمعية الهداية الإسلامية ..... ٢٦٥

الحلقة (٣٤)

تقلّبات على الطريق ..... ٢٧٥

قسم الصور ..... ٢٨٧

قسم الصور



علي الطنطاوي في الصبا والشباب



ساحة المرجة في دمشق



صورة أخرى لساحة المرجة بدمشق





نصر المص



جامع الأموي في دمشق





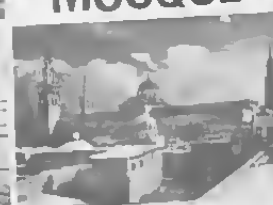
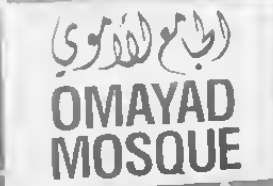
صورة المـ في دمشق



المدرسة السلطانية الثانية التي صارت كلية الحقوق ثم مديرية التربة في دمشق



الجامع الأموي في دمشق



الجامع الأموي في دمشق



من الططاري عام ١٣:٢ هـ



علي الطنطاوي حينما حصل على الشهادة الابتدائية وهو الجالس على الأرض على يمين الصورة



# الكتاب المدرسي

للسنة الدراسية ١٩٤٠

إعداد: ...

مراجعة: ...



الكتاب المدرسي

الكتاب المدرسي	الكتاب المدرسي	الكتاب المدرسي	الكتاب المدرسي	الكتاب المدرسي	الكتاب المدرسي	الكتاب المدرسي
١	١٠	عشرة	الكتاب المدرسي	١٠	عشرة	الكتاب المدرسي
٢	١٠	عشرة	الكتاب المدرسي	١٠	عشرة	الكتاب المدرسي
٣	١٠	عشرة	الكتاب المدرسي	١٠	عشرة	الكتاب المدرسي
٤	١٠	عشرة	الكتاب المدرسي	١٠	عشرة	الكتاب المدرسي
٥	١٠	عشرة	الكتاب المدرسي	١٠	عشرة	الكتاب المدرسي
٦	١٠	عشرة	الكتاب المدرسي	١٠	عشرة	الكتاب المدرسي
٧	١٠	عشرة	الكتاب المدرسي	١٠	عشرة	الكتاب المدرسي
٨	١٠	عشرة	الكتاب المدرسي	١٠	عشرة	الكتاب المدرسي
٩	١٠	عشرة	الكتاب المدرسي	١٠	عشرة	الكتاب المدرسي
١٠	١٠	عشرة	الكتاب المدرسي	١٠	عشرة	الكتاب المدرسي

الكتاب المدرسي ...

الكتاب المدرسي ...

الكتاب المدرسي ...

شهادة الكفاءة التي حصل عليها علي الخطاوي في العام الدراسي ١٩٢٣ - ١٩٢٤ م

مدرسة المعلمين بطنجة ١٩٢٤ - ١٩٢٣

الاسم	الدرجة	المرتبة	اللقب
أبو بكر	معلم	١	أبو بكر
أبو بكر	معلم	٢	أبو بكر
أبو بكر	معلم	٣	أبو بكر
أبو بكر	معلم	٤	أبو بكر
أبو بكر	معلم	٥	أبو بكر
أبو بكر	معلم	٦	أبو بكر
أبو بكر	معلم	٧	أبو بكر
أبو بكر	معلم	٨	أبو بكر
أبو بكر	معلم	٩	أبو بكر
أبو بكر	معلم	١٠	أبو بكر
أبو بكر	معلم	١١	أبو بكر
أبو بكر	معلم	١٢	أبو بكر
أبو بكر	معلم	١٣	أبو بكر
أبو بكر	معلم	١٤	أبو بكر
أبو بكر	معلم	١٥	أبو بكر
أبو بكر	معلم	١٦	أبو بكر
أبو بكر	معلم	١٧	أبو بكر
أبو بكر	معلم	١٨	أبو بكر
أبو بكر	معلم	١٩	أبو بكر
أبو بكر	معلم	٢٠	أبو بكر

شهادة الكفاءة التي حصل عليها علي الخطاوي في العام الدراسي ١٩٢٣ - ١٩٢٤ م

الاسم	الدرجة	المرتبة	اللقب
أبو بكر	معلم	١	أبو بكر
أبو بكر	معلم	٢	أبو بكر
أبو بكر	معلم	٣	أبو بكر
أبو بكر	معلم	٤	أبو بكر
أبو بكر	معلم	٥	أبو بكر
أبو بكر	معلم	٦	أبو بكر
أبو بكر	معلم	٧	أبو بكر
أبو بكر	معلم	٨	أبو بكر
أبو بكر	معلم	٩	أبو بكر
أبو بكر	معلم	١٠	أبو بكر
أبو بكر	معلم	١١	أبو بكر
أبو بكر	معلم	١٢	أبو بكر
أبو بكر	معلم	١٣	أبو بكر
أبو بكر	معلم	١٤	أبو بكر
أبو بكر	معلم	١٥	أبو بكر
أبو بكر	معلم	١٦	أبو بكر
أبو بكر	معلم	١٧	أبو بكر
أبو بكر	معلم	١٨	أبو بكر
أبو بكر	معلم	١٩	أبو بكر
أبو بكر	معلم	٢٠	أبو بكر





مكتب عنبر

علي الطنطاوي



علي الطنطاوي في الصف العاشر - مجلة الأدب



صورة لأساتذة مكتب عنبر مع الخريجين عام ١٩١٢ في بستان آل البكري بالقابون

صورة أخرى للأستاذة والخريجين في ذلك البستان تحتل فيها نواصع الأستاذة في حلقهم ستر يعمد على الأرض





بعض أساتذة علي الطنطاوي في مكتبه



الأستاذ جودت الكيال

الأستاذ سليم الحندي



الأستاذ محمد علي الجزائري



الأستاذ يحيى الشماع

صورة ثانية لبعض الأساتذة في مكتب عنبر



الأستاذ جودت الهاشمي



الأستاذ مسعود



الأستاذ هاشم الفصيح



صورة نالته أيضاً لأساتذة المكتب



الشيخ عبد القادر



الشيخ محمد الداودي



الشيخ عبد الرحمن سلام



الأستاذ حسن يحيى الصبان

من علماء دمشق في القرن الرابع عشر هجري



الشيخ أبو الخير المبداني



الشيخ حمال



الشيخ علي الدفري

مکافأة مدرسية لعملي الططاري على حسن سلوكه واجتهاده







LYCEE & ECOLE NORMALE  
à DAMAS.

دار المعلمين  
بدمشق

سجل الاعمال

LIVRET SCOLAIRE

50  
n de l'élève

صف ١٠  
اسم التلميذ محمد بن طهارة

Année 192

١٩٢

مطبعة ابن زيدون  
IMPR. BEN-ZEIDOUN

مدونات الاساندة

هذا الجب دالمة	حسب
صرا لوفدو ريم لوفيد لفرقة دنة سجون شانه	اوسنة
عنه المصدرة والمصدرة	احسن عينة
اجنونه فاضله ستم لوفيدو الحسنة	رباضيد
	طبيبات
	كيت
	رر
	الري
محسنة وفاقل	
تلقا فضيلة كنفسه وكرسيه سايه جدا	

توقيع الولي  
SIGNATURE DES PARENTS



توقيع المدير  
LE DIRECTEUR

محمد

في الفحص التحريري الثاني

Cours	Notes obtenues M.	العلامات المكتسبة المدل	درس
Instruction relig.		٩	الدين
Langue arabe		٩	العربية
Composition arabe		٨	الانشاء
Langue française		٨	الافرنسية
Composition "		٦	الانشاء
Histoire générale		٨	التاريخ العام
" " cienne		٨	التاريخ القديم
Géog.		٨	الجغرافيا
Arithm.			الحساب
Géomé.		٧	الهندسة
Algebr.		٤	الجبر
Comptab.			مك الدفاتر
Trigone		٧	المثلثات
Mécaniq.			الميكانيك
Cosmog.			الفلك
Physiq.			الحكمة
Chimie			الكيمياء
Physiol.			منافع الاعضاء
Botanique			علم النبات
Zoologie			علم الحيوان
Géologie			طبقات الارض
Économie			الاقتصاد
Philosophie			الفلسفة

## Deuxième examen écrit

Cours	Notes obtenues M <sub>1</sub>	العلامات المكتسبة المدل	درس
Psychologie			فن العربية
Pédagogie			اصول التدريس
Travail manuel			الاشغال البدوية
Dessin d'art			الرسم الفني
Dessin géométrique		✓	الرسم الهندسي
Musique			الموسيقى
Gymnastique			الرياضة البدوية
Manipulation			تطبيقات عملي

ABSENCES

CONDUITE

التغيب : ٤

السلوك : ١٠

PRÉSENCES

PLACE

٦

١٠

الدوام :

الدرجة :

نوقيع الولي

SIGNATURE DES PARENTS



نوقيع المدير

LE DIRECTEUR

رئيس بعث عورتى الى المدرسة  
والتجارة دكترا الاول) ٧ فاتي  
لا هو لحا

تم قرأت النظم والنوحيات

والنحوية الفصحى والنجارية

هندسة بابا انشا عولي

فوائد الشراكية وعلم الادب

وكل زاد في مكتب محلي :-

لكنه في تارة الارشادي

وهدا اذنت من اعمال الطلبة

للعلم حتى سرت من كل حدب

ولدت عام السبع والستين

من لعبت اثني عشر شهرا

وفي تجو العرش البيت

ومن لبان الغنفل قد نبت

فكنت في المكتب من حين الصغر

لدى ذوي ثم بفضل وفكر

فاولاد

سأبلى على الطير ح

ترجمة لوالد علي الطنطاوي بخطه، وقد كتبها نظماً وبخط فارسي جميل، وقدمها  
لنائب مركز سوريا ليصدق عليها، فأجابته من البحر نفسه، والقافية ذاتها:  
العلم في ناظيها مُحَقَّقٌ وما حوى جميعه مُصَدَّق - رمضان ١٣٢٨ هـ -





صورة لعلي الطنطاوي وإخوته:  
ناجي، وعبد الغني، ومحمد سعيد، ومعهم أختهم الصغيرة.





عمل الطنطاوي في القاهرة عام ١٣٤٨ هـ وقد سافر إليها في عام ١٩٢٨ .



علي الطنطاوي في عام ١٣٤٨ هـ



سعود  
الحديث



علي الطنطاوي  
أنور العطار - مظهر العظيمة

# دارالعلوم

الثاني التمهيد والموسيقى

٧٠ - سلسله

وصل من حصرة تسير على طرطال ري

٧١ - سلسله

فيما ائت الاكر من شير كسور ستر ١٩٢٢

١٩٢٩ - ١٥ - شير

ابن الحسين

عبد الله



دارالعلوم

١٨١٥

بابه قضا

٥٥

درماتر سیر که الماده ن لغو دارا

سماز نمره الموده سدی

نقاء سحر اهد

مبدا المراه

المال المکر

المال المکر

٥٥

المال المکر

دارالعلوم

123

١٠٠  
 ١٠١  
 ١٠٢  
 ١٠٣  
 ١٠٤  
 ١٠٥  
 ١٠٦  
 ١٠٧  
 ١٠٨  
 ١٠٩  
 ١١٠  
 ١١١  
 ١١٢  
 ١١٣  
 ١١٤  
 ١١٥  
 ١١٦  
 ١١٧  
 ١١٨  
 ١١٩  
 ١٢٠  
 ١٢١  
 ١٢٢  
 ١٢٣  
 ١٢٤  
 ١٢٥  
 ١٢٦  
 ١٢٧  
 ١٢٨  
 ١٢٩  
 ١٣٠  
 ١٣١  
 ١٣٢  
 ١٣٣  
 ١٣٤  
 ١٣٥  
 ١٣٦  
 ١٣٧  
 ١٣٨  
 ١٣٩  
 ١٤٠  
 ١٤١  
 ١٤٢  
 ١٤٣  
 ١٤٤  
 ١٤٥  
 ١٤٦  
 ١٤٧  
 ١٤٨  
 ١٤٩  
 ١٥٠  
 ١٥١  
 ١٥٢  
 ١٥٣  
 ١٥٤  
 ١٥٥  
 ١٥٦  
 ١٥٧  
 ١٥٨  
 ١٥٩  
 ١٦٠  
 ١٦١  
 ١٦٢  
 ١٦٣  
 ١٦٤  
 ١٦٥  
 ١٦٦  
 ١٦٧  
 ١٦٨  
 ١٦٩  
 ١٧٠  
 ١٧١  
 ١٧٢  
 ١٧٣  
 ١٧٤  
 ١٧٥  
 ١٧٦  
 ١٧٧  
 ١٧٨  
 ١٧٩  
 ١٨٠  
 ١٨١  
 ١٨٢  
 ١٨٣  
 ١٨٤  
 ١٨٥  
 ١٨٦  
 ١٨٧  
 ١٨٨  
 ١٨٩  
 ١٩٠  
 ١٩١  
 ١٩٢  
 ١٩٣  
 ١٩٤  
 ١٩٥  
 ١٩٦  
 ١٩٧  
 ١٩٨  
 ١٩٩  
 ٢٠٠  
 ٢٠١  
 ٢٠٢  
 ٢٠٣  
 ٢٠٤  
 ٢٠٥  
 ٢٠٦  
 ٢٠٧  
 ٢٠٨  
 ٢٠٩  
 ٢١٠  
 ٢١١  
 ٢١٢  
 ٢١٣  
 ٢١٤  
 ٢١٥  
 ٢١٦  
 ٢١٧  
 ٢١٨  
 ٢١٩  
 ٢٢٠  
 ٢٢١  
 ٢٢٢  
 ٢٢٣  
 ٢٢٤  
 ٢٢٥  
 ٢٢٦  
 ٢٢٧  
 ٢٢٨  
 ٢٢٩  
 ٢٣٠  
 ٢٣١  
 ٢٣٢  
 ٢٣٣  
 ٢٣٤  
 ٢٣٥  
 ٢٣٦  
 ٢٣٧  
 ٢٣٨  
 ٢٣٩  
 ٢٤٠  
 ٢٤١  
 ٢٤٢  
 ٢٤٣  
 ٢٤٤  
 ٢٤٥  
 ٢٤٦  
 ٢٤٧  
 ٢٤٨  
 ٢٤٩  
 ٢٥٠  
 ٢٥١  
 ٢٥٢  
 ٢٥٣  
 ٢٥٤  
 ٢٥٥  
 ٢٥٦  
 ٢٥٧  
 ٢٥٨  
 ٢٥٩  
 ٢٦٠  
 ٢٦١  
 ٢٦٢  
 ٢٦٣  
 ٢٦٤  
 ٢٦٥  
 ٢٦٦  
 ٢٦٧  
 ٢٦٨  
 ٢٦٩  
 ٢٧٠  
 ٢٧١  
 ٢٧٢  
 ٢٧٣  
 ٢٧٤  
 ٢٧٥  
 ٢٧٦  
 ٢٧٧  
 ٢٧٨  
 ٢٧٩  
 ٢٨٠  
 ٢٨١  
 ٢٨٢  
 ٢٨٣  
 ٢٨٤  
 ٢٨٥  
 ٢٨٦  
 ٢٨٧  
 ٢٨٨  
 ٢٨٩  
 ٢٩٠  
 ٢٩١  
 ٢٩٢  
 ٢٩٣  
 ٢٩٤  
 ٢٩٥  
 ٢٩٦  
 ٢٩٧  
 ٢٩٨  
 ٢٩٩  
 ٣٠٠  
 ٣٠١  
 ٣٠٢  
 ٣٠٣  
 ٣٠٤  
 ٣٠٥  
 ٣٠٦  
 ٣٠٧  
 ٣٠٨  
 ٣٠٩  
 ٣١٠  
 ٣١١  
 ٣١٢  
 ٣١٣  
 ٣١٤  
 ٣١٥  
 ٣١٦  
 ٣١٧  
 ٣١٨  
 ٣١٩  
 ٣٢٠  
 ٣٢١  
 ٣٢٢  
 ٣٢٣  
 ٣٢٤  
 ٣٢٥  
 ٣٢٦  
 ٣٢٧  
 ٣٢٨  
 ٣٢٩  
 ٣٣٠  
 ٣٣١  
 ٣٣٢  
 ٣٣٣  
 ٣٣٤  
 ٣٣٥  
 ٣٣٦  
 ٣٣٧  
 ٣٣٨  
 ٣٣٩  
 ٣٤٠  
 ٣٤١  
 ٣٤٢  
 ٣٤٣  
 ٣٤٤  
 ٣٤٥  
 ٣٤٦  
 ٣٤٧  
 ٣٤٨  
 ٣٤٩  
 ٣٥٠  
 ٣٥١  
 ٣٥٢  
 ٣٥٣  
 ٣٥٤  
 ٣٥٥  
 ٣٥٦  
 ٣٥٧  
 ٣٥٨  
 ٣٥٩  
 ٣٦٠  
 ٣٦١  
 ٣٦٢  
 ٣٦٣  
 ٣٦٤  
 ٣٦٥  
 ٣٦٦  
 ٣٦٧  
 ٣٦٨  
 ٣٦٩  
 ٣٧٠  
 ٣٧١  
 ٣٧٢  
 ٣٧٣  
 ٣٧٤  
 ٣٧٥  
 ٣٧٦  
 ٣٧٧  
 ٣٧٨  
 ٣٧٩  
 ٣٨٠  
 ٣٨١  
 ٣٨٢  
 ٣٨٣  
 ٣٨٤  
 ٣٨٥  
 ٣٨٦  
 ٣٨٧  
 ٣٨٨  
 ٣٨٩  
 ٣٩٠  
 ٣٩١  
 ٣٩٢  
 ٣٩٣  
 ٣٩٤  
 ٣٩٥  
 ٣٩٦  
 ٣٩٧  
 ٣٩٨  
 ٣٩٩  
 ٤٠٠  
 ٤٠١  
 ٤٠٢  
 ٤٠٣  
 ٤٠٤  
 ٤٠٥  
 ٤٠٦  
 ٤٠٧  
 ٤٠٨  
 ٤٠٩  
 ٤١٠  
 ٤١١  
 ٤١٢  
 ٤١٣  
 ٤١٤  
 ٤١٥  
 ٤١٦  
 ٤١٧  
 ٤١٨  
 ٤١٩  
 ٤٢٠  
 ٤٢١  
 ٤٢٢  
 ٤٢٣  
 ٤٢٤  
 ٤٢٥  
 ٤٢٦  
 ٤٢٧  
 ٤٢٨  
 ٤٢٩  
 ٤٣٠  
 ٤٣١  
 ٤٣٢  
 ٤٣٣  
 ٤٣٤  
 ٤٣٥  
 ٤٣٦  
 ٤٣٧  
 ٤٣٨  
 ٤٣٩  
 ٤٤٠  
 ٤٤١  
 ٤٤٢  
 ٤٤٣  
 ٤٤٤  
 ٤٤٥  
 ٤٤٦  
 ٤٤٧  
 ٤٤٨  
 ٤٤٩  
 ٤٥٠  
 ٤٥١  
 ٤٥٢  
 ٤٥٣  
 ٤٥٤  
 ٤٥٥  
 ٤٥٦  
 ٤٥٧  
 ٤٥٨  
 ٤٥٩  
 ٤٦٠  
 ٤٦١  
 ٤٦٢  
 ٤٦٣  
 ٤٦٤  
 ٤٦٥  
 ٤٦٦  
 ٤٦٧  
 ٤٦٨  
 ٤٦٩  
 ٤٧٠  
 ٤٧١

مجلس اوله ۱۵۹۳  
۱۵۹۳

[illegible]

مجلسه نهم

1961-1

دار المنارة  
للنشر

جسده ص ب ١٢٥٠ / ٢١٤٣١ هاتف ٦٦٠٣٢٣٨ - ٦٦٠٣٦٥٢

تلكس : ١٠٣٠٦٧ عمران أس حمي